إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

فقه التغيير وبناء الأمة الوسط

الدكتور
المثنى عبد الفتاح محمود

البحث الفائز بجائزة
الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية المحكمة
لعام ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة

فِقهُ التَّغيير وبِناءُ الأُمّةِ الوَسَط

الدُّكتور
المُثنّى عبدُ الفتّاح محمُود

البحثُ الفائزُ بجائزة
الشّيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفيّة العالميّة المحكّمة
لعام ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الطبعة الأولى

رجب ١٤٣٧هـ - نيسان (إبريل) ٢٠١٦م

المثنى عبد الفتاح محمود محمود

فقه التغيير وبناء الأمة الوسط

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٦م.

٣٠٠ ص، ٢٤سم

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ١٦١ / ٢٠١٦

الرقم الدولي الموحد للكتاب: ٩٧٨/٩٩٢٧/١٢٠/٢٦/٨

جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية

هاتف : ٤٤٤٤٧٣٠٠/٤٤٧٠٠٦٢٢ - فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ...﴾

(البقرة: ١٤٣)

د. المثنى عبد الفتاح محمود محمود

* من مواليد المملكة الأردنية.
* يحمل شهادة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن.
* محاضر في عدد من الجامعات العربية.
* أستاذ مشارك، قسم التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
* مدرس مساقات الثقافة الإسلامية، التعليم الإلكتروني.
* له عدة مشاركات في المؤتمرات والندوات العلمية.

*** له عدة بحوث علمية، منها:**

- نظرية السياق القرآني، دراسة تأصيلية دلالية نقدية.
- دلالة ترتيب الأنبياء في القرآن الكريم.
- منهج الأمم السابقة في التعامل مع دعوة الأنبياء والمرسلين.
- علل اختلاف التعبير في التقسيمات القرآنية.
- الإدماج في القرآن الكريم، دراسة بيانية تحليلية.
- موقف الشريعة من المفرج عنهم، ومنهج التعامل معهم.
- التأويل السياقي ودوره في بيان المقصود القرآني.

تقديم

سعادة الدكتور غيث بن مبارك الكواري

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ...﴾ (البقرة:١٤٣).

كانت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم مُنْطَلَقَ شُهُودِ أُمَّةِ الإسلامِ، حيث أُسِّسَتْ دولةُ الإسلامِ وِفْقَ قِيَمِ الدينِ الحنيفِ الذي كَفَلَ الحقوقَ لكُلِّ مكونات المجتمع مَهْما اِخْتَلَفَتْ أَلْوَانُهُمْ وَأَعْرَاقُهُم وعَقَائِدُهُمْ. واستطاع المسلمون أن يَبْنُوا حَضَارَةً تَفَاعَلَتْ مَعَ حَضَارَاتِ الْعَالَمِ فَطَوَّرُوا أفكارًا وَأَبْدَعُوا عُلُومًا وَأَسَّسُوا أُفُقًا مِنَ النَّظَرِ أَفْضَى إلى إبداعِ أَفْكَارٍ جديدةٍ تَأَسَّسَتْ عَلَيْهَا عُلُومٌ وَمَعَارِفُ، كَمَا اِسْتَوْعَبَ أَفْكَارًا حَيَّةً كَانَتْ جَارِيَةً في حضارات أخرى مُوَجِّهًا إِيَاهَا تَوْجِيهًا رَاعَى عَدَمَ مُصَادَمَتِهَا لِثَوَابِتِ الشَّرِيعَةِ. وَبِالْجُمْلَةِ، فقد تَأَسَّسَتِ الأمةُ الوسطُ عَلَى وَعْيٍ بِمَوْقِعِهَا الحضاريِّ، واسْتِشْعَارٍ كَامِلٍ بِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهَا مِنْ بِنَاءٍ لِلْإِنْسَانِ وَتَأْهِيلِ

لِقُدُرَاتِهِ، وَوَعْيٍ كَامِلٍ بِضَرُورَةِ تَوْفِيرِ الإِمْكَانَاتِ اللاَّزِمَةِ لِتَحْقيق تَنْمِيَةٍ بَشَرِيَّةٍ فِعْلِيَّةٍ تَتَوَافَقُ وَقِيَم الإسلام السمحة.

لقد غَيَّرَ الإسلامُ نَظْرَةَ القبائلِ والشعوبِ التي آمَنَتْ بِرِسَالَةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم إلى العالم، وَلَنَا في خِطَابِ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أَمَامَ النجاشي مَلِكِ الحبشة أَعْظَمَ اَلْعِبَرِ:

قال جعفر: «أَيُّهَا الْمَلِكُ! كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وحده لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فلم نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا».

لقد استطاع هذا الصحابي الجليل أن يُطْلِعَ النجاشيَّ ـ الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم حين أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة بأنه «**لا يُظْلَمُ عنده أحدٌ**» ـ على «**التغيير**» الإيجابي الذي حَدَثَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِرِسَالَةِ الإسلامِ فَنَقَلَهُمْ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّى إِلَى أُمَّةٍ تَتَوَجَّهُ بِالْعِبَادَةِ إِلَى اَللهِ اَلْوَاحِدِ الأَحَدِ اَلْفَرْدِ اَلصَّمَدِ، وَتَبْنِي عَلاَقَاتِهَا اَلْبَيْنِيَّةِ عَلَى اَلصِّدْقِ وَالتَّكَافُلِ، وَتُوَطِّد اَلْعَدْلَ والمساواة، وَتُحَارِب اَلْفَسَادَ، وَتَأْمُرَ بالمعروفِ وَتَنْهَى عَنِ اَلْمُنْكَرِ.. وَلِهَذَا اِقْتَنَعَ اَلنَّجَاشِيُّ بِرُجْحَانِ مَا عَلَيْهِ

اَلْمُهَاجِرُونَ الأربعة والتسعون اَلَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى بَلَدِهِ فِي مَرْحَلَتَيْنِ، بَيْنَمَا اِقْتَنَعَ بِكَيْدِيَةِ طَرْحِ عمرو بن العاص مَبْعُوثِ قريش حِينَئِذٍ.

وَجَاءَتْ صَحِيفَةُ اَلْمَدِينَةِ لِتَعْكِسَ اِسْتِيعَابَ دَوْلَةِ الإسلامِ لِكَافَّةِ اَلْمُكَوِّنَاتِ اَلْمُجْتَمَعِيَّةِ وَاَلْعَقَدِيَّةِ فِي مِيثَاقٍ مُحَدَّدِ اَلْوَاجِبَاتِ، مُحَقِّقِ اَلْحُقُوقِ؛ لَقَدْ أَسَّسَ «دُسْتُورُ المدينةِ» أُفُقًا لِلْعَيْشِ اَلْمُشْتَرَكِ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ مُسْتَوْعَبًا فِي إِطَارِ اَلْحُقُوقِ قَبْلَ بِعْثَةِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَمَا لَخَّصَتْ خُطْبَةُ حَجَّةِ اَلْوَدَاعِ أُمُورًا أَسَاسِيَةً كَانَتْ جَوْهَرَ «اَلتَّغْيِيرِ» اَلَّذِي اِسْتَوْعَبَهُ المسلمونَ عَلَى عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَرَنَا رسولُ اللهِ بِأَنْ يُبَلِّغَ مَضَامِينَهُ اَلشَّاهِد اَلْغَائِبَ. وَمن تلك الأمور: الناس مُتَسَاوُونَ فِي الإنسانيةِ، وَأَنَّ اَلتَّفَاضُلَ لا يكون إلا بالتقوى، وَأَنَّ سَفْكَ اَلنَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ حَرَامٌ، وأن الظلم حرام، وأن تَدَاوُلَ المال بين الناس وَاجِبٌ، وَأَنَّ اَلرِّبَا حَرَامٌ، وأن النساء شَقَائِقُ اَلرِّجَالِ فِي التكليف، وَأن كل أفراد المجتمع سَوَاءٌ أَمَامَ القانون...

وَلَنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ الصورةَ التي كانتِ المجتمعاتُ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَنُصَّ الإسلامُ عَلَى أُسُسِ اَلتَّغْيِيرِ المذكورَةِ أَعْلَاهُ، وَقَبْلَ أَنْ تَتَكَوَّنَ الأمةُ الوسطُ اَلشَّاهِدَةُ عَلَى اَلنَّاسِ، اَلدَّاعِيَةُ إِلَى المعروفِ، اَلنَّاهِيَةُ عَنِ المنكرِ. كَمَا بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَرْصُدَ كَيْفَ اِنْتَشَرَتْ تَعَالِيمُ الإسلامِ فِي الآفَاقِ فِي زَمَنٍ قِيَاسِيٍّ، وَكَيْفَ اِسْتَوْعَبَتِ الأمةُ الأَوْطَانَ والأَعْرَاقَ وَاللُّغَاتِ واللَّهْجَاتِ، وَكَيْفَ صَارَ كُلُّ فَرْدٍ مُسْلِمٍ لَبِنَةً أَسَاسِيَةً فِي جِدَارٍ مَنِيعٍ، تَسُدُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا غَيْرَهَا لِتَزْدَادَ صَلَابَةُ اَلْجِدَارِ وَمَتَانَتِهِ. إِنَّ اَلتَّكَامُلَ اَلَّذِي حَصَلَ بَيْنَ أَبْنَاءِ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَةِ، زَمَنَ شُهُودِ اَلْحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَةِ، نَشَأَ بِاسْتِيعَابِ المسلمينَ لِشُرُوطِ «اَلتَّغْيِيرِ اَلْإِيجَابِيِّ» اَلَّذِي يَتَأَسَّسُ عَنِ اَلْفَهْمِ اَلْمُوجِبِ لِأَوَامِرِ

اَلدِّينِ وَنَوَاهِيهِ، وَيَرْسَخُ بِتَطَابُقِهِ مَعَ مَقَاصِدِ اَلشَّرِيعَةِ اَلْغَرَّاء، فَيَحْفَظُ اَلدِّينَ والنَّفْسَ والعقلَ، والنسلَ، والمالَ، وَيَحْفَظُ كُلَّ اَلْمَقَاصِدِ اَلْمُتَفَرِّعَةِ عَنْهَا.

وَنَظَرًا لِأَهَمِّيَّةِ فِقْهِ اَلتَّغْيِيرِ فِي بِنَاءِ الأمةِ الوسطِ، فَقَدْ رَأَى اَلْقَائِمُونَ على جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، رحمه الله تعالى، تَخْصِيصَ مَوْضُوعِ الجائزة لِمُقَارَبَتِهِ. وَإِنَّنَا إِذْ نُقَدِّمُ لِهَذَا اَلْبَحْثِ اَلْفَائِزِ، نُنَوِّهُ بِالدَّوْرِ اَلتَّأْصِيلِيِّ اَلَّذِي تَقُومُ بِهِ هَذِهِ الجائزةُ المباركةُ، وَقَدْ وَصَلَتِ الآنَ إِلَى عَامِهَا الحادي عشر، وَنَجَحَتْ في أَنْ تُؤَسِّسَ خَطًّا عِلْمِيًّا رَصِينًا جَعَلَهَا تَحْظَى بِاهْتِمَامِ اَلْبَاحِثِينَ في الدراساتِ الإسلاميةِ في العالمِ، وَتَسْعَى إِلَى أَنْ تُوَاصِلَ عَطَاءَهَا اَلْعِلْمِيَّ برعاية حضرة صاحب السمو الشيخ تميم بن حمد بن خليفة آل ثاني، أمير البلاد المفدى حفظه الله تعالى.

وَلَا يَفُوتُنِي أَنْ أُنَوِّهَ بالجهد الكبير الذي بَذَلَتْهُ لجنةُ الجائزةِ في اختيارِ موضوعِ الجائزةِ وَتَحْكِيمِ البحوثِ اَلْمُتَوَصَّلِ بِهَا من جميع أنحاء العالم الإسلامي والعالم. وَإِنَّ الوزارةَ لَنْ تَدَّخِرَ جُهْدًا في تَطْوِيرِ هذه الجائزةِ وَتَيْسِيرِ الانتفاعِ بِثِمَارِهَا في أَوْسَعِ نِطَاقٍ عَبْرَ نَشْرِ بُحُوثِهَا بِكَافَةِ اَلْوَسَائِلِ اَلطِّبَاعِيَةِ اَلْمُتَاحَةِ وترجمتها إلى لغات عالمية، إِسْهَامًا في تَحْقِيقِ اَلْأَمْنِ اَلثَّقَافِيِّ، وَتَشْجِيعًا لِلْبَحْثِ اَلْعِلْمِيِّ اَلرَّصِينِ فِي مَجَالِ اَلْفِكْرِ والدراساتِ الإسلاميةِ.

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥).

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

فقه التغيير
وبناء الأمة الوسط

المحاور الرئيسة

*** مدخل:**

مفهوم الأمة؛ مفهوم التغيير؛ تعريف الأمة الوسط؛ الوظيفة الحضارية للأمة الوسط؛ أبعاد الشهود الحضاري (الشهادة على الناس وهدايتهم إلى الخير).

*** المحاور:**

*** عوامل تشكيل الأمم:**

- لمحة تاريخية؛ متطلبات بناء أمة الرسالة؛ التغيير بين الأمة والدولة؛ العقيدة والسياسة في حقبة العولمة.

*** سنة التغيير:**

- سنن المدافعة والصراع بين الخير والشر؛ التغيير بين ذهنية الاستحالة وذهنية السهولة؛ مشروعية التغيير؛ أسباب ودواعي التغيير؛ التغيير إنتاج نخبة وإنجاز أمة.

*** فقه تغيير المنكر:**

- وسائل التغيير؛ آداب وضوابط التغيير؛ أبعاد منهجية التغيير؛ منهج النبوة في التغيير.

*** إعادة البناء ومرتكزات النهوض:**

- مقومات البناء (الإمكان الحضاري)؛ حركات التغيير والإصلاح وعبرتها؛ توفير شروط وظروف الميلاد الأول (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها)؛ عقبات وتحديات على طريق التغيير؛ استراتيجية وشروط النهوض.

*** رؤية مستقبلية لمعاودة بناء الأمة الوسط.**

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، نحمده القائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، فشرَّفنا وكرَّمنا بخيرية الإخراج للناس دعوةً وهدايةً: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠) ليكون الإخراج أداة الشهادة، ويكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مادة الشهادة، بضابط الإيمان ورقابة الشهادة النبوية: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣)، ونصلي على الرسول النبي الأمي المبعوث رحمةً للعالمين، الذي اختاره سبحانه أمياً تالياً ومزكياً، معلماً وهادياً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢)؛ لتكون الدعوة الهدائية والنهضة الحضارية مستوحاة من الوحي المعصوم، الذي لا يقبل التزيد أو الافتآت، ولتكون المعجزة في تضاعيف المعجزة، وليكون الإعجاز أثراً من آثار كتاب الإعجاز.

وبعد؛

فإن الدرس الفكري المعاصر، الباحث في فقه التغيير الحضاري، المعتمد على البناء المتكامل للأمة الوسط في أبعادها الإيمانية والأخلاقية والشرعية، ضرورةٌ إيمانيةٌ، وواجبٌ شرعي، وارتقاء حضاري، وإنَّ التقصير في هذا الجانب من جوانب العمل النهضوي المبني على الدراسة المنهجية المعتمدة في طرحها على القيم المعصومة في مادتها ومآلاتها، لهو من تفويت المقصود الإلهي، الذي جعله سبحانه آيةً تنوِّر بصائر الأفهام، وتُزيل غشاوة الصدور: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)؛ ليتحقق المقصود بأداة الابتلاء، الذي ترجمته ألسن الملائكة استفساراً وتحققاً لما فهموه: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠)، وهي غاية من ورائها غاية، ومقصود تضمنه مقصود، غاية الاستخلاف المسبوق بسنة التمحيص والابتلاء: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ٢-٣).

وهذه الأيام الحرجة التي تمر بها الأمة هي أيام الإفساد وسفك الدماء ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ (البقرة: ٣٠)، التي ستتلوها – إن شاء الله – أيام الاستخلاف والاستمكان، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص: ٥-٦)، وهي مرحلة متراخية عن مرحلة الفتنة التي تستجيب فيها الأمة الوسط لأمر ربها؛ ليكون البناء الصادق الكاشف عن نوايا العبودية الحقة، ولتخرج الأمة الوسط من انتشارها الأفقي إلى تمركزها العامودي، ولتتحول عن استجابتها التقليدية إلى

الاستجابة النهضوية، ومن مسيرتها الرتيبة إلى المسيرة الحضارية؛ لتحقق المطلوب القرآني: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٨٧-٨٨).

ومن هنا فإن طرح موضوع جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني «**فقه التغيير وبناء الأمة الوسط**» جاء على قدر الله تعالى، في وقت احتياج العلماء والمفكرين إلى استلهام نصوص الوحي لاستخراج كنوز التَّقَوِّي على مسيرة العمل المعاصر، في ظل الظروف التي اختلطت فيها الأوراق، وارتفع صوت العاطفة الجياشة أحياناً، وصوت التهدئة الخبيثة أحياناً أخرى، وغاب صوت الحكمة الصادر عن فهم المراد من آيات الكتاب في كثير من الأحيان - وهذا من الابتلاء والتمحيص والفُتُون -، وإنها لـدُرَّةٌ يتيمة، وواسطةُ عِقد القلادة هذه الجائزة في موضوعها المتميز لهذا العام، وإنها لمن توفيق المولى أن تأتي على ميعاد أراده سبحانه بهمة المُستلهمين القارئين لمسيرة التاريخ البشري بدقة وعناية ورعاية، وبإرادته وتوفيقه قبل ذلك: ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ (الأنفال:٤٢).

هذا ومنذ اللحظة الأولى، التي قرأت فيها موضوع الجائزة لمع بارقُها ذهني، فأنار لي سبيلاً أبحث عنه للولوج في موضوع أجمع فيه شتات فكري حول فقه التغيير، الذي أشغلني منذ عقدين من الزمن، لأبحث فيه من جديد بحثاً مرتبطاً بخطة وضعت بعناية فائقة، وبدقة عالية، وبرعاية علمية كريمة، فجاءت حجر زاوية غير نافرة ولا قلقة، وهذا من العمل المؤسسي الاستراتيجي الهادف.

وقد أخذت على عاتقي أن أبحث هذا الموضوع من خلال التأصيل العلمي والفكري في الاعتماد على مصدرية الوحي كتاباً وسنةً، وأن لا ألجأ إلى تكثير النقول الفكرية من هنا وهناك، أو الاتكاء على المصطلحات المترادفة الرنانة ذات الطبقية اللفظية المخملية، التي تُلقي في النفس عُجباً، وفي الفكر انبهاراً؛ كما هي عادة الحداثيين العرب، الذين آثروا تقليد الطبقة الفكرية الغربية، فارتموا في أحضان التقليد للمستعمِر الثقافي في أدواته ووسائله من حيث لا يشعرون، وغاية ما أردته أن أستلهم مراد ربي في هذا الباب العظيم من العبادة الفكرية التأملية التدبرية العلمية، فإن أصبتُ فمن توفيقه ومنّه عليَّ، وإن كانت الأخرى فلا حول ولا قوة إلا به، وإنها لشرعة السماء: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥).

فأسأله سبحانه أن يجعلني ممن أحسن ويُحسن فيدخل في زمرة المحبوبين، إنه ولي ذلك والقادر عليه،

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الأول
تحرير المفاهيم المفتاحية

المبحث الأول: مفهوم الأمة

تأخذ المفاهيم جانباً مهماً في حياة الأمة الفكرية والعلمية على حد سواء، فبتحديد مفاهيم المعاني يتضح المنهج العلمي، الذي تسير عليه أيُّ جماعة أرادت العلم والثقافة طريقاً لها، ولا توجد أمة من بين الأمم – على كثرتها وتكاثرها – وعت هذا الأمر وعياً يؤهلها لقيادة البشرية قيادة فكرية علمية هدائية كما كان للأمة الإسلامية، فهي الأمة الرائدة في تبصير الناس بمعاني المفاهيم، بما تُقلُّه الألفاظُ من معانٍ ومضامين، وهذا نابع – بطبيعة الحال – من الاستقلالية الفكرية التي اتصفت بها أمة الإسلام، والمسؤولية الإيمانية التي تعني أن المسلم محاسبٌ على كل صغيرة وكبيرة، وأن كلَّ لفظة ينطق بها فعليه أن يعيَ أبعادها، وأن يدرك مضامينها؛ ولذا كان من الضرورة بمكان قبل البدء بأي عمل علمي، تناولُ المفاهيم التي ستُدرس، وطرحها على طاولة البحث تمحيصاً وتحقيقاً وتدقيقاً[1].

وبناءً على المتقدم فسأتناول الاشتقاق اللغوي للفظة الأمة؛ لما ينبني عليه من فهم لغوي سديد، ومن ثَمَّ أبين الأصل اللغوي لهذه اللفظة، من خلال مناقشة

---

(١) يُنظر: نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية، المثنى عبد الفتاح محمود، دار وائل للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص١١.

رأيين أصيلين في هذا المضمار، وهما رأي صاحب العين ورأي أبي عمرو الشيباني، رحمهما الله تعالى، ثم آتي على المعاني الفرعية لهذه اللفظة، وما ينشأ عن ذلك من استنباطات لغوية تُعيننا في الوصول إلى المفهوم المنضبط على ضوء لغة العرب، ثم بيان الاستعمال القرآني لهذه اللفظة، ومثله في السنة النبوية، وأثر ذلك في المفهوم الاصطلاحي ببعده الفكري الحضاري.

ومن هنا فأقول: قد تعددت اتجاهات المعاجم في تاريخ تدوين اللغة، وحمل ذلك على ترسيخ دلالات متنوعة في الفكر اللغوي؛ ولذا فإن منهج تحقيق المفردة يحتاج إلى الرجوع إلى المصادر الأصيلة في هذا الباب - دون الاكتفاء بالمراجع الناقلة، أو المراجع ذات البعد الفكري في فهم المفردة اللغوية -، وإعطاء خلاصة لغوية لكل أصل، فالاجتهاد في التحقيق اللغوي للمفردة ذات البعد الحضاري واجب علمي تقتضيه طبيعة البحث، وتفرضه ظروف الاستنباط وملابساته في إعطاء تصور منضبط حول المفاهيم، التي ترتبط بمنهج التغيير.

ولا يخفى أن المفهوم اللغوي يمثل للألفاظ الركن الأصيل في تحديد المعنى الاصطلاحي وتوضيحه؛ ولذا كان من اللازم بيان المعنى اللغوي وعطف المعنى الاصطلاحي عليه، وسأورد مجموعة من النصوص من مصادرها الأصيلة، ثم أقف معها تحليلاً وبياناً، ومن ثم نخلص إلى مفهوم لغوي متكامل حول هذه المفردة «الأمة»، وقد كثرت الأقوال وتعددت في بيان المفهوم اللغوي لهذا اللفظ، وهو يشير - بطبيعة الحال - إلى خصوبة المعاني وثرائها، وأنها قادرة على إنجاب الدلالات المتعددة، وهو يعكس بذلك الحالة الفكرية التي يعيشها هذا اللفظ العربي، وما توارثه من صفات ودلالات.

الاشتقاق اللغوي:

ذهب ابن فارس إلى أن الأمة مشتقة من (أمّ)[1]، فالأم: التي تجمع الشيء[2]، وهي بذلك اسم فاعل؛ فهي التي تقوم بفعل الجمع، ومثلها الأمة التي تجمع فروعها وفِرَقَها إلى أصل واحد، أو اسم مفعول كما قال أبو البقاء: «الأُمة بالضم، في الأصل المقصود؛ كالعُمدة والعُدَّة في كونهما معموداً ومُعدّاً»[3]، وبينه أتمَّ منه ابن عاشور بقوله: «وهي بزنة فُعلة، وهذه الزِنة تدل على المفعول، مثل: لقطة وضحكة وقدوة، فالأمة بمعنى مأمومة، اشتقت من الأَم بفتح الهمزة وهو القصد؛ لأن الأمة تقصدها الفرق العديدة التي تجمعها جامعة الأمة كلها»[4]، فإذا كان أصلُ هذه الكلمة الأصلَ الضامَّ لفروعه فهي اسم فاعل، وإذا كان أصلُها القصدَ بمعنى المقصود فهي اسم مفعول، والصحيح أن المعنيين مرادان، فهي اسم فاعل؛ لأنها تضم الفروع، وهي اسم مفعول؛ لأنها مقصودة لذاتها هذا من حيث اشتقاقها ودلالته، وسيأتي زيادة بيان إن شاء الله تعالى لهذا المعنى.

الأصل اللغوي لكلمة الأمة:

عُنِيَ اللغويون بربط الألفاظ بعيون المعاني وأصولها، وأمُّ الألفاظ التي رعوا أصلها لتحديد ماهيتها «الأمة»، وتلخصت آراؤهم في رأيين اثنين وهي كما يأتي:

---

(١) يُنظر: **معجم مقاييس اللغة**، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ج١، ص٢١.

(٢) **الاشتقاق**، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط٣، ص٢٣٦.

(٣) **الكليات**، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، ص٢٥٩.

(٤) **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، ج١، ص٧٠١.

أولاً: رأي صاحب العين:

ذهب صاحب العين إلى أن لفظ الأمة - في أصله - يدل على: أصل يضم فروعاً؛ ولذلك نجده يقول: «اعلم أن كل شيء يُضم إليه سائر ما يليه؛ فإن العرب تسمي ذلك الشيء أمّاً، فمن ذلك: أم الرأس وهو الدماغ، ورجل مأموم، والشجة الآمة التي تبلغ أمَّ الدماغ»[1]، وهي كلمة تدل على استقراء ونظر، فقد جعل رحمه الله تعالى الأصل الذي يتفرع عنه تفريعات أمّاً، وأتى بشواهد عديدة فمنها: «أم القرى مكة، وكل مدينة هي أم ما حولها من القرى، وأم القرآن كل آية محكمة من آيات الشرائع والفرائض والأحكام .. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾ (الزخرف:٤) أي: في اللوح المحفوظ»[2]، فدلت هذه الشواهد على أن (أم) تُطلق ويُراد منها أصل ضُمَّ إليه فروع تابعة له، وهو ما ذهب إليه غير واحد من أصحاب المعاجم[3]، متابعةً لصاحب العين رحمه الله، ويؤيد ذلك نقلُ الأزهريِّ عن النضر بن شميل قولَه: «الأم لكل شيء، هي المجمع له والمضم»[4]، و«أم الطريق: معظمها، إذا كان طريقاً عظيماً وحوله طرق صغار، فالأعظم أم الطريق»[5].

---

(١) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة المخزومي، ج٨، ص٤٢٦.

(٢) العين، الفراهيدي، ج٨، ص٤٢٦.

(٣) يُنظر: تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت–لبنان، ٢٠٠١م، ج١٥، ص٤٥٢، والمحيط في اللغة، الصاحب ابن عباد أبو القاسم إسماعيل بن عباد ابن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط١، عالم الكتب، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ -١٩٩٤م، ج١٠، ص٤٥٨.

(٤) تهذيب اللغة، الأزهري، ج١٥، ص٤٥٣.

(٥) تهذيب اللغة، الأزهري، ج١٥، ص٤٥٣.

ثانياً: رأي أبي عمرو الشيباني:

من العبارات القديمة التي نقلها الأزهري في تهذيبه عن أبي عمرو الشيباني في بيان الأصل الجامع لمفردة الأمة، قوله: «وذكر أبو عمرو الشيباني أن العرب تقول للشيخ إذا كان باقي القوة: فلان بإمة، راجع إلى الخير والنعمة؛ لأن بقاء قوته من أعظم النعمة[1]، قال: وأصل هذا الباب كله من القصد، يقال: أممت إليه، إذا قصدته، فمعنى الأمة في الدين، أن مقصدهم مقصد واحد، ومعنى الإمة في النعمة؛ إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه، ومعنى الأمة في الرجل المنفرد الذي لا نظير له، أن قصده منفرد من قصد سائر الناس .. قال: ومعنى الأمة: القامة، سائر مقصد الجسد، فليس يخرج شيء من هذا الباب عن معنى أممت، أي: قصدت»[2].

وإذا نظرنا في وقفة ابن السكيت مع التطور الدلالي لكلمة التيمم نجدها موفقةً في تأييد ما ذهب إليه الشيباني بوجهٍ من الوجوه، يقول رحمه الله: «أصل التيمم القصد، ويُقال: تيممته إذا قصدت له، قال الله جل وعز: ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ (النساء:٤٣)، أي: اقصدوا لصعيد طيب، ثم كثر استعمالهم هذه الكلمةَ حتى صار التيممُ مسحَ الوجه واليدين بالتراب»[3]، يقول الراغب: «والأم:

---

(١) يُنظر: الجيم، أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة – مصر، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م، ج١، ص٧٥.

(٢) تهذيب اللغة، الأزهري، ج١٥، ص٤٥٥-٤٥٦.

(٣) إصلاح المنطق، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط٤، القاهرة – مصر، ١٩٤٩م، ص٣١٥، ويُنظر كذلك: ص٦١ من الكتاب نفسه.

القصد المستقيم، وهو التوجه نحو مقصود، وعلى ذلك: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ (المائدة: ٢)» [١].

ويجمع ابن الأثير هذين الرأيين فيقول عند بيان: «اتقوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ»[٢]: «أي: تَجْمَع كل خبيث، وإذا قيل: أمُّ الخير فهي التي تجمع كل خير، وإذا قيل: أمُّ الشر فهي التي تجمع كل شر .. **كَانُوا يَتَأَمَّمُونَ شِرَارَ ثِمَارِهِمْ فِي الصَّدَقَةِ**»[٣] أي: يتعمدون ويقصدون»[٤].

وبهذا نتبين أن كلمة اللغويين دارت حول أصلين اثنين هما: الأصل والمقصد، وبعبارة أخرى: المرجع والغاية أو المبدأ والنهاية، والناظر لأول وهلة يلمس تعارضَ الجمع بين هذين الأصلين، لكن عند التدقيق والنظر يراهما يتراءيان بخيط متين، ويتواصلان بعقد غليظ، يجمعهما غذاءُ النعمة والدين، بل إن أردت الحق فالأصل هو المقصد، وليس بمقصودٍ إلا ما كان أصلاً.

---

(١) **مفردات ألفاظ القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق – سوريا، ج١، ص٤٤.

(٢) الحديث موقوف على عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو بلفظ: «اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ.....»، يُنظر: **سنن النسائي**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب – سوريا، ط٢، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، كتاب الأشربة، باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر من ترك الصلوات، ومن قتل النفس التي حرم الله، ومن وقوع على المحارم، رقم الحديث: (٥٦٦٦)، ج٨، ص٣١٥.

(٣) **سنن البيهقي الكبرى**، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، كتاب الزكاة، باب ما يحرم على صاحب المال من أن يعطي الصدقة من شر ماله، رقم الحديث: (٧٣١٦)، ج٤، ص١٣٦.

(٤) **النهاية في غريب الحديث والأثر**، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ود. محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ج١، ص١٦٥.

المعاني الفرعية للفظة الأمة:

وللأمة دلالات فرعية عدة أجمل معظمها المجتهد اللغوي ابن فارس في مقاييسه مؤصلاً للفظة (أم)، وما تقود إليه من أصول المعاني ومنابع الدلالات، فقال: «وأما الهمزة والميم فأصل واحد، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين، وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة، وهي القامة، والحين، والقصد»[1]، وحصرها غيره في ثمان دلالات[2]، والذي يراه الباحث أن المعاني الفرعية مدارُها على أربعة أبواب، وهي كما يأتي:

أولاً: الدين: يقول صاحب العين: «والأمة كل قوم في دينهم من أمتهم، وكذلك تفسير الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٣)، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (الأنبياء:٩٢) أي: دين واحد، وكل من كان على دين واحد مخالفاً لسائر الأديان فهو أمة على حدة، وكان إبراهيم عليه السلام أمة.. وكل قوم نسبوا إلى نبي وأضيفوا إليه فهم أمة»[3]، ويقول الجوهري: «والأمة: الطريقة، يقال: فلان لا أمة له، أي: لا دين له، ولا نحلة له»[4]، والملاحظ أن المعنى البارز في هذه اللفظة

---

(١) **معجم مقاييس اللغة**، ابن فارس، ج١، ص٢١.

(٢) وهو ما ذهب إليه أبو بكر الأنباري في الزاهر، حيث عدَّ للفظ الأمة ثمان دلالات وهي: الجماعة، أتباع الأنبياء، الدين، الرجل الصالح، الزمان، القامة، الأم، النعمة، يُنظر: **الزاهر في معاني كلمات الناس**، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، ج١، ص١٣٦؛ **الأمالي في لغة العرب**، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، ج٢، ص٣٠٥.

(٣) **العين**، الفراهيدي، ج٨، ص٤٢٦.

(٤) **تاج اللغة وصحاح العربية**، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٤، ١٩٩٠م، ج٦، ص ١٤٢–١٤٣.

حينما يُراد منها الدين هو الأصل المتَّبع المقتدى به، والمقصود لذاته، فالمشركون يتبعون آباءهم ويقتدون بهم؛ لأنهم أصلهم الفكري، ومرجعهم الروحي.

ثانياً: الإمام المُطاع: وقد تعددت الألفاظ الدالة على هذا المعنى؛ كالقدوة والطاعة والوجه والقامة والبدن والمرجع، والمقصود: الرجل العالم صاحب الرأي والحكمة، الذي يوجه أتباعه نحو الخير، فقول الكسائي: «أمة الرجل: بدنه ووجهه»[1]، المراد منها أن الرجل مقصود لعلمه وحكمته، فأُطلق البدن والوجه؛ لأن الناس تقصد بدنه ووجهه، وتريد حكمته وعلمه، ومما يزيدنا بياناً قولُ ابن الأعرابي: «الأمة: الطاعة، والرجل العالم»[2]، أي: الذي يوجه الآخرين بعلمه فيأتمون برأيه؛ ولذلك كان يقال: «إِنَّهُ لَحَسَنُ أُمَّةِ الْوَجْهِ، يَغْزُونَ -يقصدون- السُّنَّةَ - سنة الرجل: وجهه -، وَلَا أُمَّةَ لِبَنِي فُلَانٍ، أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ وَجْهٌ يَقْصِدُونَ إِلَيْهِ لَكِنَّهُمْ يَخْبِطُونَ خَبْطَ عَشْوَاءَ»[3]، فهذا دليل واضح المعالم أن المراد بهذه النصوص الإمام المطاع لحكمته وعلمه، لا لقوته وسلطته، ومنه: «أممت القوم في الصلاة إمامة، وائتم به: اقتدى به، وأمت المرأة: صارت أماً»[4]، وكله يدل على اقتداءٍ لعلمٍ وحكمة وتربية.

وكذلك جاء الإمام في معنى مادي نادر وهو قولهم: «الإمام: خشبة البناء التي يُسوَّى عليها البناء .. والإمام: الصقع من الأرض والطريق، قال تعالى:

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج١، ص٢٨.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج١، ص٢٨.

(٣) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج١، ص٢٨.

(٤) تاج اللغة، الجوهري، ج٦، ص ١٤٢-١٤٣.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (الحجر:٧٩) والإمام: الذي يُقتدى به»[1]، فالإمام في البناء هو الذي يرجع إليه البناء ويعتمد عليه ويرتكز، وكذلك الصقع من الأرض هو الناحية والمحلة التي يرجع إليها الناس في أسفارهم.

ثالثاً: الجيل: سواء أكان من الناس أم من غيرهم، «وكل جيل من الناس هم أمة على حدة، وكل جنس من السباع أمة كما جاء في الحديث: «**لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا كُلِّهَا، فَاقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ**»[2]»[3]، وهذا المعنى يعود إلى الأصل والمقصد، فالجيل من الناس يجمعهم أصل واحد، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعام:٣٨)، فخلق الله عز وجل الكلاب وأرادها أمة، ولولا هذا المقصد لكان القتل لها كلِّها، فهي أمة؛ لأنها مجتمعة على أصل واحد، وإذهابُ هذا الأصل كله إذهابٌ لمقصد الخالق سبحانه وتعالى، وعلى هذا يُفهم معنى الأمة في الآية.

رابعاً: النعمة: «والإمة: النعمة»[4]، و«غضارة العيش»[5]، وهذا المعنى عائد إلى القصد، فالناس يقصدون بأعمالهم ومكاسبهم وتجاراتهم النعمة وسعة العيش.

---

(١) **تاج اللغة**، الجوهري، ج٦، ص ١٤٢-١٤٣.

(٢) **سنن الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث بيروت – لبنان، كتاب: الأحكام والفوائد، باب: قتل الكلاب، رقم الحديث: (١٤٨٦)، ج٤، ص٧٨.

(٣) **العين**، الفراهيدي، ج٨، ص٤٢٨.

(٤) **المحيط في اللغة**، الصاحب ابن عباد، ج١٠، ص٤٦٠-٤٦١.

(٥) **تاج العروس من جواهر القاموس**، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج٣١، ص٢٢٨.

والمدقق يصل إلى أن هذه المعاني الفرعية تعود في جوهرها إلى الأصلين اللذين نطق بهما صاحب العين وأبو عمرو الشيباني وهما: الأصل والقصد، فالإمام المطاع هو الأصل الذي يُرجع إليه عند النوائب، وهو المرجع في حل المعضلات، وهو كذلك المقصود لعلمه وحكمته، وكذلك يُقال في الجيل والنعمة والإمام المطاع، فهي تدل على فرع يتبع أصلاً، وبذلك تلتقي هذه الألفاظ في مصب المعنى الأصلي.

ومن مجموع ما سبق نستطيع تسجيل الاستنباطات اللغوية الآتية:

١- كثرةُ المعاني والدلالات اللغوية؛ كالأصل والمرجع والدين والقامة والهيئة والمقصد والقدوة، دليلٌ على مرونة هذا اللفظ، وقدرته على احتواء كثير المعاني بقليل المباني، وهي خصيصةٌ لغوية وإلماحةٌ فكرية.

٢- تلخصت كلمة اللغويين في رأيين اثنين؛ فذهب صاحب العين وتبعه جمهور اللغويين إلى أن الأصلَ والمرجع أصلُ الدلالة ومرجعُها، وذهب أبو عمرو إلى أن المقصدَ مقصودُ الدلالات جميعِها.

٣- تدور المعاني الفرعية في مجملها حول الأصل والمقصد، فلفظ الأمة يمثل البداية والأصل، وهو كذلك يمثل الغاية والمنتهى.

٤- للفظ الأمة تضاعيف إيجابية؛ كالقدوة والقامة والنعمة، وهي بمجموعها تدل على تطور متكامل في البنية اللغوية للكلمة، ينعكس حضارياً بمعناه الجمعي.

٥- الغالب المتداول لدلالة الأمة في اللسان العربي الدلالة المعنوية الفكرية، في حين نجد أن الدلالة المادية قَلَّتْ، بل قل: تلاشت.

٦- قول الأخفش: «أمة: في اللفظ واحد، وفي المعنى جمع»[1]، يدل على فلسفة لغوية في جعل الوحدة اللفظية دلالة جمعية، فالأمة تجمعها وحدة العقيدة، فهي عبارة عن جسد واحد، بخلايا كثيرة.

٧- الأمة هي الأصالة والمرجعية ابتداءً، وهي القيادة والإمامة غذاءً، وهي الغاية والقصد انتهاءً.

فهذه المعاني المستنبطة من كلمات اللغويين نستطيع أن نستخلص منها خلاصة لغوية تُعيننا على إعطاء تصور واضح حول معنى الأمة في اللغة فنقول: **الأصل الجامع الضام لفروعه، القائد إلى التطور والاتساع، والمقصود في جملته لذاته**، هذا ما يطمئن إليه القلب في ملخص الدلالة اللغوية، وهو ما تستودعه النفس وتهش له، وهو ما يقنع به العقل ويقر عليه، وهو ما تلتف حوله تلك النصوص اللغوية في هذا الشأن، وهو ما سيمهد الطريق أمامنا في البناء الفكري والحضاري لهذا المصطلح.

الأمة في الاستعمال القرآني:

وردت لفظة أمة بالإفراد والجمع بمدلولاتها المختلفة أكثر من خمسين مرة في كتاب الله تعالى، والجدير بالملاحظة أنها لم تأتِ مفردة ومعرفة بالألف واللام ولو لمرة واحدة، فلا نقرأ في كتاب الله تعالى: (الأمة)، وإنما الذي ورد بالتنكير (أمة)، وقد وصفت بمجموعة من الصفات منها: مسلمة، وسط، قائمة، داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، واحدة، أخرجت للناس – بمعنى داعية –،

---

(١) معاني القرآن، أبو الحسن سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط، تحقيق: د. فائز فارس، الكويت، ط٢، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ج١، ص٢١٠.

وقد استوقفني هذا الأمر كثيراً، فلماذا لم ترد هذه اللفظة (الأمة) في القرآن الكريم؟! وهل الأمر مقصود لذاته؟ ونحن إذ لا نملك دليلاً قطعياً نستطيع به بيان هذا الأمر من عدمه، لكننا نملك توجيهاً فكرياً في هذا المقام، وهو أن نقول:

إن الأمة المحمدية أمة من الأمة الوسط، وليست الأمة الوسط، فالأمة الوسط هي الأمة التي يبدأ تاريخها من لدن آدم عليه السلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومنها هذه الأمة[1]، فإذا ما استقرت في ثنايا فكرنا هذه القناعة، استطعنا أن ندرك أننا جزء من البناء ولسنا البناء[2]، وأننا جزء من الأمة الوسط، وهو ما سيعيننا على بناء ثقافة التكامل، وفهم المرجعية النبوية بأبعادها الإيمانية التي ما فتر القرآن يقصها علينا في جميعه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف:١١١)، وهذه الآية من آخر الآيات نزولاً في العهد المكي، أي أنها نزلت قبل بناء المجتمع المدني، فهي تمهيد لبناء الأمة بأبعادها التاريخية الحضارية، وفقاً لما يريده القرآن من الاعتبار والاهتداء بقصص الأمة الوسط المتمثلة بدعوة الأنبياء والمرسلين.

---

(١) ولذلك خاطب المولى سبحانه الرسل مضيفاً إليهم الأمة، مؤكداً على مفهوم الوحدة: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥١-٥٢)، فهي الأمة الإسلامية بامتدادها الزماني، وليست الأمم الإسلامية.

(٢) وهو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ: وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟! قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»، يُنظر: الجامع الصحيح المختصر، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، حديث رقم: (٣٣٤٢)، ج٣، ص١٣٠٠.

فتحمل دلالة «أمة وسط» أبعاداً تاريخية، فهي أمة وسط بين أمم وصفت كذلك بالوسطية تقدمت الأمة المحمدية، وعليه فقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، أي: جعلنا فيكم قابلية أن تكونوا أمةً وسطاً كما كان الأمر لأمم تقدمتكم، وعليه نستطيع فهم معنى التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل ذلك الجعل للأمم السابقة في الهداية للوسطية كان لكم[1]، وهذا لا يمنع أن نطلق مصطلح «الأمة الوسط» على هذه الأمة بشرطين اثنين:

الأول: أن نستحضر أننا جزء من الأمة الوسط التي تأتي على الزمان كله، وهو ما يعطينا الثقة الحضارية الاستخلافية الشاملة للزمان والمكان، فنحن الورثةَ الشرعيين، ونحن أصحابَ التركة، والآخر إما أن يكون من أولي القربى أو اليتامى أو المساكين، وحقهم أن نرزقهم منها برحمتنا وعدلنا وإحساننا.

الثاني: أننا الأمة الوسط في هذا الزمن إن قمنا بالشروط الشرعية والحضارية المطلوبة لتحقيق هذا الوصف في الواقع، والتحقق منه على الدوام بوساطة آلة الاجتهاد الحضاري، والمراجعة الفكرية التي هي أُسُّ التجديد والإصلاح للمحافظة على نقاء الوحي وصفائه تطبيقاً وفهماً.

---

(١) يقول ابن عطية: «الكاف متعلقة بالمعنى الذي في قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة:١٤٢)، أي: كما هديناكم إلى قبلة إبراهيم وشريعته كذلك جعلناكم أمة وسطاً»، ينظر: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد عبد الحق ابن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ط١، ج١، ص٢٠٥، ومن جعل التشبيه بأمر القبلة فحسب لسياق الآيات، فهو مصيب لكنه مقتصر على السياق الخاص للآية، وأمر القبلة كالمثال على الهداية الشاملة، والسياق الخاص والعام يبرهن على تشبيه جعل هذه الأمة وسطاً كالأمم السابقة؛ فقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:١٤١) في سباق الآية، وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٥١) في لحاقها، دليل على أن التشبيه هو بما كان للأمم السابقة، فكما أرسل فينا نبيَّه صلى الله عليه وسلم هادياً وشاهداً، فقد أرسل في غيرنا، والأمة المهتدية من هؤلاء جميعاً هي الأمة الوسط.

بقي علينا أن نقف مع الاستعمال القرآني لهذه اللفظة، فإنه لا يتبين لنا المعنى الاصطلاحي على ضوء هذا البعد، وما ينشأ عنه من دلالات، وقد كفانا العالم البغدادي ابن الجوزي رحمه الله تعالى هذا العمل ومشقته، فقال مبيناً وجوه لفظة «الأمة» في القرآن بعد استقرائه لكلام أهل التفسير: «ذكر أهل التفسير أن الأمة في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها: الجماعة، ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (١٢٨)، وفيها: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ (١٣٤)[١]، وفي آل عمران: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ (١١٣)، وفي المائدة: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ (٦٦)، وفي الأعراف: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩)[٢].

والثاني: الملة، ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (٢١٣)، وفي يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (١٩)، وفي النحل[٣]: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (٩٣)، وفي الأنبياء[٤]، والمؤمنين: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (٥٢)[٥].

---

(١) وهي في سورة البقرة كذلك آية رقم (١٤١).

(٢) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ (القصص:٢٣)، وقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ (غافر:٥)، وقوله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية:٢٨)

(٣) وهي في المائدة كذلك (٤٨).

(٤) في سورة الأنبياء بغير واو: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (٩٢).

(٥) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٢)، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٣)، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الزخرف:٣٣).

والثالث: الحين، ومنه قوله تعالى في هود: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ (٨)، وفي يوسف: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (٤٥)، وليس في القرآن غيرهما، وأراد بالحين في الآيتين: السنين.

قال ابن قتيبة: كأن الأمة من الناس، القرن ينقرضون في الحين، فأقيمت الأمة مقام الحين[1].

والرابع: الإمام، ومنه قوله تعالى في النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ (١٢٠).

قال ابن قتيبة: يعني: إماماً يُقتدى به، فسمي أمة لأنه سبب الاجتماع، ويجوز أن يكون سمي أمة لأنه اجتمع فيه من خلال الخير ما يكون مثله في الأمة[2].

والخامس: الصنف، ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (٣٨)، أي: أصناف، فكل صنف من الطير والدواب مثل بني آدم في طلب الغذاء، وتوقي المهالك ونحو ذلك، قاله ابن قتيبة[3]»[4].

وجميع الآيات في كتاب الله تعالى التي ورد فيها ذكر لفظ «أمة» مردُّها إلى هذه الوجوه الخمسة التي ذكرها ابن الجوزي رحمه الله تعالى، وقد رأيته رحمه الله

---

(١) يُنظر: تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م، ج١، ص٢٤٩.

(٢) يُنظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ج١، ص٢٤٩.

(٣) يُنظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ج١، ص٢٤٩.

(٤) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، ص١٤٤، ويُنظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ج١، ص٢٤٨-٢٤٩، والاشتقاق، ابن دريد، ص٢٣٦، ومفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ج١، ص٤٢-٤٤.

تعالى موفقاً في رد الآيات إلى هذه الوجوه الخمسة، على أن أبا هلال العسكري رحمه الله تعالى قد أوصلها إلى عشرة وجوه[1]، وهي في حقيقتها تؤول إلى هذه الخماسية.

الأمة في السنة النبوية:

ما جاء في كتاب الله تعالى هو خير ما يوقف عليه فيما يخص استخلاص المفاهيم الشرعية والمصطلحات الحضارية، ولما كانت السنة منزلتها من القرآن منزلة المبيِّن من المبيَّن، كانت الوقفة مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لبيان معنى الأمة في السنة من التكامل العلمي في بيان ماهية المصطلحات الشرعية، التي تقود إلى تنوير العاملين للفهم والاستنباط، وجُلُّ الأحاديث الواردة في معنى الأمة تدور في غالبها حول معنيين رئيسين وهما:

أولاً: أمة الدعوة: فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[2]، فقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الأمة وأراد بذلك أمة الدعوة التي تُدعى إلى دين الله تعالى؛ بدليل «**يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ**».

---

(١) يُنظر؛ الوجوه والنظائر، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، ج١، ص٤٢-٤٤.

(٢) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة، رقم الحديث: (١٥٣)، ج١، ص١٣٤.

ثانياً: أمة الإجابة: ومعظم الأحاديث التي ورد فيها ذكر الأمة قُصد بها هذا المعنى، من مثل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث معاوية رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَاللَّهُ الْمُعْطِي وَأَنَا الْقَاسِمُ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»[1]، وما أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**»[2]، فهذه الأحاديث تدل على أن المقصود بالأمة أمة الإجابة، التي استجابت لأمر ربها، ومدار الأحاديث في السنة النبوية حول هذا المعنى.

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تَكُونُ فِي أُمَّتِي فِرْقَتَانِ، فَتَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا مَارِقَةٌ، يَلِي قَتْلَهُمْ أَوْلَاهُمْ بِالْحَقِّ**»[3]، والمراد بالأمة هنا كذلك أمة الإجابة، لكنه يبين أنَّه يخرج من هذه الأمة مارقة؛ ترتكب الكبائر والفظائع، وهذا يدل على أن الأمة هي عبارة عن دائرة حضارية، لها أبعادها

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الخمس، باب قول الله تعالى: ﴿فإن لله خمسه وللرسول﴾، رقم الحديث: (٢٩٤٨)، ج٣، ص١١٣٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، رقم الحديث: (٣٥٣٤)، ج٣، ص١٣٦٩.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم.

وامتـداداتها الفكريـة والعقديـة والاجتماعيـة والفقهيـة والسـلوكية، وهـي بهـذه الامتدادات تقبل الزيادة والنقصان، فكما أنَّ غيرها يدخل فيها؛ فكذلك هناك من يخرج منها.

وعليه فإن الأمـة - أمة الإجـابة - يدخـل فيهـا من أمـة الدعـوة، ويخرج منها مارقة، والدخول والخروج متوقفان على المنهج الإسلامي في القبول والرفض، فكما أن هناك موقفاً قابلاً للخارج أن يصبح في الأمة ضمن مجموعة من الضوابط والشروط، فهناك كذلك موقف رافض لمن هو بالداخل إذا أتى ما يخل بشروط الأمة، وهذا المعنى الوارد في السنة يُسهم إسهاماً كبيراً في بيان مرونة هذا المصطلح من جهـة، وانضباطه من جهـة ثانية، وأن النظر في القرآن الكريم لمصطلح الأمة يتكامل من خلال النظر في السنة النبوية.

مفهوم الأمة اصطلاحاً:

المفهـوم السـائد عنـد أئمتنـا في تعريـف الأمـة هـو مـا ذهـب إليـه الراغـب الأصـفهاني رحمه الله تعـالى في مفرداتـه، وقـد تابعـه على هـذا التعريف المناوي وأبو البقاء الكفوي، وهذا يدل على أنهما ارتضياه مفهوماً ودلالةً، يقول الراغب: «كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً، وجمعها: أمم»[1]، وقد تعقبه محمد رشيد رضا فقال: «كان ينبغي أن يزيد: أو صفات وأفعال واحدة»[2].

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ج١، ص٤٢، ويُنظر: التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٠هـ، ص٩٤، والكليات، أبو البقاء الكفوي، ص٢٥٠.

(٢) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج٧، ص٣٢٧.

والملاحـظ على هـذا التعريـف أنـه قـد جـاء على مجموعـة مـن العناصـر الأساسية وهي: العنصر البشري، والعنصر الفكري (العقدي)، والعنصر الزماني، والعنصر المكاني، والملاحـظ أنـه رحمـه الله تعـالى نظـر للأمـر مـن زاويـة الاجتمـاع، وعلى هذا فالأمة عنده مفهوم يُطلق على متعدد، فالأمة قد تكون المجتمعة على ديـن واحـد كالأمـة الإسـلامية، أو تجتمـع في زمـان واحـد أو مكـان واحـد كأمـة الدعوة، وهـذا التعـدد تسـمح بـه اللغة ولا يمنعه الشرع، والـذي يحدد المقصود هـو سياق الكلام.

وأرى أن تعريـف الأمـة هـو: «**الأصـل المقصـود لذاتـه، الضـام للأفـراد والجماعات، والمرجع العقدي والثقافي والفكري، والقاعدة التي تُبنى عليها الحضارة في مسيرتها الاستخلافية**».

فالأمـة هـي الأصـل المقصـود لذاتـه، فهـي عبـارة عـن الأفـراد الـذين تجمعهـم رابطة الدين والعقيدة، وهذه الرابطة الفكرية هي الجامع الحقيقي للأفراد وإن كانوا مفـرقين زمانيـاً ومكانيـاً، ولا تقـوم الحضـارة إلا بنـاءً علـى هـذه الرابطـة، لأن أُسَّ الحضارة وأصلها الأمة، ولا تقوم الأمة إلا بالعقيدة، والناظر في العرب قبل الإسلام وبعده ليلمس أثر الرابطة العقدية التي صنعت منهم أمة متحضرةً، وبدورها كانـت الأمـة هـي الضـامة لأفرادهـا مـن جميـع النـواحي الدينيـة والفكريـة والاجتماعيـة والسياسة والعسكرية.

ولا يتوقف مفهوم الأمة على تقدمها أو تأخرها، بمعنى أن الأمة هي الأمة سواء قامت بوظيفتها الحضارية أم لم تقم، قامت بدور التابع أم المتبوع، فما دامت

تحمل المنظومة القيمية والفكرية فهي أمة قائمة بذاتها، ولا ينخلع عنها هذا الوصف إلا في حال تخليها عن هذه المنظومة كليةً، وأما كونها أمة فاعلة أو غير فاعلة؛ فهذا مرتبط بمدى تفعيلها للأدوات التي تُنسِّق بين قيم الوحي الثابتة، والاجتهادات البشرية المتغيرة، بما تفرضه طبيعة المرحلة التي تمر بها الأمة من مواجهة للتحديات التي تعرض لها، فعندما تكون الأمة ضعيفة التأثير في الأمم الأخرى، وضعيفة التأثير في مجريات الأحداث الكبرى للبشرية فإن هذا يعني أنها تمر في حال الغفلة والنومة، لا أنها ماتت أو اندثرت.

المبحث الثاني
مفهوم التغيير

أخذ مفهوم التغيير اتساعاً أفقياً لدى الحركات الإصلاحية في هذا العصر بحيث أصبح المهيمن على الموقف في جميع المستجدات الفكرية والثقافية والسياسية والتربوية، وذلك نابع من الرفض الذاتي للواقع الذي تعيشه الأمة منذ عقود طويلة، وتابع كذلك لحالة الاستياء الجماهيري لدى عموم الأمة، من المكانة التي تعيشها مقايسةً مع واقع الأمم التي تعتلي سلم الريادة، والتي تقود غيرها نحو المقصود الخاص بها، فهذا الواقع المأزوم ولَّد حالة من الشعور بضرورة التغيير، مما جعل هذا المصطلح الأبرزَ في الشارع الإسلامي، مما حدا بالناس أن يتناولوه دون تدقيق في دلالته وأبعاد هذه الدلالة، ومن أولى الأولويات معالجة المصطلحات الفكرية العصرية على ضوء الأصول والضوابط العلمية، وعلى رأسها مصادر الوحي واللغة، وسأبدأ بالمفهوم اللغوي لأنه السابق للوحي؛ ولأن الوحي إنما نزل بهذا اللسان الفريد، في مفرداته وأساليبه.

التغيير في اللغة:

دلَّت كلمة التغيير في اللغة على حلول شيء مكان آخر، أو ذهاب شيء ومجيء آخر بدله، فهو قريب من معنى التبديل، جاء عند العسكري: «التبديل هو التغيير، يقال: أبدلت الشيء بالشيء إذا بدلت عيناً بعين»[1]، فالتغيير هو التبديل

---

(١) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم – إيران، ١٤١٢هـ، ص١١٣.

إلا أن فيه معنىً غيرَ موجود في التبديل، وهو التباين التام بين البدلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ﴾ (يونس: ٦٤)، لم يقل: لا تغيير لكلمات الله؛ لأنه يلزم عن نفي التبديل نفي التغيير، ولا يلزم العكس، فلما نفى عن كلماته التبديل لزم نفي التغيير، ولو نفى التغيير لم يلزم منه نفي التبديل، ومنه قول الشاعر:

لنضربنَّ بأيدينا رؤوسكم بين فُعَالة حتى تقبلوا الغِيرا[(١)]

فلم يسم الدية بدلاً، وإنما سماها غيراً؛ لأن بينها وبين المقتول تبايناً تاماً؛ «فالغِير: الاسم من قولك: غيَّرت الشيء فتغيَّر»[(٢)]، «وأصله من التغيير؛ لأن القود قد كان وجب فغير بالدية، ومنه قول بعضهم لعمر رضي الله عنه: هلَّا غيرت بالدية، هلا أخذت الدية مكان القود»[(٣)].

وقد رأى ابن فارس أن الغير والياء والراء تدل على أصلين، «يدل أحدهما على صلاح وإصلاح ومنفعة، والآخر على اختلاف شيئين»[(٤)]، وفي ظني أن الأصلين يصبان في بحر واحد وهو التبديل، فالإصلاح انتقال من حال إلى حال، ولا يختلف الشيئان إلا بالتبديل، وقد خص ابن فارس التغيير بالتغيير الإيجابي وهو الانتقال من الفساد إلى الصلاح لا العكس، وهذا ما لا دليل عليه، وقول ابن فارس: «الْغِيرَةُ، وَهِيَ: الْمِيرَةُ بِهَا صَلَاحُ الْعِيَالِ، يُقَالُ: غِرْتُ أَهْلِي غِيرَةً وَغِيَارًا،

---

(١) يُنظر: الاشتقاق، ابن دريد، ص١٩، وشعر هدبة بن الخشرم العذري، جمع: د. يحيى الجبوري، دار القلم، ط٢، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ص٩٩.

(٢) انظر: تاج اللغة، الجوهري، ج٣، ص٣٤٠.

(٣) المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ج٢، ص٧٠.

(٤) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٤، ص٤٠٣.

أَيْ: مِرْتُهُمْ، وَغَارَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - بِالْغَيْثِ يَغِيرُهُمْ وَيَغُورُهُمْ، أَيْ أَصْلَحَ شَأْنَهُمْ وَنَفَعَهُمْ، وَيُقَالُ: مَا يَغِيرُكَ كَذَا، أَيْ مَا يَنْفَعُكَ»[1]، فإنه مأخوذ في الأصل من الإغارة، فالعرب «كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا تمكنهم الإغارة فيها؛ لأن معاشهم كان من الإغارة»[2]، والإغارة فيها انتقالان وتغييران، انتقال من الصلاح إلى الفساد لمن وقعت عليهم الإغارة، وإصلاح حال المغاوير، فليس التغيير إصلاحاً فحسب، بقدر ما هو إفساد أولاً من جهة، وإصلاح بعد ذلك من جهة ثانية، والإصلاح الذي ينبني على فساد لا يستحق وصف الصلاح.

ولننظر في كلمة صاحب العين: «والتنكر: التغيير عن حال تسرك إلى حال تكرهها، والنكير: اسم للإنكار الذي يعنى به التغير»[3]، وجاء في النهاية: «وفي حديث الاستسقاء: «وَمَنْ يَكْفُرِ اللَّهَ يَلْقَ الْغِيَرْ»[4]، أي: تغير الحال وانتقالها عن الصلاح إلى الفساد»[5].

فالتغيير في المفهوم اللغوي يدل على انتقال من حال إلى أخرى، قال محمود الوراق[6]:

---

(١) **معجم مقاييس اللغة**، ابن فارس، ج٤، ص٤٠٤.

(٢) **الأمالي**، أبو علي القالي، ج١، ص٦.

(٣) **العين**، الفراهيدي، ج٥، ص٣٥٥.

(٤) هو عجز بيت صدره: فَمَنْ يَشْكُرِ اللَّهَ يَلْقَ الْمَزِيدَ، وهو جزء من أبيات نسبت لرجل من بني كنانة، رواه الإمام الطبراني في الأحاديث الطوال والدعاء، من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، يُنظر: **الأحاديث الطوال**، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مطبعة الأمة، بغداد - العراق، ط٢، ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م، ص٢٤٣، **والدعاء**، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٣هـ، ص٥٩٨.

(٥) **النهاية**، ابن الأثير، ج٣، ص٧٥٤.

(٦) هو محمود بن الحسن الوراق البغدادي مولى بني زهرة، يكنى أبا حسن، شاعر كثير الشعر جيّده وعامّته في الحكم والمواعظ والزهد، يُنظر: **اللآلي في شرح أمالي القالي**، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت - لبنان، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، ج١، ص٣٢٨.

فاجاكَ مِن وَفدِ المشيبِ نَذيرُ   وَالدَهرُ مِن أَخلاقِهِ التَغييرُ
فَسَوادُ رَأسِكَ فِي البَياضِ كَأَنَّهُ   لَيلٌ تدِبُّ نُجومُهُ وَتَسيرُ [1]

فالانتقال من حال إلى أخرى – بقطع النظر عن صلاحها أو فسادها – هو المفهوم العام للتغيير، مع لحاظ أن التغيير يكون بين شيئين متباينين، يقول ابن الأنباري: «والصبغ معناه في كلام العرب: التغيير، من ذلك قولهم: صبغت الثوب أصبغُه صَبْغاً، معناه: غيَّرته وأزلته عن حالته الأولى إلى حال سواد أو حمرة أو صفرة»[2]، ويقول ابن سيده: «وتغير الشيء عن حاله: تحول، وغيَّره: حوله وبدله؛ كأنه جعله غير ما كان، وفي التنزيل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال:٥٣) قال ثعلب: معناه: حتى يبدلوا ما أمرهم الله به، والغير: اسم من التغيير»[3].

يقول الراغب: «والتغيير يقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورة الشيء دون ذاته، يقال: غيَّرت داري: إذا بنيتها بناءً غير الذي كان. والثاني: لتبديله بغيره، نحو: غيرت غلامي ودابتي: إذا أبدلتهما بغيرهما، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١)»[4]، ويقول الجرجاني مفرقاً بين التغيير والتغير: «التغيير: هو إحداث شيء لم يكن قبله، والتغير: هو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى»[5]، وتفريق الجرجاني رحمه الله تعالى تفريق لفظي، لا ينبني

(١) الأمالي في لغة العرب، أبو علي القالي، ج١، ص١٠٨.
(٢) الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر الأنباري، ج١، ص٢٩٧.
(٣) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠م، ج٦، ص١٢.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ج٢، ص١٦٨.
(٥) التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط١، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٨٧، ويُنظر: دستور العلماء، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، تحقيق وتعريب: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م، ج١، ص٢٢٤.

عليه كبير معنى، فالتغير والتغيير لفظان متقاربان متكاملان، فلا يكون التغير إلا بالتغيير، ويلزم من إحداث شيء لم يكن انتقال الشيء عن الحالة السابقة إلى اللاحقة.

خلاصة المعنى اللغوي للتغيير:

من مجموع ما تقدم في النصوص اللغوية يتبين لنا أن التغيير هو حلول شيء مكان آخر، أو ذهاب شيء ومجيء آخر بدله، فهو انتقال من حال إلى أخرى - بقطع النظر عن صلاحها أو فسادها - وهذا هو المفهوم العام للتغيير، مع ملاحظة أن التغيير لا يكون إلا بين شيئين متباينين، فهو إذن **انتقال من حالة إلى أخرى مغايرة لها في الوصف والحال**، والمعنى اللغوي قريب من المعنى الذي سنستقر عليه في بحثنا حول مسألةٍ من أولى أولويات الفكر المعاصر.

التغيير في الاستعمال القرآني:

قبل أن أبدأ الحديث عن استعمال القرآن لكلمة التغيير، يحسُن بي أن أقف مع مفهومٍ قد انتشر بين أوساط المثقفين، فقد ارتبط مفهوم التغيير بأمرين اثنين؛

الأول: أن التغيير مختصٌ في الجانب الإيجابي، أي أن التغيير يتحول من النقمة إلى النعمة، ومن التردي إلى التقدم، ومن المفسدة إلى المصلحة.

الثاني: أن التغيير يكون جذرياً، فإذا أُطلق لفظ التغيير انقدح في الأذهان ذلكم التغيير الجذري الشامل، الذي يدل على اقتلاع السابق وزرع اللاحق مكانه.

وتصور هذين الأمرين يحتاج إلى تغيير من خلال فهم الاستعمال القرآني لهذه الكلمة، فربط التغيير بالمعنى الإيجابي دون السلبي لا دليل عليه، فلم يرد في

كتاب الله تعالى مفهوم التغيير سواء أكان بالفعل الاشتقاقي، أم بالمعنى الاسمي الذي يدل على المغايرة بين الأشياء، دالاً على الانتقال من النقمة إلى النعمة، أو من الضراء إلى السراء، أو من المفسدة إلى المصلحة، بل عند التدقيق نجد ما يسترعي انتباه القارئ:

أولاً: ورد التغيير بمعنى الدلالة على الانتقال من المعنى الإيجابي إلى المعنى السلبي، ومن النعمة إلى النقمة، ومن الأمن إلى إنزال العقوبة، وذلك في الآيات المتحدثة عن عالم الشهادة، الذي هو موطن التكليف والعمل، ولننظر فيما يأتي:

١- قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ[1] ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ (البقرة:٥٩).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء:٨١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١١٩).

٤- قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٢).

---

(١) والإتيان بـ ﴿غَيْرَ﴾ يدل على التباين التام بين البدلين؛ ولذلك كان الجزاء رجزاً من السماء.

٥- قــوله تعــالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال:٥٢-٥٣).

٦- قوله تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (الرعد:١١).

ثانياً: ورد التغيير بمعنى الدلالة على طلب الانتقال من المعنى السلبي إلى المعنى الإيجابي، ومن دفع النقمة إلى جلب النعمة، ومن إنزال العقوبة إلى طلب الأمن، وذلك في الآيات المتحدثة عن عالم الغيب، الذي هو موطن الحساب والجزاء، ولننظر فيما يأتي:

١- قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ (الأعراف:٥٣).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر:٣٧).

فخلاصة مفهوم التغيير في كتاب الله تعالى:

يدل على الانتقال الكلي من المحمود إلى المذموم، ومن الأمن إلى العقوبة، وهذا التغيير هو التغيير الجذري الذي هو من باب العقوبة، أما التغيير النسبي (الإصلاح) وهو المطلوب في عصرنا، فلم يرد بألفاظه بقدر ما جاء بمعانيه كقوله تعالى: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود:٨٨)، وهو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**»[١]، فالمقصود هو الإصلاح والتتميم لا الإلغاء والإقصاء، هذا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وهو ما يقتضيه النظر الصحيح، بحكم التجربة ومعرفة النفس البشرية.

التغيير في السنة:

الأحاديث في السنة التي تدور حول مفهوم التغيير بمعنى الإصلاح قليلة في هذا الباب، ومن أوضح الأحاديث الدالة على مفهوم التغيير قوله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»[٢]، فالتغيير المراد في الحديث هو التغيير النسبي لا الجذري، فالحديث نصٌّ في ذلك، كيف لا؟! والحديث يرسم معالم التغيير في المجتمع المسلم الذي طرأ عليه منكر من المنكرات؛

---

(١) الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، كتاب حسن الخلق، باب حسن الخلق، رقم: (٢٧٣)، ص١٠٤.

(٢) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم الحديث: (٧٨)، ج١، ص٦٩.

ولا يُعقل أن يطالب نبي الرحمة صلوات ربي وسلامه عليه بالتغيير الجذري في المجتمع المسلم، وإنما يطالب بالإصلاح المتدرج ضمن قاعدة الحكمة، وتركُ المصلحة المفضية إلى مفسدة أعظمُ واجبٍ في هذا الباب؛ ولذلك فنحن بحاجة إلى إعادة النظر في فكرة التغيير وأبعادها الحضارية من خلال تدقيق النظر في نصوص الوحي كتاباً وسنة.

وقد وردت بعض الأحاديث في التغيير وهي لا تدخل في الباب الذي نتكلم فيه، فقد روى مالك في الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ غَيَّرَ دِينَهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ**»[1]، فالتغيير هنا مرتبط بمفهوم التغيير من الإيمان إلى الكفر، كما جاء بيان ذلك في الاستعمال القرآني.

فالتغيير في السنة مرادٌ به التغيير النسبي أي: الإصلاح، لا التغيير الجذري، بل إن من يستدل بهذا الحديث على التغيير الجذري فاستدلاله نابع إما من جهل بدلالة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتنزيله على غير واقعه وموطنه، وترحيله عن داره، وإما نابع من سوء نية وطوية في سبيل إفشاء الفساد بين المسلمين، وكلا الأمرين مؤداهما وسبيلهما واحد.

وكم جلب لنا ذلكم التصور الخاطئ لمفهوم التغيير من تراكمات فكرية كان لها نصيب في ضعف الحركة، وقلة المبادرة الفعالة، وضعف الرؤية في التعاطي مع المستجدات، التي لو أحكمنا التعامل معها لكان هناك اختلاف عريض في النتائج والمعطيات، والتراكميةُ التي يعيشها الفكر الإسلامي في هذه الآونة تحتاج إلى نحت

(١) الموطأ، مالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، كتاب الأقضية، باب القضاء فيمن ارتد عن الإسلام، رقم الحديث: (٢٧٢٦)، ج٤، ص١٠٦٥.

وعـوامل تعـرية جـريئة، تُصلـح النـظر، وتُعيـد ترتيـب الأفكار من جديد، وتتجرأ في الإقـدام على إعـادة النـظر في فـقـه الأولـويـات وفـقـه المرحلـة، وذلك مـرتـهن في فهـم أسـاس القـاعدة الـتي ينبـني عليهـا فكـر التغيـير، في أبعـاده الحقيقيـة ومنطلقاته الحضارية.

فالتغيير ليس كلمة تقال في محفل، أو على منبر، أو في مظاهرة، أو في ندوة، بل هو فكر استراتيجي لا يتوقف على التقدم والتطور والإصلاح، بل هو ديمومة فكريـة تستمر باستمرار الحيـاة الفكريـة لعقـل الأمـة، وهـي محتاجـة إليـه في زمـن الانفتـاح والتقـدم والانطلاقـة والريـادة، أكثـر مـن احتياجهـا إليـه في زمـن المترديـة والنطيحة، وما وصلنا إليه من بلوغ مرتبة التأخر عن ركب الحضارة إلا بفعل غياب هـذه الاسـتراتيجية عـن عقـل الأمـة بوصـفها أمـة، تتكامـل فيهـا العناصـر العقدية والفكرية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والثقافية والتربوية.

وعنـدما تخلـت الأمـة الجمعاء عـن دخولها حيـز التفكير والإسهام في صناعة ثقافة التغيير، وتركت ذلك لمن رضي بتقعيد الفكر الكلاسيكي، الذي يقوم على الصناعة اللفظية، ويتناسى المقاصد الرصينة لديمومة الحياة الناهضة، وصل الأمر بنا إلى أن نعيش وهمـاً مـن الانفعـالات العلميـة، الـتي إن دققـت النظـر فيهـا وجـدتها خاوية على عروش الكبر، والاستحياء من الاعتراف بعور الماضي المتراكم، ورفض الإصلاح ترسيخاً للسلطة، وإقصاءً للآخر.

فـالمراد بـالتغيير هـو الانتقـال بالأمـة مـن حالـةٍ إلـى أخـرى أفضـل مـن السابقة ضمن ضوابط الشرع ومقاصده، وعليه يكون مفهوم التغيير شاملاً جميع المجـالات، ولا يتوقـف أمـر التغيـير حينئـذ على الحـالات الفاسـدة بـل يتعـداها إلى

الحالات الصالحة؛ ليُسهم في تطويرها، ومن رضي بالواقع الصالح تراجع في غده المقبل، فالتغيير مراجعة تتصف بالديمومة والاستمرارية ولا يتوقف دوره أبداً، وهو عبارة عن إصلاح في آليات التفكير، وإعادة المنتج الفكري والثقافي بصياغة القيم المعصومة، وبعبارة أخرى: إعادة صناعة الثقافة للانتقال بالأمة من واقعها الفكري، إلى القدرة على التفكير المستقل، ضمن توجيهات الوحي، مع الحكمة التي تقتضيها المرحلة؛ فليس التغيير مقتصراً على مشاكل المجتمع المسلم الداخلية، بقدر ما هو فقه عالمي، له منطلقاته العقدية، وأبعاده في الشهود على الأمم الأخرى، وقصره على البيت المسلم بمفهوم المنكر والمعروف الفقهي فهو تضييق للواسع، وحجر على العلاقة الحضارية التكاملية بين الأمة الوسط والآخر، وستنشأ عنه زحزحة للآية القرآنية: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣)، عن مكانها الريادي، ولا معنى لفقه التغيير دون أن نضع نصب أعيننا مفهوم الشهادة على الناس بالمفهوم الأخلاقي الشامل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وحيثما سيرد التغيير فإنني أريد به المفهوم النسبي (الإصلاح) ضمن فقه المرحلة التي تعيشها الأمة، كما كان ذلك جلياً واضحاً في دعوة الأنبياء والمرسلين، وهذا ما سيأتي بيانه في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

المبحث الثالث
تعريف الأمة الوسط

لا بـد مـن إجـراء مقاربـة بـين مفهـوم الأمـة، ومفهـوم الوسـط، إذ لا تقـوم المفاهيم المركبة من دلالتين منفصلتين لتشكيل دلالة جديدة، إلا بإيجاد مقاربات فكرية، وعلائق علمية، وارتباطات لغوية، وقد سبق تعريف الأمة بأنها: الأصل المقصود لذاته، الضام الحقيقي للأفراد والجماعات، والمرجع العقدي والثقافي والفكري، والقاعدة التي تُبنى عليها الحضارة، في مسيرتها الاستخلافية الاستعمارية، وسنقف مع مفهوم الوسط في اللغة وفي الاستعمال القرآني وفي السنة النبوية.

الوسط في اللغة:

يأتي الوسط بمعنى المتوسط بين طرفين، وهذا المعنى حاصل في أصل اللغة؛ يقول ابن فارس: «الواو والسين والطاء: بناء صحيح يدل على العدل والنصف، وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه، قال الله عز وجل: ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣)، ويقولون: ضربت وسَط رأسه بفتح السين، ووسْط القوم بسكونها، وهو أوسطهم حسباً، إذا كان في واسطة قومه وأرفعهم محلاً»[(١)].

و«وسط الشيء ما بين طرفيه قال:

إِذَا رَحَلْتُ فَاجْعَلُونِي وَسَطًا إِنِّي كَبِيرٌ لَا أُطِيقُ الْعُنَّدَا[(٢)]

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٦، ص١٠٨.

(٢) نسبه أبو عبيدة إلى الحادي، وبينه الماوردي بأنه الحارثي، يُنظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨١هـ، ج٢، ص٢٧٥، وأدب الكاتب، أبو محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط٤، ١٩٦٣م، ص٣٨٠، والنكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود ابن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ج٦، ص١٤١.

أي: اجعلوني وسطاً لكم، ترفقوني وتحفظوني، فإني أخاف إذا كنت وحدي - متقدماً لكم أو متأخراً عنكم - أن تفرط بي دابتي أو ناقتي فتصرعني»[1].

فالوسط في أصل اللغة يدل على التوسط والانتصاف، ثم لما كان هذا الانتصاف مقبولاً عند الناس آخذاً موقعه الحسن، أطلقوه على العدل في الأمور المعنوية، فقالوا: هذا أمر وسط بين الأمور أي عدل، ولم يريدوا بذلك التوسط النسبي أو العددي أو الكمي، وإنما أرادوا العدل والخيرية بين بقية الأمور.

الوسط في الاستعمال القرآني:

وردت كلمة الوسط في القرآن الكريم ومشتقاتها خمس مرات سأذكرها وفق الترتيب المصحفي وهي كالآتي:

١- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

٢- ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ (البقرة:٢٣٨).

٣- ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ (المائدة:٨٩).

٤- ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم:٢٨).

٥- ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ (العاديات:٥).

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ج٨، ص٥٩٥.

فهذه خمس آيات جاءت بلفظ الوسط، فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ المراد به العدل والخيرية، يقول السهيلي: «الوسط من أوصاف المدح والتفضيل ولكن في مقامين؛ في ذكر النسب، وفي ذكر الشهادة. أما النسب؛ فلأن أوسط القبيلة أعرفُها، وأولاها بالصميم وأبعدُها عن الأطراف، والوسيط أجدر أن لا تضاف إليه الدعوة؛ لأن الآباء والأمهات قد أحاطوا به من كل جانب؛ فكان الوسط من أجل هذا مدحاً في النسب بهذا السبب، وأما الشهادة فنحو قوله سبحانه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ (القلم:٢٨)، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، فكان هذا مدحاً في الشهادة؛ لأنها غاية العدالة في الشاهد أن يكون وسطاً كالميزان لا يميل مع أحد، بل يُصمِّم على الحق تصميماً، لا يجذبه هوى، ولا يميل به رغبةٌ ولا رهبةٌ من هاهنا، ولا من هاهنا، فكان وصفه بالوسط غاية في التزكية والتعديل»[(1)].

وحمل «الوسط» في الآية على التوسط بين أمرين غير مراد؛ لأن التوسط له معنى مادي كما هو بيِّن في الشواهد اللغوية، ويعني: النصفة بين شيئين، والوسطية تحمل دلالة معنوية، فالنسبة المادية لا تحتملها المعاني الفكرية؛ ولذلك نجد أن ابن دقيق العيد رحمه الله استبعد هذا المعنى في شرحه لمعنى الصلاة الوسطى فقال: «الوسطى لا يتعين أن تكون من حيث العدد، فيجوز أن تكون من حيث الفضل، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة:١٤٣)

(١) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم السهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر، ط١، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م، ج٢، ص٢٣٧.

أي: عدولاً»[1]، بل إن السهيلي رحمه الله رفض أن يوصف النبي صلى الله عليه وسلم بالوسط؛ لأن ذلك ليس مدحاً ولا ذماً، فلا يوصف إلا في أمرين في النسب والشهادة[2]؛ فالوسط حينئذ يأخذ معنى الأفضلية والخيرية، فتعين أن المراد بالوسط في الآية: العدل والخيرية.

وأما قوله تعالى في وصف الصلاة: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ فقد اختلف المفسرون في تعيين المقصود بهذه الصلاة اختلافاً عريضاً ناف عن عشرين قولاً[3]، ومردُّ هذه الأقوال إما للتوسط بين أمرين، وإما أن تدل على الخيرية، والذي أميل إليه أن المراد بالصلاة الوسطى هاهنا كل صلاة مفروضة؛ وذلك أن كل صلاة مفروضة هي وسطى بين أخواتها، ويترتب على هذا الأمر أن توصف كل صلاة مفروضة بالخيرية والأفضلية، ويكون الأمر بالصلاة المفروضة جاء مرتين، في المرة الأولى باعتبار الجمع، وفي الثانية باعتبار الانفراد الذي وصفت به كل صلاة بأنها وسطى.

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ المراد به التوسط، فإذا حصل التوسط في إطعام المساكين كان ذلك من العدل والأفضلية، ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾، يحتمل اللفظ أن يُراد به المتوسط بين إخوته في السن، أو أنه

---

(١) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية، بدون طبعة وبدون تاريخ، ج١ص١٧٣، ويُنظر: طرح التثريب في شرح التقريب، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، الطبعة المصرية، ج٢، ص١٧٠.

(٢) قال رحمه الله: «فلا يجوز أن يُقال في رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو أوسط الناس، أي: أفضلهم، ولا يُوصف بأنه وسط في العلم ولا في الجود ولا في غير ذلك، إلا في النسب والشهادة»، يُنظر: الروض الأنف، أبو القاسم السهيلي، ج٢، نص٢٣٨.

(٣) يُنظر؛ التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٢، ص٤٤٥.

صاحب القول العدل وهو ما تُشعر به الآية؛ بدليل قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، وأما قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ فالمراد به توسط جموع الأعداء، وهو ناشئ عن الخيرية والعدل بقصد الشهادة على الناس، فمن مجموع ما سبق يتبين لنا أن القرآن ذكر الوسط وأراد به الخيرية والأفضلية والعدل، ولم يُرد المعنى المادي المحسوس سواء أكان في الزمن أم المكان أم الأشياء.

الوسط في السنة:

بين النبي صلى الله عليه وسلم معنى الوسط بأنه العدل والخيار، فقد أخرج البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ.. فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ**»[1].

(١) وهو ما رواه أبو سعيد، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ.. فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ.. فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ»، صحيح البخاري، البخاري، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة، حديث رقم: (٤٢١٧)، ج٤، ص١٦٣٢، وقوله: «الْوَسَطُ: الْعَدْلُ»، مرفوع للنبي صلى الله عليه وسلم وليس مدرجاً، قال ابن حجر: «قوله: «وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ» هو مرفوع من نفس الخبر، وليس بمدرج من قول بعض الرواة كما وهم فيه بعضهم»، ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٧٩هـ، خدمه: محمد فؤاد عبد الباقي، ج٨، ص١٧٢.

فالوسط من المفاهيم المُستقر معناها بسيادة التفسير النبوي؛ فقوله عليه السلام: «**وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ**»، الذي هو عبارة عن الاعتدال والاتزان، يمثل نقطة الالتقاء في إبراز مكامن الخير والجمال، وهو ما ذهب إليه أبو هلال العسكري حين أبرز هذا المعنى في بيان أصل هذه الكلمة فقال: «أي: عدلاً، وهو من واسطة القلادة، وليس من قولهم: هذا شيء وسط، إذا كان بين العالي والمنحط»[1]، ومنه:

هُمْ وَسَطٌ يَرْضَى الْإِلَهُ بِحُكْمِهِمْ   إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعَظَّمِ[2]

فالسنة مبينة للقرآن في معنى الوسط، وهذا التفسير نص في كون معنى الوسط الوارد في القرآن عدلاً وخياراً، وهو ما يقودنا إلى فهم الأمة الوسط، وعليه فنستطيع تعريف الأمة الوسط بأنها الأمة الشاهدة على الناس ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، بميراث الكتاب ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ لنيل رتبة الخيرية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، بشروطها وأسبابها ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، وبعبارة أوجز نستطيع تعريف الأمة الوسط بأنها: **الأمة الشاهدة على الناس، بضابط الشرع، لنيل رتبة الخيرية.**

---

(١) **الوجوه والنظائر**، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة – مصر، ط١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م، ص٣٥-٣٦.

(٢) يُنظر: **البيان والتبيين**، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٦٨م، ص٤٩٧، ونسبه الزمخشري لزهير، يُنظر: **أساس البلاغة**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ص٤٩٨.

وللعلماء مذاهب عدة في بيان الأمة الوسط، فذهب بعضهم إلى أنهم أهل العلم(١)، وقال آخرون: هم أهل الحديث، وحددها بعضهم(٢) بالمذكورين في حديث: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ**»(٣)، ولا يخفى بُعْدُ ما ذهب إليه بعض المعاصرين من جعل الأمة الوسط مقتصرة على المفهوم الضيق للجماعة أو الحزب، وهذه آفة النظر القاصر، وضيق العطن في التعاطي مع المفاهيم الكلية للأمة الإسلامية، وإسقاطها على الهموم الشخصية.

كما لا يخفى أن نستحضر في هذا المقام شيوعَ فكرة الحل الوسط في أوساط بعض المثقفين، حتى ادعى بعضهم أن الحل الوسط يمثل وسطية الإسلام وعدالته، وهذا نابع من الخلط بين المفاهيم وهو منهج يبرز فيه تعثر الفكر، وقصور النظر في الوقوف على دقائق العلم المؤصل، وهذا ما يقودنا إلى القول بأن عدم الاكتراث بالتأصيل العلمي في إضاءة المصطلحات الفكرية، يجعلنا نتخبط في عالم من المصطلحات الفضفاضة، فيسهل على طائفة أن تتكلم دون رقيب، ويصعب في الوقت ذاته عليهم أن يضبطوا مسارهم الفكري؛ لأنه يعني بصورة أكيدة التقليل من الألفاظ الرنانة، والفقاعات المتوهمة، وهذا ما يعني ضمناً ذهاب رونقهم، وغياب عذوبة ألفاظهم؛ وكما هو معلوم فإن أعذب الشعر أكذبه.

---

(١) وهو رأي البخاري، يُنظر: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: (١٠)، ج٦، ص٢٦٦٦.

(٢) يُنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ج١٣، ص٢٩٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، رقم الحديث: (٦٨٨١)، ج٦، ص٢٦٦٧؛ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، رقم الحديث: (١٩٢٠)، ج٣، ص١٥٢٣.

المبحث الرابع
الوظيفة الحضارية للأمة الوسط

الأمة الوسط التي تعي سر وجودها، وعلة إيجادها؛ هي تلك الأمة التي تنهض بما تملك من أدوات ثقافية وحضارية واجتماعية لتنقذ نفسها من طبائع القصور والتقصير، ولتبلغ مرحلة الذروة في إقامة حياة الحق والعدل، ويتمثل ذلك بتجاوز مرحلة الوهن الحضاري، والخور الثقافي، والقصور الأخلاقي، إلى مرحلة: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (الكهف:٢٨)، وهي الأمة التي تنهض بذاتها لتعطف على غيرها بريح طيبة وسخاوة نفس، دون تطلعٍ أو إشراف نفس.

والمفهوم القرآني لا يعطي المسلمين اليوم وصف الوسطية إلا بشروط حددها القرآن نفسه، ويتوقف وصف الأمة بالوسطية بالقوة أو بالفعل على إعمالها شروطَ الخيرية وأسبابَها، فالغالب على الأمة اليوم أنها أمة وسط بالقوة لا بالفعل، فهي تمتلك ميراث الوسطية، لكنها قعدت عن العمل بما يرفع من شأنها بين الأمم على مستوى التأثير، لتعيش مرحلة التأثر، وهذا ما يجعلها غير حاضرة في الميدان الفكري والثقافي؛ لأنها تركت الإتقان لعملها الحقيقي: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، إلى محاولة احتراف زينة الحياة الدنيا، فعاشت تحت عبودية ثقافة (الآخر) بأبعادها المختلفة، وهو ما يجعلها مغيَّبةً عن الدور المطلوب، وحاضرةً دور التهميش والتبعية.

والأمة اليوم تحتاج إلى استرداد عافيتها الفكرية والثقافية والتربوية في قدرتها على الاستنهاض الذاتي، فهي الأمة الوسط؛ لأنها الأمة الوحيدة التي تحمل أصل الكتاب في امتداده الحضاري الاستخلافي للبشرية، بقوة التكليف الإلهي، لكنها لما نكصت وتخاذلت عن تطبيقها الذاتي، وفقدت قدرتها في الشهادة على الناس فضلاً أن تشهد على نفسها، أمست تحمل اسم الأمة الوسط ومضمون الأمة الوسط لكن دون أن تعيشه، وركنت فاعلية الأمة الوسط إلى حين، وهي بذلك تكون قد اختارت مرحلة الإغفاءة والفترة التي تصيب الأمم بين مرحلتي الفر والكر، ونحن بطبيعة الحال لا نتقن التعجُّلَ بالكر بعد الفر، ولا نحاول الإسراع للاستيقاظ من المصيبة بعد وقوعها، وإنما نردد في هذا الحال: ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ (الطلاق: ١)[1]. لكن الذي يميز هذه الأمة أن إغفاءتها وإن طالت، وفترتها وإن بردت، فهي تعوِّض ذلك بسرعة الاستجابة لنداء النهضة عند سماع صوت الحق في نفسها، وهذا طبع الأمة منذ فجر تاريخها قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، ويُعد هذا الصنيع من التزام الطبع العربي المسيطر على طباع الأمة، في عدم توازنها بين النهضة والنكسة، فنهضتنا نهر جارف، ونار متأججة، وبركان متفجر، وانتكاستنا سبات يتلوه سبات، فلا وسطية ولا توازن، وهو ما يتطلب منا إعادة النظر في برامجنا التربوية لمعالجة هذه المعضلة التي تخللت فكرنا، حتى باتت جزءاً من كينونتنا الثقافية، فالقيم القرآنية قيم وسطية،

---

(١) والاستدلال بالآية في هذا الموطن يأخذ طابع العمومية في الوقوف على دقائق نصوص الوحي وتنزيل النصوص على غير مقاصدها ومرادها، وهو يكشف بشكل أو بآخر عقلية التداخل الفكري، والتشابك العلمي، الذي يؤدي إلى ضعف القوة العلمية، وقلة الحيلة الفكرية، فيصبح حالنا حال المطلَّقة تنتظر رحمةَ المطلِّقِ كي يعيدها إلى عصمته، وما أشبه حال الأمة اليوم بقعودها عن العمل انتظاراً لرجعة المهدي، بقعود المطلقة تنتظر رجعة الزوج.

وسلوكيات عموم الأمة يغلب عليها التطرف، فإما الثورة العارمة، وإما نومة أصحاب الكهف – على أن القرآن ذكر نومتهم للتعجب لا للاقتداء! –.

فالأمة الوسط موجودة دون حضور حضاري، كأنما أُغشي عليها قطعاً من الليل مظلماً، وهي تحتاج إلى نقلة نوعية تخرجها من حالة السبات وتُنسيها العجز والكسل، وتذكرها القوة الفكرية والحصانة الإيمانية؛ لتُفعِّل قيم الوحي الثابتة بأدوات الفهم المرنة؛ في محاولة للخروج من مأزق العقدة، ومن مشكلة الارتباك والتردد الذي يحول دون الانطلاق في المسيرة الحضارية، التي تعيد الحقوق لأصحابها، الذين جهلوا حقيقة الدين من الداخل والخارج، فحق الكافر أن يُبلَّغ، وحق الفاسق أن يُذكَّر، وحق الأمة أن تُقاد إلى الطاعة الحضارية في شهودها على الناس؛ لتبلغ رتبة الخيرية بشروط الوحي، وضوابط العلم، وأصول المعرفة الاجتماعية، ولا يتأتى بلوغ هذه الحقوق إلا بالوقوف على معالم منهج التغيير، وبمحاولة جادة في ترسيخ مفاهيم الواجبات والحقوق، الواجبات التي أُنيطت بالأمة باهتدائها، والحقوق التي اكتسبتها الأمم الأخرى بضلالها، فواجب الأمة المهتدية تبليغ الأمم الضالة، وهي الوظيفة الحضارية التي أرادها الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة، بإخراجها للناس، من حالة الركود والعجز والكسل، والرضا بزينة الحياة الدنيا وزخرفها، إلى حالة النشاط والفاعلية والدعوة، والسخط على ملهيات الحياة الدنيا، والتطلع إلى الحياة الباقية، بما يكون عوناً على الشهادة الحق يوم القيامة.

وهذا يقودنا إلى القول بأن وصف الأمة بالوسطية هو من باب الأمر والإرشاد، لا من باب الإخبار والإعلام، فالأمة تحمل القابلية لأن تكون وسطية في تفكيرها وسلوكها وطباعها، والوسطية قيم ثابتة، ومعانٍ قرآنية راسخة،

وتطبيقات نبوية محفوظة، وتفعيل لنصوص الوحي في حركة الأمة الروحية والثقافية والحضارية الاستخلافية، وعليه فقد يخلو الزمان من الأمة الوسط، لكنه لا يخلو من قيم الأمة الوسط، ومن أفراد يحملون مواصفات الأمة الوسط، فالشهادة على الناس مستمرة بفاعلية دعاة الحق والخير الذين هم الشهداء على بقية الأمم، الذين يمثلون الأمة الوسط.

والوظيفة الحضارية وظيفة إيمانية أخلاقية شرعية، نابعة من نور: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، فهي مرتبطة بالمفهوم الكلي الشامل للاستخلاف وعمارة الأرض، وأبرز خصائصها ديمومتها في الزمان كله، وهيمنتها على الوظائف الحضارية للأمم الأخرى، واستيعابها للإنتاج الإنساني، وامتصاصها لأحقاد (الآخر) الثقافي، وتجاوزُها الجَسورُ للأزمات التاريخية المتجددة، ومن هنا كانت الوظيفة الحضارية للأمة الوسط متميزة بانطلاقتها العظمى، وبسيطرتها على الموقف الحضاري الجديد، بحكمة الشيوخ المتزنة، وبقوة الشباب الفاعلة، ما جعلها خير أمة أخرجت للناس.

ولأجل هذه المزايا العظيمة، والخصائص الفريدة، خشي الغرب والشرق نهضة هذه الأمة، وفرح وبطر بتثاقلها وتقاعسها، ومع تطاول زمن السبات نسي الغرب - أو يكاد - سرَّ التألق والاستنهاض لهذه الأمة، وغفل بعضَ الشيء عن إبراز الصراع بين قديمهم وجديدنا، وتراثهم ووحينا، وأوهامهم وحقائقنا، وخرابهم وعمارتنا، ونكستهم ونهضتنا، مما يبشر بعودة الأمة الوسط إلى عافيتها وشهادتها؛ لتقوم بالوظيفة الحضارية التي فترت عنها حيناً من الزمن غير قليل، ولتنزع تلك السهام المطعونة المسمومة في خاصرتها، لتعود لها الانتباهة الحضارية، واليقظة الفكرية، والصحوة الروحية، والنهضة العلمية.

المبحث الخامس
أبعاد الشهود الحضاري

الأمة الوسط هي الشاهدة على الناس بالخيرية والهداية والصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣)، ووصف الأمة بالوسط في هذا المقام هو المقصود، ومعناه الخيار والعدل، وذكر الوسط دون ذكر العدل أو الخيار في وصف هذه الأمة لإقامة الدليل على فعلها اللازم، وذلك لوجهين: «أَحَدُهُمَا: أَنَّ وَجْهَ الِاخْتِيَارِ هُوَ التَّمْهِيدُ لِلتَّعْلِيلِ الْآتِي؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَلَى الشَّيْءِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِهِ، وَمَنْ كَانَ مُتَوَسِّطًا بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَإِنَّهُ يَرَى أَحَدَهُمَا مِنْ جَانِبٍ وَثَانِيَهُمَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِي أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ حَالِ الطَّرَفِ الْآخَرِ، وَلَا حَالَ الْوَسَطِ أَيْضًا.. وَثَانِيهِمَا: أَنَّ فِي لَفْظِ الْوَسَطِ إِشْعَارًا بِالسَّبَبِيَّةِ، فَكَأَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى نَفْسِهِ؛ أَيْ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ خِيَارٌ وَعُدُولٌ؛ لِأَنَّهُمْ وَسَطٌ، لَيْسُوا مِنْ أَرْبَابِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ الْمُفْرِطِينَ، وَلَا مِنْ أَرْبَابِ التَّعْطِيلِ الْمُفَرِّطِينَ، فَهُمْ كَذَلِكَ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ»[1].

وذكر شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الأمة: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، هو من قبيل ضبط سلوك شهادة الأمة الوسط على بقية

(١) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج٢، ص٥.

الأمم، فشهادته على الأمة هي معيار شهادة الأمة على بقية الأمم، وهذا من باب الرقابة الإيمانية والأخلاقية على السلوك الحضاري الناشئ عن البعد الإيماني، فالرسول صلى الله عليه وسلم «هو الميزان الذي يضبط الأمة الوسط، ويحكم قيامها على هذا الطريق السوي، حيث كان الرسول الكريم هو المثل الأمثل لأمته، فهو في الأمة الوسط شهادة قائمة عليها، يأخذ بقوله وعمله خطَّ الوسط فيها، فيمسك بالضعاف أن ينزلوا عن المستوى الجامع للأمة الوسط، ويهتف بالمغالين ألا يتفلتوا من خط هذه الأمة وينقطعوا عنه»(١).

و«أصل الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر أو بالبصيرة»(٢)، «فالشين والهاء والدال أصل يدل على حضور وعلم وإعلام»(٣)، فالشهادة أدق وأبلغ من الحضور؛ لأن مقتضى الشهادة العلم بمضمون الشهادة والمشهود عليه، يقول تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج:٧٨).

ونجد فرقاً بيناً واضحاً بين الشهادتين في آيتي سورة البقرة وسورة الحج، ففي سورة البقرة قدَّم سبحانه ذكر شهادة الأمة فقال: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة – جمهورية مصر، ج١، ص١٦٦.

(٢) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨هـ، ج١، ص٤١٤.

(٣) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٣، ص٢٢١.

وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾، وفي سورة الحج قدَّم ذكر شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾، ويظهر الفرق العلمي ليجلي لنا المقصد البياني بأبعاده الهدائية، وهو أن آية سورة البقرة جاءت بعد الحديث عن بني إسرائيل، وفي سياق الحديث عن حادثة القبلة، وهذا متصل بعلاقة الأمة الوسط بالأمم الأخرى، فقد قُدِّمَ ذكرُ شهادة الأمة الوسط على ذكر شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأن المطلوب أن تشهد هذه الأمة على الأمم الأخرى، فهي علاقة الأمة بالخارج، أما آية سورة الحج فإنها جاءت في سياق متعلق بالأمة وشؤونها وواجباتها الداخلية، فكان تقديم ذكر شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم عليها في هذا المقام هو الأنسب، ولا يخفى أن المطلوب في الآيتين أن يكون الرسول القدوة لهذه الأمة في أفعالها وواجباتها ومسؤولياتها الدعوية والهدائية والحضارية[1].

فهذه الأمة هي صاحبة الشهود الحضاري الحقيقي الذي يدخل حيز القبول، وشهودها على بقية الأمم سواء الأمم السابقة –كما سبقت الإشارة في حديث نوح عليه السلام – أم الأمم اللاحقة، هو الشهود الذي يتضمن الدعوة وإقامة

---

(١) رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يظن أن النبي صلى الله عليه وسلم سيبقى في آخر هذه الأمة ليشهد عليها، «قال: كنت أتأول هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣)، فو الله إن كنت لأظن أنه سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، وأنه للذي حملني على أن قلت ما قلت»، فإذا صحت الرواية عنه – وما أظنها تصح –، فإنها تعكس أهمية الشهادة على الأعمال عند جيل الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين. يُنظر: **دلائل النبوة**، أبو الحسن عبيد الله بن محمد ابن أحمد البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ج٧، ص٢١٩.

الحجة والبرهان الإقناعي والعملي، ويلزم عن الشهود الحضاري الشهود الغيبي، أي: الشهود يوم القيامة: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩).

يقول الشنقيطي في بيان الشهادة يوم القيامة: «وأظهر الأقوال في الآية عندي: أن الشهداء هم الرسل من البشر، الذين أرسلوا إلى الأمم؛ لأنه لا يقضي بين الأمة حتى يأتي رسولها، كما صرح تعالى بذلك في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (يونس:٤٧)؛ فصرح جل وعلا بأنه يسأل الرسل عما أجابتهم به أممهم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ (المائدة:١٠٩)، وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف:٦)، وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء:٤١)؛ لأن كونه صلى الله عليه وسلم الشهيد على هؤلاء الذين هم أمته، يدل على أن الشهيد على كل أمة رسولها.

وقد بيّن تعالى أن الشهيد على كل أمة من أنْفُس الأمة، فدل على أنه ليس من الملائكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (النحل:٨٩)، والرسل من أَنْفُسِ الأمم كما قال تعالى في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾

(التوبة:١٢٨)، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (آل عمران:١٦٤)»[١].

فالمقصود الأعظم من الشهادة يوم القيامة، هو الحكم على الأمم بالعدل، وذلك يستلزم إقامة الحجة على المشهود عليه بحضور الشاهد ﴿ ۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[٢] (المائدة:١٠٩)، والفلسفة الإسلامية تمزج بين النظرة الغيبية في دار الجزاء، وبين السلوك العملي في دار التكليف، فالناس مأمورون بالإقبال على الدين الحق والخضوع له، فكانت الشهادة لله سبحانه وتعالى في دار الجزاء من مستلزمات الشهادة على الأمم في الدنيا، وهذا واجب الدعاة العلماء، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[٣]، وهذا الواجب الإيماني في الشهود على الأمم ودعوتها وهدايتها إلى الخير، لهو من أولى الأولويات التي حملتها الأمة بمجموعها.

وسأقف مع ثلاثة أبعاد للشهود الحضاري وهي: البعد الإيماني، والبعد الأخلاقي، والبعد التشريعي؛ إذ الشهود الحضاري على الأمم لا يتحقق إلا بتحقق

---

(١) أضواء البيان، محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ج٦، ص٣٦٨.

(٢) بيان أن نفي العلم عن أنفسهم فيه تفويض العلم لله تعالى، وهو ما يتناسب مع أدب الشاهد.

(٣) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم الحديث: (٣٦٤١)، ج٢، ص٣٤١.

هذه الأبعاد متكاملةً في منظومة تجمع بين الفكر والسلوك؛ لتُقنع الأمم الأخرى بسلوك الأمة الوسط في مسيرتها الشهودية الحضارية، وفي نهضتها الإيمانية الأخلاقية الثقافية.

أولاً: البعد الإيماني:

يمثل البعد الإيماني في الشهود الحضاري العمود الفقري لجسد الأمة، فالإيمان هو الثقل الفكري، والمرسى الذي تثبت به بعد طول عناء ونصب، وقد قامت الدعوة الإسلامية في جميع أطوارها الزمانية، من لدن آدم عليه السلام إلى أن رسا مركب القرآن في الأرض، على هذا البعد، وقد انحصرت خيرية هذه الأمة بالبعد الإيماني وما يترتب عليه من أمر الآخرين بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وقد أمر الله الناس بالإيمان والعبادة الحقة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١).

بل إن الله سبحانه وتعالى جعل من نفسه شاهداً على أفعال أهل الكتاب، وجعل الحوار معهم مبنياً على هذه الشهادة فقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ٩٨-٩٩)، وهكذا كانت دعوة البشرية مبنيةً على الشهادة

الإلهية لهذا الدين الحق، في أنه الدين المؤهل للشهادة على الناس في دعوتهم إلى الإيمان والخير فقال سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ۝١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١٦٥-١٧٠)، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (النساء:١٧٤-١٧٥).

وقد اتسم الشهود الحضاري بالعالمية وعموم الدعوة لجميع أمم الأرض، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٨)، وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة:٣٣)، وهذا ما اختص به الدين الخاتم، فكان الشهود الحضاري شهوداً حقيقياً غير منقوص الميزات أو الخصائص، فهو شهود حضاري عالمي لا شهود حضاري خاص بأمة

من الأمم، وهو ما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم خبراً غيبياً سيتحقق لهذه الأمة في شهودها الإيماني الحضاري العالمي فقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا...**»(١).

ويكمن الشهود الحضاري في حرية اختيار الدين، ولولا هذه الحرية الإيمانية التي يمتاز بها أصحاب الشهود الحضاري لبطل معنى الشهود وبطل داعيه؛ ولذلك فإن حرية الاختيار مراد إلهي يترتب عليها التكليف ومن ثَمَّ الشهادة على الناس ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩)، وهو ما أُمر به عليه الصلاة والسلام في الإبلاغ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:١٠٤)، وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝١٠٨ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (يونس:١٠٨-١٠٩).

والبعد الإيماني للشهود الحضاري مهمازٌ محرِّك لأصحاب الغيرة على الدين في مساحته الروحانية التي يُنمِّيها ويُعمِّقُها ثبات الصلة بالله تعالى، وفق منهج سلوكي روحي واعٍ ومنضبط بمقاصده العامة لا بتغذيته الذاتية فحسب، وإن الذي

(١) صحيح مسلم: الإمام مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم الحديث: (٢٨٨٩)، ج٤، ص٢٢١٥.

أقعد الأمة في فترات تاريخية متفاوتة عن أداء الشهود الحضاري بشكله المطلوب، هو تحويل المنهج الروحاني الناشئ عن البعد الإيماني من مساحته الدعوية العامة إلى المساحة الذاتية الخاصة، ومن شكله السلوكي الفاعل إلى شكل قعوديٍّ ساكن، ومن أثر محرك للأمة إلى أثر مخدر للأمة، وهو ما حوَّل البعد الإيماني عن التصور الحضاري إلى التصور الفلسفي، ومن حركة الأبدان إلى حركة اللسان، ومن سعة العمل إلى حب الكسل، ولن تستطيع الأمة بمجموعها أن تسترد عافيتها الحضارية، إلا إذا وقفت على حقيقة البعد الإيماني بمفهوم التوحيد الخالص، وبتصور الإيمان التام، متجردةً بعد ذلك من أخلاط الثقافة، والتطوّح الفكري، إلى نقاء المصدر ونصاحة الأصل.

ثانياً: البعد الأخلاقي:

يمثل البعد الأخلاقي الشاهد السلوكي في سبيل إقناع الأمم الأخرى بالأمة الوسط، فإن قناعة الأمم بعضها ببعض كقناعة الأفراد، ولن تستجيب أمة من أمم الأرض للأمة الوسط في مسيرتها الشهودية الحضارية إلا إذا تولدت القناعة الحقيقية بأخلاقها النهضوية، وقوتها الحضارية، ومواصفاتها الريادية، فالقناعة هي قناعة سلوك لا قناعة مرأى ومسمع، والقرآن أراد لهذه الأمة أن تكون أمةً وسطاً في تواصلها الحضاري، وربط ذلك بأخلاق العزة والقوة والرحمة، ولم يربطها بأخلاق المداراة والتلطف والسماحة والعفو في مرحلة الدعوة والنهضة، وتمثل ذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين يمثلان الأصل في هذا الباب، وهما ينبئان عن قوة الآمر الناهي وعزته ورحمته بالمأمور بالمعروف والمنهي عن المنكر، ولولا هذه

الرحمة الناشئة عن القوة والعزة لم يكن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجود مثير وبارز وجاذب في مسيرة الأمة الوسط.

ولذلك فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤) محمول على أن تكون الأمة في أرقى مواصفاتها أمةً آمرةً بالمعروف ناهيةً عن المنكر، وهنا يبرز معنى الفلاح الذي دارت كتب اللغة على جعله محوراً لمادة الفوز والبقاء[١]، وهنا يتبين لنا المعنى الاستمراري لوجود الأمة الوسط في مسيرتها الحضارية، ولو نظرنا في هذه الآية من هذه الزاوية لتبين لنا أمر حري بالتدبر والالتفات، وهو أن مدار نجاح الأمة الوسط هو الاجتماع والوحدة والائتلاف، فقبل هذه الآية نقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:١٠٣)، فهي تعيدنا إلى سبب الضلال الذي كانت عليه الأمة قبل هدايتها وائتلافها، ثم تأتي الآية اللاحقة لتعضد هذا المعنى المراد بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٠٥)، فجعل تفرقَ السابقين واختلافَهم بعد مجيء البينات السببَ في الاندثار والزوال، والعذابَ العظيم في الآخرة.

---

(١) يقول ابن فارس: «الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على شق، والآخر على فوز وبقاء»، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٤٥٠.

ثم فسر معنى ﴿أُمَّةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠)، فبدأت الآية آمرةً وانتهت الثانية مُخبرةً، وبين الأمر والإخبار تكون صناعة الأمة على عين الله ورضاه سبحانه، بأن تكون على الصراط المستقيم في اتصافها بالخيرية الشاملة لجميع أبعاد الشهود الحضاري، مع عدم الغفلة عن غفلة أهل الكتاب في عدم إيمانهم والتزامهم بمنهج الله تعالى في الإيمان وعدم الاختلاف؛ ولذلك نجد أن أول أخلاق التمزق، التي تصيب الحضارات البشرية هو الاختلاف والافتراق، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الاختلاف يفضي إلى الاندثار، كما أن الائتلاف والاجتماع على غير مادة العدل يفضي إلى السقوط المادي والفكري والأخلاقي، ولا تقوم الأمم إلا إذا توحدت على أساس الحق والعدل الذي يترجمه السلوك الفعلي للأمة الوسط في أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر.

فالبعد الأخلاقي في الشهود الحضاري يمثل الحالة الاستمرارية للممارسة الإيمانية والروحية، فإن الاستجابة الحضارية لباقي الأمم لا يتأتى إلا بعد قناعتها بمراس الأمة الوسط للأخلاق الحضارية والمجتمعية، ولن يتحقق ذلك إلا بعد الائتلاف على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المؤدية إلى الإصلاح التدريجي فالتغيير الحضاري الشامل.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بالتزام الأخلاق الحضارية فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ (النساء:٥٨)، وقال مخاطباً نبيَّه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ (النساء:١٠٥)، وهو ما أمر به داود عليه السلام قديماً: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ (ص:٢٦)، وجميع الأنبياء والمرسلين: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ (الحديد:٢٥).

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يقوموا بالقسط، وأن يجعلوا ميزان تعاملهم مع الناس التقوى فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ (النساء: ١٣٥)، وجعل ميزان العدل التقوى، وأمر بإبعاد عنصر العداوة عن الحكم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (المائدة:٨).

ثالثاً: البعد التشريعي (القانوني والفقهي):

شهادة الأمة على الناس شهادة تمتد حتى تصل جانب الرعاية القانونية والتشريعية في إقامة العدل والحق، وهذا البعد لا يتحقق إلا بعد إقامة الحضارة الإسلامية بمعناها الشامل؛ لأن الشهود التشريعي للأمة الإسلامية على بقية الأمم متوقف على نفوذها القانوني وهذا لا يكون إلا بعد المراس الاجتماعي والسياسي والعسكري، بسياج الرحمة العالمية المنوطة بميراث الأرض: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥-١٠٧).

ويختلف هذا البعد عن سابقيه في أنه متوقف على النهوض الحضاري، بخلاف البعد الإيماني والأخلاقي فإنهما موجودان ومستمران ومتواصلان بالاقتدار السياسي وبالسلوك الثقافي وبهما معاً، وهذا البعد عمل به الأنبياء في سياستهم قديماً: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:٤٤)، وهو سنة النبي صلى الله عليه وسلم مع جميع الناس، فهو المبعوث شاهداً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (الأحزاب:٤٥-٤٨).

وإن عموم الرسالة المحمدية ليلتئم مع كونه عليه الصلاة والسلام شاهداً على العالمين كافة، والشهادة عامة في جميع أبعادها الإيمانية والأخلاقية والقانونية، وهذه الأبعاد الثلاثة بها تأتلف الحضارات البشرية في قيامها وفي سقوطها، وعليها يتوقف عمل الأمم رقياً وانحطاطاً، وهذه الأبعاد في المنظور الإسلامي لا تتوقف على الشهادة في عالم الشهادة، بل تتعداها إلى الشهادة في عالم الغيب: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩)، ويقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء:٤١-٤٢)، فوداد الكافرين تسوية الأرض بهم يوم القيامة دليل على أن الشهادة في ذلك اليوم قد أخذت مجراها من الحساب الشديد؛ لأن الشهادة ستكون شهادةً لله سبحانه وتعالى على الناس جميعاً: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٧٩)، ويقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (يونس:٢٨-٢٩).

والشهادة في معناها العام شهادة على جميع أديان الأرض، وتأخذ في هذا الباب معنى الظهور على جنس الدين الذي يدين به البشر عموماً، من الأديان الوثنية والمحرفة والوضعية، وهي تأخذ في معنى من معانيها إقامة الحجة والبرهان

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ (الفتح:٢٨).

يقول محمد رشيد رضا في بيان معنى الشهادة في بعدها القانوني التي تأخذ أسلوباً من أساليب الدعوة والهداية بين الأمة والأمم الأخرى: «وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التي يرونكم أقرب بها إلى هداية أنبيائهم منهم؛ فإن أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة في العدل، ولم يكونوا حائلاً دونهما في دار الإسلام، والقتال لما دون هذه الأسباب التي يكون بها وجوبه عينياً أولى بأن ينتهي بإعطاء الجزية، ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم، والدفاع عنهم وحريتهم في دينهم بالشروط التي تعقد بها الجزية، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون كالمسلمين، ويسمون أهل الذمة؛ لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم»(١).

فإذا التأم البعد الإيماني والبعد الأخلاقي في دعوة (الآخر) إلى دين الله تعالى، وتبعه بعد ذلك البعد القانوني في التطبيق الفعلي لأحكام الدين في العلاقة مع (الآخر)، فإن ذلك سيُسهم في أداء دور الشهادة في معناها الحضاري العظيم، وستُبنى العلاقة مع (الآخر) على أسس ثابتة وعلائق أصيلة تبقى مذكورةً محفورةً في جدار التاريخ، كما يشهد لذلك التاريخ النصراني واليهودي في علاقتهما مع

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج١٠، ص٢٥٥.

المسلمين بعد أن كان لهم دور في الرعاية القانونية والتشريعية بإقامة الحق والعدل، وهيمنة سلطان الإسلام فوق كل سلطان، وهذا ما يُسهم في بناء المنظومة الحضارية بشكلها الدعوي، وطابعها الهدائي، والله سبحانه وتعالى أراد لنبيه صلوات ربي وسلامه عليه أن يكون رسولاً هادياً للبشرية بهذا المعنى العام من الرحمة والهداية: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وشاهداً على أمم الأرض جميعها بميراث الكتاب، وباستحقاق أمته أن يكونوا شهداء الله في الأرض باستجابتهم لأمر الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٧-٧٨).

الفصل الثاني
عوامل تشكيل الأمم

لمحة تاريخية:

تتشكل الأمم بوجود عنصرين اثنين يجب توافرهما عند الولادة الأولى، وهما: وجود الفكرة الأم، والتجمع البشري الذي يعتنق هذه الفكرة، وسواء أكانت الفكرة الأم ظاهرة وثنية، أم ديناً غيبياً محرفاً، أم فكرة إلحادية، أم مذهباً اقتصادياً، أم حقيقة دينية غيبية، فإن العبرة في ذلك كله أن تكون قابلة للانسجام في المجتمع الذي ستنخرط فيه، ولها استجابتها الطموحة في إحياء التجمع البشري الذي وجدت فيه؛ ليأخذ شكله الاجتماعي الأول، فالأمم تأخذ شكلها الجمعي بانبثاق فكرة تنقلها من حالة السكون إلى حالة الحركة، ومن حالة البدائية إلى حالة التطور والنماء؛ وقد التفت ابن خلدون رحمه الله تعالى إلى هذا المعنى فقال: «أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة، وأنها أصل لها فتفهمه»[1].

ولذلك «تكسب الجماعة الإنسانية صفة (المجتمع) عندما تشرع في الحركة، أي: عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة، أما الجماعات الساكنة فإن لها حياة اجتماعية دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة»[2].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، ص١٦٦.

(٢) ميلاد مجتمع، مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق - سوريا، ط٣، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص١٦.

فحالة الانبثاق الحضاري يجب أن تُسبق بميلاد فكرة بشرية أو وجود حقيقة دينية غيبية، ولهذه الفكرة أو الحقيقة مجموعة من الخصائص التي تتوافق مع التجمع البشري الذي ولدت أو وجدت فيه، ويتوافق هو معها، والتجمعات البشرية تنحصر إجمالاً في ثلاثة أشكال وهي:

- **التجمع الفطري** المسبوق بالحالة الأمية البدائية.

- **التجمع الأيديولوجي** الذي سُبق بفكرة قادته إلى تشكيل نواة لها مجموعة من الخصائص الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والفنية.

- **التجمع التراكمي** الذي يأتي استجابة لمجموعة من الظروف التاريخية والجغرافية والاقتصادية.

وهذه التجمعات البشرية الثلاثة هي التجمعات القابلة لميلاد مجتمع متحرك باتجاه التطور والنماء بعد حالة التلقيح الأولى بين هذه التجمعات والفكرة التي تحمل خصائص المجتمع المولود، يقول مالك بن نبي: «إن صناعة التاريخ تتم تبعاً لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث: تأثير (عالم الأشخاص)، تأثير (عالم الأفكار)، تأثير (عالم الأشياء).

لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقاً لنماذج إيديولوجية من (عالم الأفكار)، يتم تنفيذها بوسائل من (عالم الأشياء)، من أجل غاية يحددها (عالم الأشخاص).

فالعمل التاريخي بالضرورة من صنع الأشخاص والأفكار والأشياء جميعاً، ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يتم عمل تاريخي إذا لم تتوافر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة لتربط أجزاءها في نطاقها الخاص وبين هذه العوالم، لتشكل كيانها العام، من أجل عمل مشترك.

وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة، فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها- وهي التي تتجسم في صورة (حضارة) - يعد ضرورة أيضاً، وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود (عالم) رابع، هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية أو ما نطلق عليه (شبكة العلاقات الاجتماعية)» [1].

والأمم بمفهومها البسيط هي شبكة العلاقات الاجتماعية الناتجة عن العوالم الثلاثة، ولا يُتصور وجود أمة من الأمم دون وجود منظومة العلاقات الاجتماعية التي تُشرك الجميع في فكرة رئيسة واحدة، وفي عواطف ومشاعر توحدها تجاه هدف واحد.

والناظر في التاريخ الإنساني عموماً، وفي بداية تشكل الحضارات والأمم خصوصاً، يجد أن هناك نوعاً من الخفاء نازل بين حلقات السكون والحركة، وأن هناك لوناً من السرية في رصد ظاهرة النهضة تاريخياً، ويقتصر دور من عُني بدراسة فلسفة التاريخ، أن يدور حول كلمات المؤرخين الناقلين، ليبرهن على نظرية ارتآها بناءً على فهمه للتطور والنماء والنهضة في مسيرة الأمم، ثم يأتي بالشواهد الكثيرة - ويتناسى الشواهد الأكثر - ليبرهن على حسن مسلكه في فهم سر نهضة الأمم، ولا نعجب أن يقول فيلسوف عنده قدر من الموضوعية كفولتير: «أحب أن أعلم الخطوات التي سارها الإنسان في طريقه من الهمجية إلى المدنية» [2]، محاولاً بطبيعته الفضولية المدفوعة بأفكار التنظير والتنبؤ أن يرى الغيب حاضراً، والموتى

(١) ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ص٢٥.

(٢) قصة الحضارة، ويليام جيمس ديورانت، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرون، دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ج١، ص٢.

أحياءً يحدثونه عن غابر أيامهم، وهذا نابع من طبيعة الفكر الإنساني في محاولة اكتشاف الخبيء، والوصول إلى الحقيقة الناصعة حسب رؤى فكرية في غالب الأحيان، تقود الأمم القابلة وتوجهها باتجاه غير مُرضي في النهضة من نكستها.

ولذا فلا أخطر على الفكر النهضوي للأمة الوسط أن تستجيب لجميع ما استخرجه المؤرخون الغربيون أو الشرقيون دون نقد وتمحيص، فاستنباطاتهم التاريخية يغلب عليها في الدرجة الأولى الجانب الفكري، مع ظهوره بالثوب الموضوعي التجردي، وقد ركزت الشواهد القرآنية تمام التركيز على هذا الجانب من الحياة البشرية في موقفها من دعوة الأنبياء والمرسلين، ولم تتركه لعقول البشر في محاولات يائسة في الكشف عن خبيء الماضي المزوَّر لصالح القوي الغالب في بعض الأحيان، ولصالح المثابر على تدوين الفكر التاريخي في أحيان كثيرة.

والعامل في الحقل النهضوي لا تعنيه الكتابة والتحليل لما حدث أو يحدث، وإنما المعني بذلك الكتاب والشعراء والأدباء وأبواق السلطة في كل عصر ودولة، فالتاريخ المسرود الذي دخلته عقول التحليل والفلسفة من كل اتجاه لا يخلو من محاولات للحرف عن الطريق الصحيح في الوقفة الجادة، وهذا ما يقودنا إلى القول بأن الأمة الأمية غير المتأثرة بوجهات النظر المتكاثرة في هذا الباب، هي الأمة التي حملت نهضةً عالميةً هزت الأمم وصدمتها، كما كان لها ذلك قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، والمؤرخ المسلم لا يعنيه كثيراً أن يقف مع لحظات الولادة الأولى للمجتمعات الناهضة، وذلك لمجموعة من الأسباب التي أراها تدور بين الفكر والعلم الموضوعي:

١- ندرة المعلومة التاريخية المتكلمة عن ساعات المخاض وساعة الولادة الأولى للأمم البشرية، ولا يعني هذا إهمال هذا الجانب من التمعن التاريخي إن وُجدت المعلومة التاريخية المتجردة الصادقة.

٢- ضعف النقل العلمي الموضوعي في هذا الجانب بالذات، إما على سبيل المبالغة لمصلحة المنتصر، وبما يغلب على روايته طابع المستحيل البشري، وإما على سبيل اختراع المعدوم بما يشل حركة التفكير الصحيح المنضبط في الوصول إلى الأسباب والنتائج.

٣- وجود الخصوصيات الاجتماعية والحقول المعرفية الخاصة بكل أمة منفردة، وهذا يشكل عائقاً معرفياً في الوصول إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب، بل إن التفسير التاريخي يكون مبتوراً عن ملابساته وعلله وسوابقه ولواحقه، فلا يخلو التفسير من عور النتيجة وضعفها، خصوصاً إذا كانت المزاجية حاضرةً في إعطاء الآراء التي توصف على أنها تاريخية مجردة(١).

٤- نقصان أدوات التفكير المساندة التي تعين المفكر على معرفة العلل الاجتماعية، وذلك بسبب ضياع التراث البشري من عادات الشعوب ومعاناتها وآلامها التي مرت بها.

٥- تركيز المؤرخين على الجوانب السياسية والعسكرية، وأما الجوانب الفكرية والاجتماعية التي يحاول إبرازها بعض المؤرخين فهي تعود إلى الجانب السياسي الذي هو في حقيقته المحرك الرئيس للفكر والعقيدة والثقافة والاقتصاد.

---

(١) أشار مالك بن نبي إلى أن تشخيص مرض الأمة في الوثائق التاريخية المعاصرة ابتعد في كثير من الأحيان عن تشخيص المرض بشكل صحيح، وذلك بسبب مزاجية في الآراء والاتجاهات الفكرية، يقول رحمه الله: «ففي الوثائق نجد أن كل مصلح قد وصف الوضع الراهن تبعاً لرأيه أو مزاجه أو مهنته»، يُنظر: شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق – سورية، ١٩٨٦م، ص٤١.

٦- نظرة المؤرخين تكون للنتائج لا للعلل والأسباب، أي للنهايات المشرقة أو المظلمة لا إلى بداية تلك النهايات، وهذا يقود بدوره إلى طمس الحقيقة الغائبة بأدوات تاريخية، فيقف أصحاب العبرة ليأخذوا من المنتصر منهجه مع التعامي عن مدى صحة هذا المنهج بعد عرضه على المعيار الضابط في حركة القبول والرد.

ثم إنه ليس من غرضي، ولا قصدي أن أهمش الدرس التاريخي الجاد أو التقليل منه، بقدر ما أرى أن المطلوب يكمن في إعطاء الدرس التاريخي حجمه المناسب، الذي يعيننا على دخول غار التأمل والتفكر والتدبر، للاعتبار والاتعاظ، وللهروب من أسباب الإخفاق والارتباك عند معاينة أسباب النهضة الأساسية، التي تمتد بشموليتها جميع مناحي الحياة، وذلك يعتمد - بطبيعة الحال - دراسةَ التاريخ وفق مجموعة من المعطيات العلمية والموضوعية، وهي كالآتي:

أولاً: دراسة تاريخ كل أمة بمقياس خاص بها، فاللجوء إلى مقياس متحد الرؤى في التعاطي مع تاريخ الأمم السابقة يُعد خللاً علمياً؛ وخروجاً عن منطق التخصص في إعطاء كل زاوية قدرها الذي يناسبها في التحليل والتفكيك؛ ليكون الاستنباط والتركيب للعبرة التاريخية سديداً بسلامة المنهج.

ثانياً: النظرة الإجمالية للأحداث في تاريخ الأمم؛ فيجب أن ينظر المحلل إلى الأحداث التاريخية نظرة أفقية شاملة غير متوقفة على حدث خاص بعينه؛ لأن الحدث قد يكون محض افتراء، أو مبالغة، أو مغالطة، فالنظرة التفحصية للأحداث الخاصة يُعد بنظري المتواضع خللاً علمياً غير مقبول عند المنصف الحصيف.

ثالثاً: التركيز في الدرس التاريخي على النقاط التي تفيد المرحلة التي تمر بها الأمةُ المعتَبِرةُ (التي تريد النهوض)، من الأمة المعتَبَرِ منها، وذلك بالإفادة من المشترك بين الأمتين، وترك الخصوصيات التي لا تعنينا في مسألة النهوض جانباً.

فهذه النقاط الثلاث هي في عالي الأولوية عند الدارس المستفيد من تاريخ الأمم للمشروع النهضوي، بعد إضافتها إلى المنهج القرآني الفريد، وذلك باعتبارات متعددة، فدراسة القرآن دراسة نهضوية حضارية يجب أن تكون؛ باعتبارها مشروعاً إيمانياً علمياً فكرياً نهضوياً، تتجدد مسائله ومعالجاته بتجدد الأزمات التي تعيق العمل الدعوي الناهض، في سبيل البناء الجاد لأمة الرسالة، أو إعادة البناء للمنظومة الفكرية والثقافية، لا باعتباره قصصاً مسلياً ومزيلاً للأحزان، ولا باعتباره دائرة معارف تنادي على المعلومات الإسرائيلية المغتصِبة للفكر الإسلامي والروايات الكتابية المقيِّدة للانطلاقة الفكرية بهدف تكثير المعرفة، ولا باعتباره بسطاً للقيم الجانبية التي ما أُريدت لذاتها، بل باعتباره المنهج السديد في الثبات والصبر على القيم والمبادئ التي تحتاج إلى سياسة النفس الطويل بقطع النظر عن النتائج المغرية، التي نريد رؤيتها على أرض الواقع متجاوزين في ذلك جميع الإمكانيات التي نمتلكها.

وباعتبار القرآن صاحب الرواية التاريخية الصادقة صدقاً محضاً، وباعتباره الرائد في بيان المراد التاريخي من غير المراد، فالقرآن يعرض علينا ما نحتاجه لقوت اليوم - وهو قوت كل يوم -، فليس من غاية القرآن أن يوقفنا على قصص السابقين لاعتبارات معرفية أو غير ذلك، فالمراد التاريخي في كتاب الله تعالى موجز مجمل، تفصله وتفسره عقول العاملين المتحركين، فلكل مرحلة من المراحل التي تمر بها الأمة الإسلامية خصوصيتها، والقرآن يعطي الدواء الشافي للعليل إذا أحسن تدبره والوقوف معه هيبة وجلالاً.

والتاريخ فيه الإعانة على تخطي كثير من الأزمات التي تمر بها الأمة اليوم، لكن هذه الإعانة تحتاج إلى تأنٍ في استنباطها واستخراجها من محارها بعد الغوص في بحارها، ويجب أن يكون القرآن هو الضابط لفهم التاريخ في مجموعه، فلن نستطيع أن نفهم التاريخ فهماً حضارياً بالمعيار الخاص لثقافة الأمة وفكرها، إلا إذا أحسنًا فهمه على ضوء دلالات الآيات الآمرة بالسير والنظر فالتفكر والتدبر فالاعتبار والاتعاظ.

فخصوصيتنا في النظرة للتاريخ يجب أن تكون مرتهنة بنور القرآن، وليس هذا من باب الانغلاق، أو التعنت أو التعصب للرأي، بقدر ما يجب أن يكون اعتباراً إيمانياً، وباعتبار أصالة المعرفة وصدقها وموضوعيتها، كيف لا ونحن نبحث في فقه التغيير وإعادة البناء للأمة الوسط، فحريٌّ بنا أن نعيد البناء -كذلك- في منظوماتنا المعرفية والفكرية، وعلى رأسها مادة التاريخ التي تحتاج إلى خدمة في المنهج وفي أداة الفهم، ليتغير واقعنا الذي نعيش، ونتمكن من الحق الذي لن يكون إلا عند أداء الواجب الذي علينا، وأستحضر هنا كلمة مالك بن نبي حيث يقول: «الحق ليس هدية تُعطى، ولا غنيمة تُغتصب، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما متلازمان، والشعب لا ينشئ دستور حقوقه إلا إذا عدَّل وضعه الاجتماعي، المرتبط بسلوكه النفسي، وإنها لشرعة السماء: غير نفسك، تغير التاريخ!» [1].

(1) شروط النهضة، مالك بن نبي، ص٣٢.

المبحث الأول
متطلبات بناء أمة الرسالة

سبقت الإشارة في اللمحة التاريخية إلى أن التفسير التاريخي يحتاج إلى أدوات تخص أمة الرسالة في تعاطيها مع الواقع ضمن الإفادة من التاريخ لتنهض من سباتها، وتشفى من مرضها، دون أن تتأثر بالفكر التاريخي الغربي الناشئ عن نظرته الحضارية لمسيرة الأمم في بدايتها ونهايتها، في صراعها وسلامها، فالتفسير المادي للتاريخ القائم على علمي الاجتماع والنفس، هو المتمركز في غالب النظريات التاريخية المعاصرة، وهو منتَجٌ ثقافي غربي بامتياز، وعلى الأمة التي تحترم خصوصيتها أن تنهض لتعيد قراءة التاريخ من وجهة نظر خاصة بها؛ لتكون صانعة الحضارة لا مستوردة للمنتجات الحضارية، وقراءة الفكر الغربي للتاريخ منتج حضاري، فكان لزاماً أن نقرأ التاريخ ضمن المعطيات الفكرية والثقافية الخاصة، ويجب أن تبني الأمة فكرها على أمرين اثنين وهما:

- متاركة القيم المستوردة، والتخلي عن الواقع المأزوم:

من متطلبات البناء نقل سلوك أمة الرسالة من الطابع الاجتماعي المستورد المسيطر عليها في جميع مناحي الحياة، إلى الطابع الثقافي المستمد من قيم الكتاب والسنة، فالمجتمع الإسلامي يعاني عموماً من مشكلة حقيقية في الانتقال من الواقع الاجتماعي والمتراكم الموروث إلى الواقع المتجدد ضمن توجيهات الوحي والحكمة،

ولذلك نجد أن المشكلة التي نعاني منها هي مشكلة سلوك ناشئ عن ثقافة، فنحن بحاجة إلى التغيير الثقافي في مادته المتحورة والمتحولة عن الأصالة المعرفية في نقائها الثقافي الأول، وهذا لا يكون بتغيير المواد العلمية والمعرفية إذا لم يقترن بالتغيير الثقافي العاطفي لمجموع الأمة، بتمركزها حول فكرة إعادة التشكيل في مستويات التفكير المختلفة، التي من شأنها أن تصنع سلماً في الارتقاء الحضاري ببعديه الثقافي والمدني على مستوى الأمة، ومستوى العلاقة القائمة مع (الآخر).

- العودة إلى القيم المعصومة:

تمتاز أمة الرسالة بأنها ذات جينات وراثية أصلية – إن صح التعبير – لا تتخلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال، فمتطلبات البناء الحالي هي ذاتها متطلبات البناء الأول؛ فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليها أولها، فالأمة بما تُقله من القيم المعصومة، والموروث الفكري الضخم، يجعلها غير آبهةٍ بما تُثيره الأمم الأخرى من زوبعات فكرية، وتشويشات ثقافية، في موضوع النهضة والبناء؛ لأن تلك الإثارات الفكرية نابعة في حقيقة الأمر وأحقيته من طبيعة المزاج الفكري للآخر، بماضيه المتناقض، وحاضره المضطرب، ومستقبله القلق، وعليه فإن النهوض الذاتي واجب فكري، وضرورة ثقافية، يستحيل معها التنازل عن سلامة الانطلاقة في المنهج، ونقاء الفكر في البناء، وعلى وجه الخصوص في مرحلة التأسيس الأولى، ومن يتدبر حيثيات الآيات المكية من هذه الزاوية، يلمس التوجيهات القرآنية في بيان خصوصية بناء الأمة الوسط.

وإذا نظرنا في البناء الحضاري لأمة الرسالة نجده يتطلب وجود مجموعة من الأركان وهي:

١- **القلة المبدعة**، التي يكون لها الأثر العظيم في شق الطريق أمام القوة التنفيذية التي هي عبارة عن مجموع الأمة، وإمدادها بالثقة الفكرية، والطموح الاستخلافي؛ لتحقيق مجموع المقاصد والأهداف التي تتناسب مع حجم المرحلة وطبيعتها.

٢- **القاعدة العقدية والأخلاقية والروحية**، التي ترتكز عليها القلة المبدعة في تواصلها مع النسيج الاجتماعي الداخلي ويتمثل ذلك في الحق والعدل والرحمة، وإيجاد الثقة المتبادلة بين المجموع والقلة المبدعة، التي تُعد بمثابة صمام الأمان لتقدم الأمة واستقرارها الذاتي.

٣- **القاعدة الحضارية**، التي ترتكز عليها القلة المبدعة في تواصلها مع الحضارات القائمة، ويتمثل ذلك بالتغلغل والانخراط المدني أولاً، ثم بمد خيوط بسط النفوذ بالحكمة والموعظة الحسنة، بما يحقق لمجموع الأمة المصالح الاقتصادية والعسكرية والسياسية والاجتماعية والعمرانية.

وجماع ذلك أن تكون القلة المبدعة مبدعة في خدمتها للأمة، وأن تتناسى حظها الذاتي، فإن هي خرجت عن المعنى الحضاري الذي أسست عليه عملها تكون حينئذ قد بدأت مشوار الانتحار، فالاندثار عن الريادة والحضارة.

يقول مالك بن نبي: «فنقطة الصفر من الدورة تسجل الحالة السابقة على الحضارة، كما تسجل بدء ظهور (الظرف الاستثنائي) اللازم لإحداث التركيب العضوي التاريخي بين العناصر الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت، وهو التركيب الذي يتفق مع ميلاد مجتمع معين، كما يتفق بصورة ما مع بداية عمله التاريخي، فالقيم الاجتماعية في هذه النقطة لم تصبح بعد واقعاً قائماً، وإنما هي مجرد

احتمالات، والمجتمع ذاته ليس حينئذ سوى (احتمال) في ضمير الغيب، و(بذرة) من الإمكانيات في غضون التاريخ.

وفي هذه الحالة يحتمل وجوده أن يكون أو ألا يكون، إذ إن (عالم أشخاصه) و(عالم أشيائه) لم يوجدا بعد، ولكن عالم أفكاره يحتوي على الأقل بذرة إمكانياته، كما تحتوي النطفة كل العناصر العضوية والنفسية المسهمة في تركيب الكائن المقبل؛ فليس وجوده حينئذ سوى فكرة متجسدة، أحياناً في رجل مثل: إبراهيم الذي قال فيه القرآن الكريم حقاً: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل: ١٢٠).

فسواء كنا بصدد المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي، أم كنا بصدد المجتمعات التي تحجرت اليوم أو اختفت تماماً من الوجود، نستطيع أن نقرر أن الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية، ومعنى هذا أن (الظرف الاستثنائي) الذي يلد مجتمعاً يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي تحمل مقاديره، كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود، ومعنى هذا أيضاً أن شبكة العلاقات بكل ما تحتويه من خيوط وأطراف - والتي سيتسنى للمجتمع بفضلها أن يؤدي عمله التاريخي- هي ذاتها تعد في حيز القوة، داخل البذرة التي تشتمل جميع أقدارها.

إذن فالعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان.. فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معاً من الوجهة التاريخية على أنهما حدث، ومن الوجهة الكونية على أنهما عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد.

فنحن نرى من الوجهة التاريخية أن الحدثين يتوافقان، ونلاحظ من الوجهة الكونية بناءً على ما أسلفنا من اعتبارات أن الحدثين يرتبطان ارتباط الأثر بالسبب في حركة التطور الاجتماعي، فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني» [1].

وبناءً على هذه النظرة العميقة للارتباط بين العلاقة الاجتماعية والعلاقة الروحية، نزداد ثقةً بأن البناء الاجتماعي - الذي هو في أبرز صوره القاعدة الأولى للأمة، وهو نتيجة حتمية للعلاقة الروحية - يجب أن يلد المجتمع الولادة الطبيعية بعد مرحلة المخاض، بمصاعبها ومشاقها ومتاعبها، دون البحث عن المسهلات الفكرية، أو اللجوء إلى التخدير للهروب من ألم المرحلة، فكلما اشتدت المتاعب وزادت قوة الإرادة، كان ذلك إلى الثبات أقرب، وقويت المناعة، وتشكل لدى مجموع الأمة حصانة حقيقية خالية من الأوهام؛ وتمركز في عقلها الباطني معنى الولاء والبراء الحضاريين، ومعنى المنافسة على الريادة، وحينها فقط ستنجذب إلى الاعتصام بقيم الوحي المعصوم، هروباً من آفة السقوط الذي سيخلع باب الأمة من جذوره حين يراها قد غادرته إلى باب آخر.

(١) ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ص٥١-٥٣.

المبحث الثاني
التغيير بين الأمة والدولة

الجدلية القائمة بين الأمة والدولة جدلية ممتدة جذورها عبر التاريخ الطويل للأمم والمجتمعات البشرية، وهي جدلية أكثر تعقيداً في تاريخ الأمة الإسلامية منها في بقية الأمم، ذلك أن الدولة تستل سيف سلطانها من أغماد فكر الأمة، فالأمة هي التي تأتي بالدولة، وهي التي تصنعها في غالب الظروف والأحوال، إما من خلال عصبية قبلية، وإما من خلال ثورة عارمة، وإما من خلال الرضا بحكم الغلبة والسكوت على استبداده، ثم تتمكن الدولة من الأمة بالوسائل المشروعة وغير المشروعة والشبيهة بالمشروعة، ليصدُقَ عليها قول جبريل عليه السلام في إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن أشراط الساعة: «**إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا**»[1]، فكما أن الأمة تلد سيدها، فكذلك الأمة تصنع قائدها، فالمطلوب من الابن أن يعامل أمه التي ولدته وأنضجته في رحمها، ثم أنقذته في شاهق الأيام من السقوط الحتمي إلى ربوة الأمان والاطمئنان؛ ليكون لها عوناً وناصحاً أميناً، آخذاً بيدها عند احتياجها له، فكذلك العلاقة بين الأمة والدولة، فالأمة هي الأم الحقيقية للدولة، وهي الراعية الصابرة على ظلمها واستبدادها، أو الآخذة على يدها لتعيد الأمور إلى نصابها واستقرارها.

---

(١) هذا لفظ البخاري، بالتذكير لا بالتأنيث، وصيغة التأنيث هي الشائعة على الألسن، وفي ظني أن صيغة التذكير هي الأقرب للواقع الذي يعيشه الناس في التعامل مع الوالدات، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ج١، ص٢٧، رقم الحديث: (٥٠).

ونجد أنه في الغالب الأعم على مدار تاريخ المسلمين السياسي أن الاتجاه الديني تابع للاتجاه السياسي، وهذه التبعية زرعت في ثقافة الأمة قبول تبعية العالم المصلح للحاكم الفاسد، وتغيير هذه القناعات ليس من السهل اليسير، خصوصاً أن الذي زرع هذه الثقافة وأصَّل لها سلوك بعض العلماء مع السلاطين[1]، ومن التناقضات التي تقع في هذا الجانب إعطاء القداسة العلمية والأكاديمية لمنتجات التراث الفكرية والفقهية والثقافية، وفي الوقت نفسه المطالبة بتغيير القناعات حول الحاكم والسلطة القائمة، وهذا شيء تقرأه الأمة بطريقتها الخاصة[2]، وتفهمه فهماً عميقاً؛ لأنها تقف موقف المستبصر الناقد المنتظر ركوب قطار النجاة من الواقع المتناقض.

والتغيير في عالم الأمم يختلف عنه في عالم الدول، حيث إن السنن الاجتماعية تتباين وتختلف، فالأمم تريد العدل والرخاء والاستقرار والعلم والثقافة، بينما الدول فهي تريد التمكن الأمني والاقتصادي والعسكري، وهاتان الإرادتان

---

(١) ومن تلك الصور ما نجده في مقدمات كتب التفسير والفقه والأصول واللغة والأدب من إهداءات للسلاطين والحكام، فالعالم يُهدي نتاجه الفكري في تفسير القرآن لحاكم لا يحسن قراءة القرآن، ولا يهديه للأمة التي تنتظر بفارغ صبرها من ذلك العالم أن يقدم لها نتاجاً يحييها، فلا نعجب من تلك الانتكاسة المستقرة في العقل الباطني للأمة على مدى قرون متطاولة من صنيع العلماء مع الحكام، على أن الإهداء لو كان لأحد فالأصل أن يكون للأمة الباقية، لا للحاكم الزائل.

(٢) يتعامل كثير من دعاة الإصلاح والتغيير مع عموم الأمة على أنها تمثل ساحة التلقي المجرد عن الأفكار والثقافات، وهذا الشكل من التعامل يبين عدم الإدراك الحقيقي لثقافة الأمة الإسلامية اليوم، وهو يعكس نفسية الاستهانة والتقليل من قيمة الأمة على المستوى النقدي في التلقي للخطابات الفكرية والدعوية، مما ينعكس بدوره على إيجاد فجوة حقيقية تترجمها تلك الحركات الهزلية ومواقف السخرية والاستهزاء من أصحاب العمائم والمشيخة التقليدية، مما أدى إلى إيجاد حالة من الفراغ في التعبئة الفكرية الجادة، وهو ما يهيئ الأمر إلى البحث عن البديل الحقيقي الجاد، بعد مرحلة التعطيش للرواء العذب المقنع.

متناقضتان، فالأمة تريد الخير للداخل، والدولة تريد الخير لفئة في الداخل، والأمة تريد الانتشار في الخارج، والدولة تريد السيطرة على الداخل، وأما الفئة الحاكمة فهي المسيطرة في غالب الأمم على لعب دور الصادِّ عن عملية التغيير، ولا يتأتى التغيير من هذه الفئة إلا في حدود قاعدة المصالح الفئوية، بما يرسخ للوجود الداخلي، أو التوسع الخارجي، فإن إمكانية التغيير الشامل يصعب تحقيقه مع هذه الفئة، فيتوقف التغيير الحقيقي على الأمة بجميع طبقاتها ومستوياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والأدبية والفكرية، وهذا السلوك موجود في التاريخ الإسلامي، إلا في الفترات المنيرة من تاريخ أمتنا المشرق.

والملاحظ أن العوامل السياسية التي تلعبها الدول في حال الاستقرار، تُظهر حقيقتها الأمنية في حال المطالبة بالتغيير من قبل الأمة، والخطاب السياسي المتزن المرن، يصبح شمولياً تهديدياً عدائياً لكل مخالف، وأنا لا أدعي العلاقة العدائية بين الأمة والدولة، فهذه هي إحدى الصور التاريخية في العلاقة بين الأمة والدولة على مدى العصور والأيام، إلا في بعض الحقبات التاريخية المنيرة، التي استمرت لأوقات يسيرة ولم يُكتب لها الثبات والدوام باعتبارها منهجاً وثقافةً معمولاً بها على المستوى العام للأمة.

فالدولة تريد لنفسها البقاء والاستمرار، وترى في الأمة المهدِّد الأول لهذا الاستمرار السياسي، فتصنع الدولة حالةً من العداء المأزوم بينها وبين الأمة، وتتناسى أنها الولد الشرعي أو غير الشرعي لهذه الأمة، فترفع صوت التهديد الغاضب لكل من يطالب بالإصلاح أو التغيير، ويبدأ المسلسل الأمني حلقاته الأولى بالدموية لينال الأصول الفاعلة في الأمة، فيكسر أقلامها، ويحطم

آمالها، ويحول بينها وبين عموم الأمة لتفقد الأمة روح القدوة العاملة، وأصول الأسوة المتحركة، فتعيش زمن «الرُّوَيْبِضَة»، وتنمو أظفار عاملة، تختبئ تحتها أوساخ الفكر وعفن الثقافة، وتترك بصمات المرض في كل بقعة تخدش فيها خدشاً، أو تسيل فيها دماً.

وبطبيعة الحال فنحن نعيش زمن «الرُّوَيْبِضَة»، رويبضة الإعلام والفكر والسياسة والفن والثقافة، بل رويبضة التربية والدين والعلم، وقد جاءت الأحاديث في بيان معنى «الرُّوَيْبِضَة»، ملتقيةً في مجموعها في دلالة واحدة، فسئل عليه الصلاة والسلام عن معنى الرويبضة؟ فقال: «**الرَّجُلُ التَّافِهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**»(1)، وقال في موطن آخر: «**السَّفِيهُ يَنْطِقُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**»(2)، وقال: «**الْفُوَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**»(3)، فهذه التفسيرات النبوية تلتقي في أن الرُّوَيْبِضَة يتكلم في أمر العامة، أي: في شؤون الأمة المختلفة، وفيه ثلاث صفات، وهي: التفاهة والسفاهة والفسق، أما التافه فهو «الخسيس الخامل من الناس»(4)، وأما السفه

---

(1) **المستدرك على الصحيحين**، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1411هـ 1990م، كتاب الفتن والملاحم، ج4، ص512، رقم الحديث: (8439).

(2) **المعجم الأوسط**، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة – مصر، 1415هـ، ج3، ص313، رقم الحديث: (3258)، والمعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل – العراق، ط2، 1404هـ 1983م، ج18، ص67، رقم الحديث: (14832).

(3) **مسند أبي يعلى**، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق – سوريا، ط1، 1404هـ 1984م، ج6، ص378، رقم الحديث: (3715).

(4) **غريب الحديث**، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1396هـ، ج3، ص153.

فهـو «نقيض الحلم، وقد سفه حلمه ورأيه»[1]، وأما الفسـق فأصلـه: «الخروج عـن الاسـتقامة والجـور»[2]، وهـذه الصـفات الـثلاث إذا تـوافرت في رجـل فإنـه يتخلص إلى محض الشر والفساد، فيتلخص حاله في الإفساد والخراب، لمقصدية خبيثة وهي تثبيت فئة على حساب بقية الفئات، وتمكين الدولة الحاكمة على عموم الأمة.

والملاحظ أن الحديث لم يتطرق لنقـص في المؤهـلات العـلميـة أو المعرفيـة أو الثقافية في شخصية «الرُّوَيْبِضَة»، بل تطرق لصفات نفسية في الدرجة الأولى، وهي بمجموعها تدل على فساد القلب وانعدام الحكمة، فكأن الحديث يشير في تضاعيف دلالاته إلى حاجة الأمة زمن «الرُّوَيْبِضَة» إلى إيجاد شخصيات سليمةِ القلب، ناطقةٍ بالحكمة والموعظة الحسنة، تمارس دورَ الأمانة في التبليغ.

والـدور الـذي يرسـم فيـه المصـطفى صـلوات ربي وسـلامه عليـه بدايةَ الطريق للخروج من مأزق التفاهة العامة، والسفاهة المسيطرة على عقل عموم الأمة، يحتاج إلى تـأنٍ وصـبر في صـناعة الشخصـيات الحكيمـة، الـتي تحتمـل الأذى الإعلامـي، والتشـويش الفكـري، وقـد تنـاول الحـديث صـفتي الكـذب والخيانـة وجعلهمـا مـن الموازين المقلوبة، ثم جعل أمارةَ ذلك نطقَ «الرُّوَيْبِضَة» – وهو لفظ غريب لافت للنـظر –؛ لينبـه علـى خطورتـه وأنـه حاضـر في صـناعة الأحـداث العظمـى لهـذه الأمـة، فعـن أبي هريـرة رضـي الله عنـه قـال: قـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم:

---

(١) **المخصص**، ابن سيده، ج١، ص٢٧٢.

(٢) **الفائق في غريب الحديث**، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط٢، ج٣، ص١١٦.

«سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»[(١)].

ونطق «الرُّوَيْبِضَة» يمثل نطق الدولة الخارجة عن مقصد الأمة وغايتها، فالأمة تريد الإصلاح و«الرُّوَيْبِضَة» ينطق بإرادة أسياده، فالعائق الداخلي بين الأمة وبين الدولة في إرادة التغيير «الرُّوَيْبِضَة»، الذي يريد إنفاذ مصالحه التافهة السفيهة، فيخرج على إرادة الأمة بتعسف وجرأة وطياشة فكر، وهو الذي يحرك الأوراق الصعبة في وجه الأمة، فيصنع حالةً من الضبابية المشوشة، وقد استهان كثير من العلماء بشأن «الرُّوَيْبِضَة» فتعاملوا معه على أنه رجل تافه لا يستحق الالتفات أو الاهتمام، والحق أن هذه الشخصية تحتاج إلى دراسة جادة في أسباب نشأتها، والظروف والملابسات التي تصنعها، وطريقة وصولها إلى المنابر والمحافل والمراكز الأكاديمية المؤثرة في صناعة الثقافة والفكر.

إذن نحن نعيش أزمةً حقيقيةً في معرفة كيفية تخلل الفساد فينا الناطق بإرادة الأسياد؟ أقول: إن السبب الرئيس هو غياب الجانب الروحي الذي يصنع نفسية العالم الداعي قبل عقليته، فغابت عن أذهاننا اللحظات الأولى التي تربى فيها النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء، وغاب عن عقولنا وتفكيرنا ذلكم الزمن الذي عاشه موسى عليه السلام في مدين؛ ليستوي ويبلغ أشده ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ

---

(١) سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت – لبنان، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ج٢، ص١٣٣٩، رقم الحديث: (٤٠٣٦).

ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (القصص:١٤)[1]، فأصبح اهتمام الأمة منذ قرون طويلة، في حفظ المتون والأسانيد والأشعار، وتكثير المؤلفات والمصنفات، وأصبح الجو المسيطر على البيئة العلمية في المعاهد والمدارس والمساجد التنافسَ على المكاثرة، وهو من الدنيا وليس من الآخرة في شيء، حتى صدق فينا قول الحق سبحانه: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ (التكاثر:١).

ثم تخلل فينا حب الدنيا فوقع التناقض والاضطراب في شخصية طالب العلم بين إرادته الآخرة ونظره للدنيا، ومع تراخي الوقت غابت المقاصد الحقيقية لطلب العلم، فهُضم حقها في التركيز على الجانب الروحي، والبناء النفسي، فصدقت فينا خشيةُ النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: «**فَوَ اللَّهِ، مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[2]، ولا يقتصر مفهوم

(١) جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن وكز موسى عليه السلام لذلك الرجل الذي من عدوه، فقد يتبادر للذهن عند من لم يتدبر الآيات، ويقف على أسلوب القرآن في ذكر النتائج قبل الأحداث؛ لتكون كالمقدمة لذكر الحدث بعدها، أن بلوغ الأشد والاستواء وإتيان الحكمة والعلم اللذين هما النبوة، كان قبل الوكز، وهذا ليس صحيحاً بإطباق كلمة المفسرين، فالنبوة كانت بعد هذه الأحداث جميعها، لكنها ذكرت للتنبيه على أنها الغاية المقصودة من هذه الأحداث المرادة، وأن بلوغ الغاية العظمى يحتاج معه إلى الابتلاء العظيم، وهذا ما جاء في قصة يوسف عليه السلام حين قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٢١-٢٢)، فجاء ذكر التمكين في الأرض ليوسف عليه السلام بعد أن اشتراه العزيز، لبيان أن بدايات الابتلاء يأتي معها التمكين والثبات، وأن أمر النبوة والتمكين تحصيل حاصل، وأمر يعيه من أراده الله بخير، لكنها ساعات الصبر والاحتمال، فهذه سنة في البناء والتمكين لأمة الإسلام، وهي ثابتة ثبات الليل والنهار.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، ج٤، ص١٤٧٣، رقم الحديث: (٣٧٩١).

بسط الدنيا أن ننال الأموال فتصبح في جيوبنا فحسب، بل أن تتهيأ الأسباب الموصلة إلى كسب الأموال[1].

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم محمول على الأمر التحذيري في أن تصل الأمة إلى مرحلة «الرُّوَيْبِضَة»، ومحمول في حقيقته وجوهره على التحذير من الوقوع في مزالق الدنيا وبراثنها، والاكتفاء بجنباتها وملهياتها، فهو نهي حضاري[2] عن ركوب متن الدنيا والانكباب على أسباب التوسع والبسط، وليس نهياً محرماً لأفراد الأمة في الاشتغال بأسباب الرزق وجلب المال، وإنما هو نهي ضمني حضاري في أن يكون الاشتغال بالتكثير من طيبات الحياة الدنيا على حساب مواجهة التحديات التي تعترض نهضةَ الأمة، ومعاودةً بنائها من جديد، ويحمل الحديث في

---

(١) وقد تهيأت الأسباب بانبساط عريض، فلعل كلمةً تُقال في مدح أو ثناء أو تزوير أو قلب للحقائق يأخذ عليها صاحبها عشرات الألوف بل المئات، ومن أراد أن يعرف شيئاً من هذا فليطالع أجور بعض المحامين والمستشارين، الذين أوقعوا البلاد والعباد في طامات بسبب مرافعاتهم واستشاراتهم.

(٢) الأحكام الفقهية العملية التكليفية أربعة أحكام، الفرض والحرام والندب والكراهة، وأما التخيير الذي هو الإباحة فهو حكم شرعي لا تكليفي، وقد اقتصرت كلمة الأصوليين على هذه الأحكام الفردية الذاتية، وبسبب موت الاجتهاد في الفكر الأصولي لهذه الأمة منذ قرون متطاولة؛ فإنها نامت عن بيان الأحكام الشرعية التكليفية الجماعية، المرتبطة بالأمة من حيث هي أمة ناهضة أو غير ناهضة، فلا نقرأ على سبيل المثال: الحرام الحضاري، أو الفرض الحضاري، أو الندب الحضاري والكراهة الحضارية، وغاية ما اكتفت به في هذا المضمار ذلكم التقسيم القديم وهو: فرض العين وفرض الكفاية، وهو لعمر الحق لا يسعد الطالب، ولا يحقق المطلوب، على أن كثيراً من الأحكام التي يطلقها علماء الإسلام اليوم، في تحريمهم لبعض سلوكيات الأمة، خصوصاً ما يكون فيه التقاء ببعض ثقافة (الآخر)، الذي يقع فيه الجدال الطويل، والاختلاف العريض، هو من باب عدم القدرة على التفريق بين الحكم الذي يصدق فيه مخاطبة الفرد باعتباره فرداً، وبين الحكم الذي يصدق فيه مخاطبة المجموع العام لهذه الأمة، أي: بين الحرام والحرام الحضاري، وبين الواجب والواجب الحضاري، وسبب ذلك هو غياب الاجتهاد التجديدي في التعاطي مع الأصول ضمن متطلبات المرحلة التي تعيشها الأمة، وضمن تقلبات الزمن، يُنظر في بيان الأحكام التكليفية: **المحصول في علم الأصول**، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، ج١، ص١٠٧.

طياته أمراً وإرشاداً في إيجاد الوسائل التربوية التي تحول دون وصول الأمة بمجموعها إلى مرحلة «الرُّوَيْبِضَة»، وهو أحد تلك الأحاديث المتحدثة عن غيب المستقبل التي ابتعدت الأمة عن فهمها وفق مراده صلوات ربي وسلامه عليه[١].

ومن هذه النظرة العميقة لأبعاد التحذير النبوي من مغبة السقوط في براثن التناسي لفقه الأولويات، وفقه المرحلة، والسقوط في غور الالتهاء بإشباع شهوات النفس، عن المضي في تحقيق الثبات الحضاري، وديمومة النهوض الفكري والانتشار الدعوي، تأتي الحاجةُ ملحةً لإعادة الدور الحقيقي للفهم والتدبر لمقاصد الوحي في إعادة الأمة إلى وظيفتها الحقيقية في بناء العلاقة التكاملية بينها وبين الدولة، لإيجاد الترابط التكاملي بين وظيفة الدولة وواجب الأمة، في تحقيق مجموعة من المقاربات الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والتعليمية، للخروج من مأزق العداوة السياسية بين رأس الهرم وقاعدته، ولإرساء قواعد الاتفاق فيما يحقق المصلحة المتحدة في الشهود الحضاري على أمم الأرض.

(١) منهج التعامل مع أحاديث الفتن والملاحم وأخبار آخر الزمان لقت رواجاً عند الناس على أنها قصص حاصلة واقعة، لا أنها مضيئة للمستقبل لنحذر، فوقع الناس في المحذور الفكري والثقافي، وانتظروا الموت باعتباره تحصيل حاصل، كما تعاملوا مع النصر على أنه تحصيل حاصل كذلك، والغفلة العظيمة التي وقع فيها القصاصون الذين تمركزت كلماتهم حول أحاديث الفتن التي صح منها القليل أوقعت العلماء في أن يتساهلوا في بيان الحق في هذا الباب، مما جعل المنهج بمجمله منهجاً مؤدياً إلى الجبرية في سلوك الأمة شئنا أم أبينا؛ ولذلك فالأمة تعيش جبريةً نوعيةً بامتياز، ومن مستلزمات منهج التغيير رسم ضوابط الفهم لأحاديث غيب المستقبل بما يتوافق مع البناء التربوي والفكري السليم، وبما يحقق المقصود في بناء السلوك السوي لدى عموم الأمة في مسيرتها الاستخلافية النهضوية.

المبحث الثالث

العقيدة والسياسة في حقبة العولمة

إن ما يعيشه العالم الإسلامي اليوم من لهاث ثقافي، وتطوح فكري، ليعكس حجم الفتنة التي نعيشها، وطبيعة المعركة التي تُمارس علينا، حيث نحن الحلبة لا أبطالها، بل نحن ظل جمهورها لا جمهورها؛ لأن الجماهير تعي طبيعة المعركة وأبعادها ونتائجها المترتبة عليها، أما نحن فنعيش حالة من النشوة الخالية من طعم الحياة، وما ذلك إلا لإرادتنا أن نعيش الحياة الدنيا كما يعيشها (الآخر) ممن نرى فيه غلبةً علينا، وقوةً تفوقنا، وتقدماً يتقدمنا، وهذه الإرادة التي هي عبارة عن مسخٍ من الفكر، ونسخٍ من الحضور، يجب أن تُخلع من الصدور بإرادة أقوى، وشكيمة أمتن، كي نتجاوز مرحلة الخديعة التي تعيشها الأمة بوصفها كائناً حياً.

ولعل من أكثر المصطلحات المعاصرة شيوعاً بين الأوساط الثقافية مصطلح العولمة، حيث كثرت الكلمات، وطالت الجمل، وتوسعت البحوث، وكثرت النقول، حتى أصبح من العولمة الكتابة عن العولمة، وقد ذكر عبد العزيز برغوث ست مقاربات لمفهوم العولمة، باعتبارها تكاثفاً في العلاقات الدولية، وبوصفها الخوصصة الرأسمالية، وبوصفها العالمية، وبوصفها الغربنة والحداثة، وبوصفها تقلص تأثير الحدود الجغرافية، وبوصفها فعلاً استعمارياً حضارياً بمنطق علمي تكنولوجي صارم[(١)]، وهذه المقاربات تعكس حالةً من المزاج الفكري لهذه الظاهرة التي تجمع

---

(١) الأمة الوسط والشهود الحضاري في عصر العولمة، عبد العزيز برغوث، الكويت، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، ط١، ص ٩٣-٩٧.

إلى كونها مصطلحاً مؤدلجاً، حقيقةً واقعية مرتبطة بالطموح الاقتصادي لأصحاب المال والنفوذ السياسي، فإن الكلام عن المصطلح والمفهوم هو لون من ألوان خوض محيطات الألفاظ للخروج بلؤلؤة لامعة في وسط ظلام دامس.

والذي يعنينا في هذا المقام هو الوقوف على المصطلح من حيث مخرجاته الفكرية والاقتصادية والسياسية، لا الوقوف على تأصيله اللفظي؛ فإن الأمر مرتبط بمسيرة الأمة في وسط الزحام الحضاري، حيث أصبح هذا المصطلح أحد أكثر المصطلحات انتشاراً في وسائل الإعلام ومحافل الفكر والثقافة، ومن المفارقات الغريبة أنه من أشد المصطلحات التي طرأ عليها اختلاف بين المنظِّرين في المدارس الفكرية والاقتصادية والسياسية، وبسبب هذا الاختلاف الشديد في تحديد ماهية المصطلح؛ فإن المدارس الفكرية تتخذ طريقها في شق أركان قويمة للمصطلح، بما يحقق أهدافها التكتيكية، أو يخدم مصالحها الاستراتيجية، ولا نعجب أن تتعدد التعريفات للمصطلح الواحد حسب اختلاف المصالح.

فالمصطلح في حد ذاته خادم بشكل أو بآخر لمصالح معينة، وجهات محددة، والمختبرات الفكرية الغربية تقوم بأدق الفحوصات، وبأدق الأجهزة الحديثة، لتحقيق المآرب التي تمليها السياسات النافذة، لأصحاب رؤوس الأموال، حيث إن مصانع الفكر والثقافة والمعرفة تعمل ليل نهار جاهدة لإخراج البديل الثقافي، والجديد الفكري، بما يجد فيه المستهلك رضاً لنفسه المهملة، وشخصيته المريضة، وعقليته المقلدة، والمستهلكون في العالم الإسلامي للمنتجات الثقافية يمثلون أسافين الإعاقة القاتلة في طريق إعادة تشكيل عقلية المسلم المعاصر.

وضمن رؤيتي الخاصة، ورأيي الذي أميل إليه عن قناعة، أن الوقوف مع بيان هذا المصطلح «العولمة» لهو من تبذير الأوقات، وتضييع المساحات الفكرية

الخصبة بما لا طائل من ورائه، فإن هذا المصطلح لا يخضع لقاعدة فكرية تنظيرية يتفق المناطقة على الخضوع لأبعادها النظرية، بل إن هذا المصطلح وضع لغاية واضحة بيِّنة، لا تنتمي للفكر والثقافة من قريب أو بعيد، ومن تدبر الأمر ولو لقليل من الزمن الخالي من الهموم؛ لعلم أن العولمة هي بنت الاقتصاد والسياسة، وليست بنت الفكر والمنطق، وليست بنت الفن والثقافة، وليست بنت الجدال والحوار، وإنما هي البنت غير الشرعية لأهداف الدول النافذة سياسياً واقتصادياً.

وبناءً على ما تقدم فإني لا أرى ضرورة في أن يضيِّع الباحثُ الجادُّ وقته في جمع التعريفات للعولمة، ثم القيام بموازنة بينها؛ ليرجِّح تعريفاً على آخر، ثم يضيع الجهد أدراج الرياح، لكلمة يقولها صاحب شركة أو رئيس دولة، وهكذا تفنى أعمار الرجال، بل يكفينا في هذا المقام أن نتكلم عن حقبة العولمة، باعتبارها حقبة زمانية، يكتفي فيها الذكي الحصيف بأن تسمع أذنه مصطلح «العولمة» فيرسخ في ذهنه ذلكم المعنى الذي يرتسم بشكله الجميل، ورائحته الكريهة، وملمسه الحاد القاتل، ويحضر ذلكم الطمع الدولي في انتهاب خيرات العالم الجائع، وانتزاع مقدرات العالم الضائع، لتحقيق المآرب الذاتية للعالم الذي لن يشبع.

ولعبة العقيدة والسياسة، أو الفكر والسياسة لعبة قديمة وطيدة، لعبتها معظم الأمم، فالعقيدة والفكر هي الغطاء الشرعي للسياسة، والسياسة هي الجهة المنفذة للعقيدة الخادمة، وفي هذا الصدد يتساءل «ويليام ديورانت» عن استخدام قسطنطين للمسيحية باعتبارها وسيلة من وسائل السيطرة السياسية على البلاد الرومانية، خصوصاً بعد فشو النزاع بين أهلها: «تُرى هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية مخلصاً في عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية؟ أو هل

كان ذلك العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية؟ أكبر الظن أن الرأي الأخير هو الصواب»[١].

ويقول في بيان أن العقيدة المسيحية عند قسطنطين هي وسيلة من وسائل السيطرة، لا غاية دينية، أو قناعة عقدية: «وقد كان في أثناء حكمه كله يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون؛ فكان يستدعيهم إليه، ويرأس مجالسهم، ويتعهد بتنفيذ ما تقره أغلبيتهم من آراء، ولو أنه كان مسيحياً حقاً أولاً، وحاكماً سياسياً بعدئذ؛ ولكن الآية انعكست في حال قسطنطين، فكانت المسيحية عنده وسيلة لا غاية»[٢].

ويقول في وصف المسيحيين، وكونهم أداة طيعة بيد الحاكم، يستطيع من خلالهم السيطرة على البلاد وتهدئتها إذا ثارت ثائرة العصيان: «وقلما كان المسيحيون يخرجون على الدولة رغم ما لاقوه من ضروب الاضطهاد الشديد، ذلك بأن معلميهم قد غرسوا في نفوسهم واجب الخضوع للسلطات المدنية، ولقَّنوهم حق الملوك المقدس، وكان قسطنطين يأمل أن يكون ملكاً مطلق السلطان، وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين، وقد بدا له أن النظام الكهنوتي وسلطان الكنيسة الدنيوي يقيمان نظاماً روحياً يناسب نظام الملكية، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة، يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها»[٣].

فهذه الثنائية التاريخية بين الخادم والمخدوم، لتمثل الحال المأزوم الذي تعيشه الأمم التي تريد النهوض، وتقتات على مقدراتها هذه الثنائية، والدارس للتاريخ

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج١١، ص٣٨٧.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج١١، ص٣٨٧.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج١١، ص٣٨٨.

الاجتماعي الذي تحركت في محيطه الأمم المثقلة بأعباء الاتفاق بين الساسة ووجهاء الدين، ليدرك أن الأمر أشد بكثير من الواقع الذي تسيطر عليه الدكتاتوريات العصبية، فإن الدول المتحالفة مع الدين هي في حقيقتها دول أرادت لنفسها الخلود، فسلكت مسلك الدين لتحظى بالبقاء والاستمرار دون طروِّ القلق من الخلاف الديني الذي يهددها عند بزوغ الفساد، وهذا ما يفسر لنا سرَّ كثير من الدول التي نشأت في تاريخنا الإسلامي ببعد عقدي، وبدعم من بعض الحركات الدينية الباطنية باختلاف اتجاهاتها العقدية أو الفكرية أو السياسية.

فالسياسة في كثير من الأحوال هي الجاذبة للعقيدة، أو هي المنتجة لها، وذلك إذا توافرت أسباب النجاح السياسي، فالعقيدة حينئذ هي المنجية من قلق السقوط والاندثار؛ حيث إن السياسة الخالية من الفكر العقدي مكتوب على جبينها: «الموت متحقق ولو بعد حين»، ولو نظرنا في الدولة الأموية التي لم تصنع لنفسها عقيدة خاصة بها، قد ذهبت ولم يبق لها في الوجود إلا الاسم والرسم، ومثلها الدولة العباسية، وكذلك دولة المماليك والدولة العثمانية[1]، لكن الدول التي ارتبطت بعقيدة محرَّفة عن أصل الدين، بقيت بأسماءٍ مختلفة، وبأشكالٍ متباينة؛ لأنها خرجت عن المنهج الإسلامي السديد في الإصلاح والتجديد، فالمطلوب هو البقاء على خط السنن الاجتماعية في البناء الحضاري لأمة الإسلام، في دائرة الابتلاء والفتون للتمحيص والتمييز، وبه يتحقق المقصد القرآني في أن تبقى الأمة تابعةً لعقيدتها، قائمةً على أمر ربها.

---

(١) فهذه الدول هي دول سياسية وليست دول دينية، أي أن الدولة لا تتخذ من الدين مطواعاً لها، ومنفذاً لسياستها، وإلا فهي دول إسلامية حكمت بالإسلام طوال فترة وجودها، لكنها لم تصنع عقيدة خاصة بها لتثبيت أركانها كما كان الأمر بالنسبة لكثير من الدول التي ارتبطت بالدين من هذه الناحية.

وفي هذه الحقبة التي نعيش حقبة العولمة المظلمة، التي ملأت الأرض جوراً وفساداً، وقلبت الموازين والأفكار بما يحقق المقاصد لمن بيده زمام الأمور، تأخذ منحى خطيراً عن منحى الدول التاريخية، وذلك أن خطر العولمة يكمن في تمييع الأفكار، وقلب المفاهيم والعقائد، ورفع لواء الحرب على أعداء السلام العالمي الذي يعني أمن الدول النافذة، وهو يعني كذلك سحق الأفكار القديمة لحساب الجديد الذي لا قديم له، فالعولمة ذات الاتجاه السياسي والاقتصادي تلعب بالفكرة العقدية من جوانبها المتباينة، وتركز على تشتيت الاجتماع الفكري.

ولو نظرنا في الولايات المتحدة الأمريكية التي هي أم العولمة المعاصرة بلا منازع، لوجدناها الداعية النَّشِطة إلى لَمِّ الشمل الإنساني حول الفكرة الجديدة، والنظام الجديد، وهي تمثل الخليط الإنساني الذي لا ينتسب لفكر محدد أو ثقافة واضحة، ولذلك أرادت من جميع الثقافات الإنسانية أن تتخلى عن أصالتها ومرجعيتها - وخصوصاً تلك الثقافات التي ترفع لواء النقاء العقدي والنقاء الثقافي-؛ لتصبح ضمن الخليط الثقافي، والامتزاج العقدي؛ فكانت مجموعة من الدعوات العالمية لأنصار السلام العالمي، وعلى رأسها دعوات الحوار بين الأديان، وهذا الحوار نوعان اثنان، أما النوع الأول فهو الحوار الذي يُراد منه التقريب بغرض الالتقاء على مائدة التعايش الثقافي مع الاحتفاظ بالتمايز العقدي، والخصوصية الثقافية، ولا غضاضة في مثل تلك الدعوات، والنوع الثاني فهو الحوار الذي يُراد منه التخلي عن المبادئ والعقائد التي من شأنها أن تحول دون التقاء أبناء الأديان على مائدة فكرية متحدة، بحيث تغيب التفريقات الدينية، وهذا النوع هو الخطير؛ الذي لا يُقِرُّه الإسلام، وفي غالب الأحيان يكون النوع الأول موطئاً للنوع الثاني، وهو ما يقع فيه كثيرٌ من السذج من أبناء هذه الأمة.

فالغرض من الدعوات الدينية العقدية هو غرض سياسي بامتياز، هدفه الأول والأخير إطالة مدة التفوق للدولة المتفوقة[1]، وتخفيف منابع التهديد الحضاري الإسلامي للأمة التي ترى من نفسها أنها الأمة القادمة لحكم البشرية ضمن توجيهات وحي لا تُقبل معه مساومة أو مبادلة، فإن السياسة عندما لعبت لعبتها مع العقيدة قديماً لعبتها في الداخل السياسي لا في الخارج السياسي، لكن الذي امتازت به العولمة اليوم، هو قدرتها على المناورة في عقائد (الآخر)، أي: تجرؤها على القول بقناعتها تجاه عقائد (الآخر)، وبعبارة أشد وضوحاً تلك الوقاحة والفظاظة التي نطق بها كثير من أولئك الساسة في إقدامهم غير المسبوق في مدح الإسلام وتحريفه علناً، حيث نصبوا أنفسهم شرّاحاً لمبادئ الإسلام، فتكلم بعض رؤساء الدول الكبرى عن دين الإسلام باعتباره دين السلام!! والعجب أن تصبح هذه الأفكار المطروحة على الساحة السياسية متوناً تشرح في كثير من المحافل السياسية والأندية الفكرية على أنها دين الإسلام، وهذا يدل على أن مصدرية الدين في حقيقة الأمر مصدرية سياسية لا دينية عند أرباب السياسة والفكر!!

وفي هذا الصدد أحب أن أعرِّج قليلاً على موضوع أشغلني فترة من الزمن، وهو أن العولمة التي هي عبارة عن مصطلح معاصر (Globalization) عُرف منذ عقود قليلات، له مضمونه المعنوي الذاتي، وله مظهره اللفظي الخارجي، فهل من

---

(١) ذهب فريق من المفكرين إلى القول بأنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وبزوغ فجر التفوق الأمريكي على العالم، أخذت الولايات المتحدة على نفسها أن تجعل العالم يعيش نمطيتها، وأن الباقي يجب أن يشقوا طريقهم في الوصول إلى ما وصلته الولايات المتحدة. يُنظر: العولمة ما لها وما عليها، د. محمد عبد القادر حاتم، القاهرة – جمهورية مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، ص٢٠.

الممكن أن يكون الوحي الذي يتصف بالمعالجات الحضارية للأمة الوسط قد ذكر «العولمة» باعتبارها الضمني، لا باعتبارها اللفظي؟

فلهذا الغرض بالتحديد قمت بقراءة كتاب الله تعالى، فوجدت أن الآيات القرآنية المتحدثة عن الإفساد اقترنت بلفظ «الأرض»، وهذا يدل على استغراق الأرض كل الأرض، أي: العالم كل العالم، وبكلمة أخرى: «العولمة»، ولو أردنا أن نقف على معنى العولمة لوجدناه هو ذاته معنى الإفساد الوارد ذكره في القرآن الكريم، فالعولمة تعني فرض قيم الدول المسيطرة التي بيدها زمام القوة والإرادة على الدول الضعيفة، ولا تخرج هذه القيم من المنظار الإسلامي عن كونها إفساداً للناس وإخراجاً لهم عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، وهي كذلك هيمنة وتطبيق لمجموعة من السياسات التي تصب في نهاية المطاف وبدايته في مصلحة تلك الدول المتعجرفة على حساب الدول الضعيفة، هذا ما تحدث عنه القرآن في حق الفساد.

واللافت للنظر أن كلمة الفساد في كثير من الآيات القرآنية ذُكِرت وقُرِن معها ذكر الأرض، من مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾، وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

فالأرض لفظ عام يُراد منه في غالب الأحوال جميع الأرض، فالمفسد لا يقتصر إفساده على جزء معين من الأرض، وإنما يريد أن يعم فسادُه الأرضَ كلَّها، وهذا حال العولمة اليوم، فدعاتها يريدون شيوع نظام أُحادي الجانب يُلزمون الناس كلهم به، يكون عاماً في الأرض كلها، دون أن يعترض هذا النظام أي تهديد، ولأجل ذلك فالحرب مستعرة بين دعاة الإصلاح ودعاة الإفساد، فالمفسدون يريدون السيطرة على الأرض كلِّها لينهلوا منها ما يريدون، وهم يعلمون في الوقت نفسه أن الذي يهددهم ويمكث على أنفاسهم دعاة الخير، ولأجل ذلك كان لا بد من وسم كل من يعترض الفساد بأنه إرهابي، ولو كان يعترضهم بالفكر والقلم، فالعولمة إذن هي شكل من أشكال نشر الفساد في الأرض، سواء أكان على المستوى السياسي أم الاقتصادي أم الثقافي أم الاجتماعي، وهذا ما صنعته الأمم السابقة عند تصديها للدعوات النبوية –كما بسط ذلك القرآن في عرضه للصراع بين الأنبياء وأقوامهم–.

فالعولمة هي نشر فساد مع جبر الناس عليه بأساليب شتى، وهو عين ما صرح به القرآن من كون المفسدين يدعون إلى الفساد مع إجبار الناس عليه، وهو خلاف منهج الإصلاح القرآني الذي يريد من الناس الهداية باختيار دون إجبار، وقد بين القرآن ذلك بعقد مقارنة مجملة بين الفريقين: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ (ص:٢٨)، وقد جاء قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ في آيات عدة، جاءت على لسان الرسل لأقوامهم، وقد تركزت هذه الآيات في جانب منها على الجانب المادي والاقتصادي تماماً، كما تُركز عليه العولمة اليوم، فمن ذلك قوله

تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة:٦٠)، وقوله: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:٧٤)، وقوله: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (هود:٨٥)، وقوله: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الشعراء:١٨٣)، وقوله: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (العنكبوت:٣٦).

فالقرآن ينبه على حقيقة مفادها أن من ملك زمام القوة على فسادٍ في ذاته كان مُفسداً لغيره، وهو ما يلاحظه ويعلمه دارسو التاريخ الإنساني عموماً، ولن يكون شأن العولمة مختلفاً عن هذه السنن التي بينها القرآن، إذن العولمة هي نشر الفساد في الأرض، بإرادة أصحاب القوة والمال؛ لتحقيق مآربهم وأهدافهم، وقد بين القرآن ذلك ووضح موقفه بجلاء ظاهر من هذه الظاهرة؛ والفرق بين العولمة المشار إليها في القرآن عند الأمم السابقة والعولمة المعاصرة، أن تلك العولمة عولمة دكتاتورية مباشرة، وعولمة اليوم عولمة التفافية ديمقراطية، يدخلها الناس دون إجبار مادي مباشر[1].

---

(١) أكذوبة الديمقراطية التي يتغنى بها الغرب على أنها حرية محضة لا وجود لها في أرض الواقع، وإنما الحاصل تلاعب الدول بالشعوب، ومن قرأ كتاب **المتلاعبون بالعقول** لهربرت أ. شيللر علم حجم المأساة التي يعيشها الإنسان الغربي فضلاً عن العربي، فالقول بالديمقراطية والحرية بشكلها المباشر هو ذر للرماد في العيون.

وحديث القرآن يأتي في غالبه من خلال سنن الأقوام، ويكون حديثه مجملاً لا تفصيل فيه، أما في السنة ففيها التفصيل والبيان، وحديث السنة يكون تحذيرياً فيما يخص واقع الأمة الداخلي، وسأقف مع حديثين اثنين يرتبطان بالعولمة، أما الأول فهو ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**».. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ**»؟![1].

فهذه التبعية تتمثل في ثلاثة أركان، التابع، والمتبوع، والمتبوع فيه، أما التابع اليوم فهم عموم المسلمين، وأما المتبوع فهم الغربيون، وأما المتبوع فيه فهو أصول الفكر والمعرفة والثقافة، وهذا التبَع هو المذموم، بخلاف التبع المحمود وهو أخذ أصول المدنية النافعة وتطويرها -كما صنع الإنسان الياباني الذي يُعد بعيداً كل البعد عن التبعية لأحد - مع ترك الأصول الثقافية، والعولمة في حقيقتها تعبير ناطق عن صورة التبعية المعاصرة، وتعني خضوع التابع لإرادة المتبوع دون إجبار أو قهر مادي مباشر، بل بإرادة التابع، وهذا غاية ما أراد أن يصله الغرب في جميع مخططاته الفكرية، فالتبعية التي أخبر عنها صلوات ربي وسلامه تعني أن يتبع المسلمون اليهود والنصارى بإرادتهم، دون إجبار من (الآخر)، وكذلك جاء الحديث مخبراً عما سيقع من قبيل التحذير والإنذار؛ وعليه فإن الحديث يتحدث عن ظاهرة العولمة فيما يخصنا نحن المسلمين، تحذيراً أن نغرق في التبعية والاتباع.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ج٣، ص١٢٧٤، رقم الحديث: (٣٢٦٩).

وأما الثاني فما أخرجه أبو داود في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[(١)]، وقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، والبيهقي في شعب الإيمان بلفظ آخر عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[(٢)]، فالتشبه يعني: الاتباع مع الشعور بالنقص والتخلف عن المتَشبَّه به، والتبعية تعني: الالتزام بجميع ما يأتي به المتَّبَعُ عن قناعة فكرية، فدافع التشبه نفسي، ودافع التبعية فكري، فإذا تكاملا واجتمعا فقدت الأمة خصوصيتها، وضاعت ثقافتها، وبطلت فاعليتها، وانعدم تأثيرها.

وملخص ما قدمناه، أن الوحي بمجموع نصوصه أخبرنا عن معنى العولمة ومضمونها، وهذا ليس بالشيء الغريب عن نصوص الوحي كتاباً وسنةً، وتضمن إخباره مجموعة من التحذيرات، تتلخص في بيان موقف الإسلام ممن تمكن من زمام الأمور على غير منهج الإسلام، وأنه صائر إلى الإفساد ولو بعد حين، وبيان موقف المسلم من الحضارات المتمكنة في الأرض، في أمرين اثنين وهما: رفض التبعية لأحد، أو التشبه بأحد؛ وبعبارة أخرى استقلالية الرؤية، ونبذ التقليد، وتجديد أمر الدين بما يخدم الواقع الدعوي، والنهوض الحضاري.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، ج٢، ص٤٤١، رقم الحديث: (٤٠٣١).

(٢) المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٩هـ، ج٦، ص٤٧١، رقم الحديث: (٣٣٠١٦)، وشعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٠هـ، ج٢، ص٧٥، رقم الحديث: (١١٩٩).

وما نراه اليوم من حال هذه الأمة، في تبعيتها للمناهج التربوية والتعليمية، والبرامج الثقافية والفكرية، بل في تبعيتها على مستويات القراءة في المناهج النقدية الحداثية للنص الأدبي، بل في المساحة التراثية المتمثلة باللباس الشعبي والتقاليد المتوارثة التي جعلها الدين من اختيارات الناس - فإننا نرى أن كثيراً ممن يرفض الدين بدعوى المحافظة على العادات والتقاليد والأعراف، نراه يسارع فيهم خشية الوصف بالتخلف -، لَيُؤَكِّد مصائب التبعية والتشبه بالآخرين.

فالهزيمة النفسية والفكرية أصبحت ممنهجة وفق إرادة الفكرة الغربية، والمنهزمون الذين سبق الحديث عن صفاتهم في حديث «الرُّوَيْبِضَة»، هم من يحمل معول هدم أي فكرة تهدد جدارية الفكرة الغربية، فنحن نعيش زمن «الرُّوَيْبِضَة» الناطق باسم الاستبداد الداخلي والخارجي، وزمن الانهزام الذي لخص منهجية التبعية والتشبه بأرقى أوصاف الحضارة والتقدم، فالرئة الناهضة تعيش بين ثقلين، ثقل لسان الداخل، وثقل فكر الخارج، وبين سطوة الرقابة الباصرة، وتشتيت الفكرة المتفحصة، يقول مالك بن نبي: «يجب أن نقرر مبدئياً هذه القاعدة العامة، ألا وهي: أنه عندما يطرح مسلم أو بعض المسلمين مشكلة ما تهم مجتمعهم، فإن هذه المشكلة تكون قد طرحت أو ستطرح عاجلاً في أوساط المتخصصين في هذه الدراسات لحساب وتحت إشراف الاستعمار.

وكلما يتقدم هذا المفكر المسلم أو هؤلاء المسلمون بحل لهذه المشكلة، يسرع من طرفهم أولئك الأخصائيون لدراسة هذا الحل، فإن كان خاطئاً، زادوا في شحنة خطئه بطريقة أو أخرى، وإن كان فيه بعض ما يفيد حاولوا كل جهدهم للتقليل من شأنه، وتخفيض قيمته حتى لا يفيد، هذه هي القاعدة العامة في الصراع الفكري الذي نشير إليه، ويترتب على هذا، أنه كلما لاحت في العالم الإسلامي

أي بادرة ذات مغزى، ولو كانت لا تبصرها أعيننا، فإن مجهر أولئك الأخصائيين يلتقطها على الفور، ليجري عليها كل طرق التحليل، وإذا وجدوا فيها أي اتصال بحركة الأفكار في العالم الإسلامي، تجري عليها كل عمليات التشريح، وتمر بكل أصناف التقطير، حتى يبقى في محتواها الاجتماعي أقل ما يمكن من عوامل التيسير لصلاحيتها، وأكثر ما يمكن من عوامل التعسير وانتفاء الصلاحية، ومن الواضح أن من أكثر البوادر دلالة على اتجاه مجتمع ما، هو اتجاه أفكاره؛ فإما أن تكون متجهة إلى الأمام إلى المستقبل، أو إلى الخلف اتجاهاً متقهقراً، اتجاهاً ملتفتاً إلى الماضي بصورة مرضية»[1].

وفي نهاية المطاف فإن حقبة العولمة تفرض نفسها في مواجهة الأمة الصاعدة، وهي تأبى أن يكون للمسلم المعاصر الذي يفهم الإسلام ضمن نقائه الأول، أيُّ دور حقيقي في التغيير، وترفض أن يتحول المركب عن مساره الذي خطط له، وسيبدأ مسلسل الصراع بين القديم الغربي وبين الجديد الإسلامي في حلقات خطيرة، ستنتقل من المواجهة الفكرية، والعداء الإعلامي العريض، إلى الساحة العسكرية بأبشع صور الابتزاز، وستبدأ المحنة الطبيعية التي يحياها أنصار الجديد في كل وقت وحين، وسيكون للسنن الاجتماعية التي أوجدها الله سبحانه وتعالى وجود في سلم الصعود إلى القمة، وسنجني الثمرة بعد حلقات من الصبر والمشقة والمكابدة، بعد مرحلة التأسيس الحقيقية للأمة الوسط في مفهومها الحضاري الاستخلافي الشامل.

---

(١) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مالك بن نبي، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م، ص١٤-١٥.

الفصل الثالث

سنة التغيير

تمهيد:

خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون وأراد له الحياة النابضة، وأوجد فيه سنناً كونيةً وأخرى اجتماعيةً لا تتبدل ولا تتغير، فأنزل القرآن ليكون المضيء في عالم الظلمات، وجعل بداية نزوله في ليلة شرفها لتكون ليلة قدر نزول القرآن؛ فاكتسبت فضلها وشرفها وعظمتها، ومن هذه الليلة طرأ على البشرية تغيير جديد، لم تعهده بهذا الشمول والتمام من ذي قبل، تغيير شامل للحياة كلها، في مفاهيمها وتصوراتها وقيمها، وفي سلوكياتها وأفعالها واستجاباتها، وفي نهوضها وتحضرها وتمدنها، فنطق الكون باسم التغيير القرآني، واستجابت البشرية الغارقة في التيه والضلال لنداء الإصلاح والتغيير، وقد أراد سبحانه وتعالى أن يشرف الأمة تشريفين في هذه الليلة، تشريفاً لأفرادها، وتشريفاً لمجموعها، أما التشريف الفردي فهو تشريفها بما جعل لهذه الليلة من خصائص عظيمة، وأجور مضاعفة، والتشريف لمجموعها فهو تشريف بأن كان هذا القرآن أداة التغيير والإصلاح.

والأمة تحتاج إلى تغيير في التصور تجاه ليلة نزول القرآن، حيث إنها ركزت بمجموعها على فضلها وشرفها الفردي، ونسيت وغفلت أن هذا الفضل ما كان إلا بركة من بركات القرآن الذي أُنزل ليغير الواقع المرفوض القديم، إلى الواقع

المطلوب الجديد، وفلسفة التاريخ القرآني تقتضي أن يكون القرآن هو المغير للحضارة البشرية من وثنيتها وترديها وظلمها، إلى توحيدها ونهضتها وعدلها، ومن هنا كان التصور العام لدى الأمة الوسط في فهمها لليلة القدر يجب أن يتغير من التصور الفردي التعبدي الخاص، إلى التصور العبودي الحضاري العام، ومن اقتصاره على قيام الليل في الصلاة والتسبيح، إلى تجديد الفهم في المهمة العظمى لهذا القرآن المجيد.

فقد عاشت الأمة قروناً متطاولة وهي تعيش ليلة القدر على أنها ليلة تبدأ بغروب شمس وتنتهي بشروقها الباهت، ولم تشعر هذه الأمة أن ليلة القدر هي الليلة المركزية للعام الهجري الذي يُشكل نواة الدائرة الأولى من دوائر الأعوام والعقود لحياة الأمة، ومن هنا نقول: إن ليلة القدر التي اقتصر الحديث عليها في العشر الأواخر من ليالي شهر رمضان، هي ليلة العام المركزية، يجب أن تعيشها الأمة بتصورها الحضاري العبودي، من خلال تجديد الأفهام، وخلع رداء الماضي المستهلَك، ولبس رداء الحاضر الجديد، مع الاحتفاظ بأصالة القيم الثابتة، ومحورية العمل الناهض، ومن ثَمَّ فإن الاستقواء بالعبادة الفردية مع ترك العمل الحضاري لهو من الخذلان الذي أصيبت به الأمة في تصورها وسلوكها.

ولأجل ذلك كان الواجب على علماء الأصول المجددين في هذا الباب من الفهم، أن يعيدوا دراسة الأحكام التكليفية دراسة جادة مبنية على فهم معطيات القرآن في أصوله العامة، مع التطبيق النبوي لهذه الأصول؛ لإعادة إخراج الدلالات الأصولية في بابٍ ضعف عن أداء حقه كثيرٌ ممن تنصب هذا المقعد من العمل، فنظرة الأصوليين اقتصرت في مجملها على الحكم التكليفي الفردي، وتغافلت عن

الحكم التكليفي الجمعي[1]، أي: ما يخص الفقه الحضاري للأمة والدولة والمجتمع، وما يتبع ذلك من مسائل الرقابة الداخلية والخارجية في سنن الإصلاح والتغيير، فإن البرامج الاجتماعية والحضارية والمؤسسية التي تخدم مسار الأمة نهوضاً وسقوطاً لا وجود لها في التراث الأصولي أو التراث الفقهي أو التراث الفكري، ولا يخفى أن وجود البرامج التي تخص فقه التغيير والإصلاح لهو من أولويات العمل لدى الفقهاء العاملين، بما يصب في الحد من التهاوي السريع، أو الخروج عن المقصود الشرعي.

والمدقق في تاريخنا الفكري الموروث، والمتابع للخطاب الفقهي المعاصر، ليدهش من مساحة الفجوة بين مضمون الخطاب الذي يُلقى على أسماع المتلقين، وبين المطلوب أن يُقال في مراحل العمل الدعوي، وما ذلك إلا لوجود التواصل غير الواعي بين الحاضر والماضي، وانقطاع الوعي بالمطلوب بين فقهاء الحاضر وبين الجيل الحضاري الأول، مما جعل الفجوة عميقة، والثوب الممزوع كالمرقوع.

ومن هنا كان الحديث عن «سنة التغيير» من الواجبات الفكرية التي يلزم عنها ضرورةً دراسة مجموعة من القضايا التي تخص هذا النوع من الفقه، والسنة تعني ابتداءً جريان أمر وفق طريقة واحدة والتزامه بها، يقول ابن فارس: «السِّينُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ جَرَيَانُ الشَّيْءِ وَإِطِّرَادُهُ فِي سُهُولَةٍ، وَالأَصْلُ قَوْلُهُمْ سَنَنْتُ الْمَاءَ عَلَى وَجْهِي أَسُنُّهُ سَنًّا، إِذَا أَرْسَلْتَهُ إِرْسَالاً... وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لأَنَّهَا

(١) للأصوليين تفصيلات مطولة في التفريق بين الواجب الكفائي والواجب العيني، لكن هذا التأصيل لا يتجاوز – عند التطبيق – مساحة العمل في جانب العبادات، على أن العمل يتجاوز عند تفعيل التطبيق الفقهي مجالاتٍ عظيمةً من الفقه الحضاري، على مستوى الأمة والدولة والمجتمع، يُنظر؛ المحصول في علم الأصول، الرازي، ج٢، ص٣١٠.

تَجْرِي جَرْيًا، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: امْضِ عَلَى سَنَنِكَ وَسُنَنِكَ، أَيْ وَجْهِكَ. وَجَاءَتِ الرِّيحُ سَنَائِنَ، إِذَا جَاءَتْ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ»[1]، فالسنة بمفهومها اللغوي العام تعني السير وفق طريقة ثابتة مطردة لا تتغير بتغير الأحوال، ولشيخ الإسلام بيانٌ جدٌّ ظريف في بيان معنى السنة الإلهية الكونية، يقول رحمه الله تعالى:

«وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُخْتَلِفَةِ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ وَيُسَوِّي بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُتَمَاثِلَةِ؛ فَيَحْكُمُ فِي الشَّيْءِ خَلْقًا وَأَمْرًا بِحُكْمِ مِثْلِهِ، لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مُتَمَاثِلَيْنِ، وَلَا يُسَوِّي بَيْنَ شَيْئَيْنِ غَيْرِ مُتَمَاثِلَيْنِ؛ بَلْ إنْ كَانَا مُخْتَلِفَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ لَمْ يُسَوِّ بَيْنَهُمَا... وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ السُّنَّةَ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَ«السُّنَّةُ» هِيَ الْعَادَةُ الَّتِي تَتَضَمَّنُ أَنْ يَفْعَلَ فِي الثَّانِي مِثْلَ مَا فَعَلَ بِنَظِيرِهِ الْأَوَّلِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالاعْتِبَارِ وَقَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١).

وَالاعْتِبَارُ أَنْ يُقْرَنَ الشَّيْءُ بِمِثْلِهِ، فَيُعْلَمَ أَنَّ حُكْمَهُ مِثْلُ حُكْمِهِ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَلَّا اعْتَبَرْتُمْ الْأَصَابِعَ بِالْأَسْنَانِ؟ فَإِذَا قَالَ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وَقَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أَفَادَ أَنَّ مَنْ عَمِلَ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ جُوزِيَ مِثْلَ جَزَائِهِمْ؛ لِيَحْذَرَ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ؛ وَلِيَرْغَبَ فِي أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٣، ص٦٠-٦١.

(الإسراء:٧٦-٧٧)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٠-٦٢).. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَنْزَلَهَا اللَّهُ قَبْلَ الْأَحْزَابِ وَظُهُورِ الْإِسْلَامِ وَذُلِّ الْمُنَافِقِينَ؛ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُظْهِرُوا بَعْدَ هَذَا مَا كَانُوا يُظْهِرُونَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، قَبْلَ بَدْرٍ وَبَعْدَهَا، وَقَبْلَ أُحُدٍ وَبَعْدَهَا، فَأَخْفَوْا النِّفَاقَ وَكَتَمُوهُ؛ فَلِهَذَا لَمْ يَقْتُلْهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

فالسنن الكونية ومنها الاجتماعية لها مسارها الذي به يحفظ الله الكون ومن عليه، وفهم هذه السنن وفقهها من ضروريات فقه المرحلة، والدرس السنني التاريخي عبرة نابضة بالجسد الحي، ففهم التاريخ بأبعاده السننية هو أحد الوسائل المغفول عنها في طريق النهضة وسلم الصعود الحضاري؛ ولذا نجد أن منهج الآيات المتحدثة عن هذه السنن كان منهجاً إجمالياً، مبتعداً عن التفاصيل، يأتي في غالب الأحوال تعقيباً على الأحداث وأحياناً توطئةً لها، وسنقف مع القضايا التي تعنينا في هذا الباب وهي؛ سنن المدافعة والصراع بين الخير والشر، والتغيير بين ذهنية الاستحالة وذهنية السهولة، ومشروعية التغيير، وأسباب التغيير ودواعيه، والتغيير إنتاج نخبة وإنجاز أمة، وسأبدأ بسنن المدافعة والصراع بين الخير والشر؛ توطئةً بين يدي الموضوع.

---

(١) مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، ج١٣، ص١٩-٢٠.

المبحث الأول
سنن المدافعة والصراع بين الخير والشر

قانون التدافع بين البشرية قانون فطري اجتماعي، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥١)، ويقول: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ[1] ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٤٠)، فالتدافع بين أهل الحق وأهل الباطل مستمر لحفظ الحياة متوازنةً على قانون الابتلاء والامتحان، ولولا هذا الدفع لفسدت الأرض واندثر الدين والحق والعدل والخير، ولو افترضنا العكس بأن كان لأهل الحق الصولة والجولة على الدوام؛ لفُوِّت المقصود من العبادة والابتلاء، فالقانون الشرعي يحفظ القانون الاجتماعي الكوني بهذا التدافع[2]، فلولا هذا الدفع لاستمر الفساد بحيث يتحقق الإفساد ويعم،

---

(١) «وقد سمى هذا دفعاً على قراءة الجمهور باعتبار أنه منه سبحانه، إذ كان سنة من سننه في الاجتماع البشري، وسماه دفاعاً في قراءة نافع باعتبار أن كلاً من أهل الحق المصلحين، وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله»، يُنظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٢، ص٣٩٠.

(٢) يكون التدافع بصورتين اثنتين؛ بالشكل المعهود، وبالشكل التنافسي، بمعنى أن التنافس بين القوى يمنع سيطرة أمة على بقية الأمم، فيبقى الجميع يعمل بحذر وتخوف من الآخر، ولولا هذا الدفع التنافسي لفسدت الأرض بانفراد أمة وإفسادها للبقية، ولا ينحصر قانون التدافع في صورة الصراع فقط بين الأمم، أحببت أن أشير إلى هذه القضية لأن كثيراً من الناس ينصرف ذهنه إذا ذكر الدفع إلى الصراع فحسب، وقد أفدت هذه الجزئية من الدكتور جاسم سلطان حفظه الله في كتابه الماتع «قوانين النهضة»، يُنظر: قوانين النهضة: **القواعد الاستراتيجية في الصراع والتدافع الحضاري**، جاسم محمد سلطان، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، المنصورة – مصر، ط١، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، ص١٧٧-١٧٨.

ونلاحظ في هذه الآيات ملاحظات حضارية؛ فمن ذلك أن الله سبحانه وتعالى ينقذ البشرية بعد سيطرة المفسدين بغيرهم، فالآيات أتت بأسلوب «لولا» وهو يفيد أن الأمر وقع كالمتحقق، والمانع من تحققه جاء كالأمر المتدارك، فالدفع جاء في الأنفاس الأخيرة، وقد نظم ابن النحوي في مطلع «منفرجته»:

اشْتَدِّي أزْمَةُ تَنْفَرِجي قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ[1]

فالدفع يمثل حالة الإنقاذ الإلهي للمستضعفين في الأرض، ويُنذر بالقضاء على المستكبرين المتغطرسين، وهو قانون أراد الله سبحانه له الدوام والبقاء، وقد تعاملت الأمة مع هذا القانون تعاملاً سلبياً يخلو من الفاعلية والعمل وحسن التعاطي مع أبعاده، ومارست ثقافة غريبة عن فكرها وقيمها، وهي «ثقافة الاسترخاء» في اللاشعور الباطني؛ فهي تسترخي لهذا القانون وتطمئن له وتهش به، فألقت ستور النوم والراحة والكسل، وقعدت عن المواجهة في أساسيات العمل المرحلي، وغفلت عن الرقابة الاحترازية المستقبلية التنبؤية، ونظرت للمسألة على أنها من الشر الذي لا بد من وقوعه، بل الأنكى من ذلك أنها عقدت مقارنة بين حالها اليوم وبين حالها في بعض المراحل المظلمة في التاريخ الإسلامي،

---

(١) **المنفرجة**، أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الأصل المعروف بابن النحوي، تحقيق: عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة – مصر، ص٤٣، وأصل ما ورد في صدر هذا البيت حديث موضوع رواه القضاعي في مسنده، يُنظر؛ **مسند الشهاب**، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م، ص٤٣٦، رقم الحديث: (٧٤٨)، والحديث وإن كان موضوعاً لكن معناه صحيح في الغالب، يُنظر الحكم عليه في: **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط١، ج٥، ص٤١٢، رقم الحديث: (٢٣٩١).

فاستنارت بواقعها المأزوم، ولم تقارن بين حالها وحال الأمم الأخرى اليوم، وما وصلته بقيَّةُ الأمم من تقدم وتطور على مستوى المدنية والحضارة، فكان قعودُها عن العمل ناشئاً عن «ثقافة الاسترخاء» للواقع الموجود، وتغذيه عقليةُ التحايل على نصوص الوحي بأدوات ووسائل غير مقبولة، وهذا التصور من أخلاط الأحلام وأوهام الأفهام، الذي شكل ثقافة التقاعس عن التأصيل العلمي من كثير ممن ينتسب للعلم وأهله، وهو بلا شك يغذي جانب الخمول والكسل لدى الجسد الإسلامي من جانبيه المثقلين بشحوم الترهل الفكري، وتخثر دماء الفاعلية والتفاعل.

وإذا قرأ القارئون بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤١-٤٦)، أصاب القومَ بردُ اليقين، وبدأ التوعد يأخذ مكانه اللائق به، وبدأت الخطب تتوعد أعداء الله نوازلَ العذاب، ومصائب

النكاد، وما علم أولئك المساكين أن الله سبحانه وتعالى قال في محكم تنزيله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ (محمد:٣٨).

والتولي هو ترك أسباب النهضة والريادة في هذه الحياة بالدعوة إلى دين الله تعالى، وترك ملهيات الحياة الدنيا، إذ قال قبل هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ (محمد:٣٦-٣٨)، فالقرآن جعل الحياة الدنيا لعباً ولهواً وسبباً في البخل عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، ومن ثَمَّ هي سبب في السقوط الديني، والاستبدال الحضاري، وهذا ما لا يريد فهمه كثير من العاملين في حقول تخدير العوام وإماتتهم حتى حين، وهو أن النهضة الحضارية القادمة ليست بالضرورة أن تكون لهذه الأمة، وعلى يد هذه الأمة، فالله سبحانه وتعالى قد يبعث أمة أخرى من الأمم، تنقذ البشرية من الإفساد في الأرض.

وإذا أردنا أن ننظر في آيات التدافع نظرة علمية موضوعية فسنجد أنها تتكلم عن المآل التاريخي لسنة التدافع، وذلك أن النصر والتمكين سينتهي للمؤمنين، فليس من الضرورة أن تكون البداية صادرة عن المؤمنين، فقد يهيئ الله سبحانه وتعالى أمة من الأمم لتنهض وتدافع أمة الفساد، وبعد ذلك يدور الأمر للمؤمنين بفاعليتهم واستجابتهم حينئذ، بل إن الآيات لا تحصر الدفع بهذه الأمة ولا تنص على أن الدفع يجب أن يكون إسلامياً، فقد يكون دفعاً

من أمة أخرى تتصف بالعدالة والفاعلية، يتحقق على يدها المقصود من إيجاد التوازن والعدل.

والقول بأن العدل لا يتحقق إلا على يد الأمة الوسط كلام بحاجة إلى إعادة نظر، نعم العدل والحق لا يتحقق إلا بالأمة الوسط، فإذا خلت الأرض من الأمة الوسط الفاعلة العاملة التي تحمل لواء الحق والعدل، فإن الله سبحانه وتعالى يرسل أمة أخرى تحمل لواء العدل حتى تتأهل الأمة الوسط لتدخل ميدان الحياة الحضارية، فتحقق الحق والعدل بنور القرآن، وهي موازنة موجودة لا تخفى على متدبر في سنن الاجتماع؛ ولذلك على الدعاة أن يتأنوا قليلاً ويتمهلوا كثيراً قبل إطلاق وعود التغييرات الجديدة التي ستطرأ على البشرية؛ لأنهم لا يعلمون لمن ستكون الغلبة! ولا يعلمون متى سيتهيأ الأمر لهذه الأمة؟ ولا يعلمون متى سيأذن الله سبحانه وتعالى؟ ومتى سيتحقق وعده؟

المبحث الثاني

التغيير بين ذهنية الاستحالة وذهنية السهولة

لا يخفى على مطلع أن المسلمين اليوم يعيشون في الغالب الأعم على طرفي نقيض، تطرف النظرة وغلو المقصد، فالثنائيات المتطرفة متوافرة في إيجاد الجو والبيئة التي تصنع الذهنيات المتناقضة، وبذلك تنادي تلك الثنائيات على أبجديات التعصب الثقافي التي ملئت بها كتب التراث، وأصبحت ثقافة الاستحواذ على صوابية الرأي الذي لا يقبل النقد أو التشكيك هي المسيطرة على عقلية طلاب العلم الذين يريدون أن تكون بيدهم مقادير التغيير والإصلاح، فمنهجيات التعامل مع القضايا النسبية يحتاج إلى إعادة تشكيل، لبناء التوازن الفكري مع المخالف، ومن تلك المسائل المعيقة في مسيرة العمل النهضوي، ما يعيشه متطرفو النظرة وغلاة السلوك المندفع في التعامل مع منهج التغيير والإصلاح.

فيرى قوم أن الدعوة إلى الله تعالى وتغيير الواقع وإصلاحه يحتاج إلى نية صادقة وعمل سليم وعقيدة صحيحة، وبذلك يتغير الواقع إلى الأفضل، وتنهض الأمة بإيمانها وتوكلها، هكذا بكل بساطة ودون تعقيد!! وتصبح الحياة على منهج الله جميلة طيبة، ويصلح الحال، ويحدث التغيير بهذه النظرة السطحية، وبهذا النظر الضعيف، وأُصيب آخرون بحالة ذهان المستحيل، «فهم ينظرون إلى شراسة الأعداء ومخططاتهم وإمكاناتهم الظاهرة، ويهولون الأمر إلى درجة تصاب

معـها الأصـول النفسية الإيمـانيـة، والله تعـالى يقـول: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ (آل عمران: ١٣٩) لتصل نتيجة الحسابات التي يجريها إلى ما يسمى بحالة «ذهان المستحيل»؛ فيُصاب بالعطالة عن الفاعلية، والشلل عن الفعل، فيتوقف عن المتابعة في نشر الدعوة، ويفتقد قدراته الذاتية، فضلاً عن تطلعه إلى تطويرها وإنمائها»[1]، وصنف آخر ممن ينظر إلى استحالة التغيير ينطلق من يأسه من واقع الأمة الداخلي، فيُصاب بردة فعل بحيث يقطع الخير عن هذه الأمة، ويجزم ويحسم الأمر بأن هـذه الأمـة متردية هـالـكة بسبب ما تعـانيه من مشـاكل، وما ذلك إلا بسبب ضعف النظرة، وقلة الحيلة، وهشاشة العمل، فتنشأ ردات فعل مقهورة والتي على إثرها ينشأ خط عريض من التعجيز والتكبيل والتثبيط.

وهنا لا بد من وقفة – تبدو في ظاهرها بعيدة – مع قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج: ٥٢)، فهذه الآية التي حملها كثير من المفسرين على غير محملها داخلة فيما نحن فيه، فهي تعالج من وجهٍ ذهنية الاستحالة وذهنية السهولة، وقد استوقفتني الآية كثيراً فذهبت في كتب التفسير والحديث أشواطاً بعيدة فلم أقنع بشيء مما قالوه، وأنا أؤمن بأن الله سبحانه وتعالى أنزل هذه الآية ليفيد منها المؤمنون جميعاً، في جميع ظروفهم وأحوالهم وأزمانهم، والعبرة في تفعيلها في أحداث الدعوة والنهضة، والإفادة منها فيما يخص المرحلة التي نعيش.

---

(١) تأملات في الواقع الإسلامي، عمر عبيد حسنه، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، ص١٢٣.

فالآية تتحدث عن التمني[1] الذي هو عبارة عن «التمني المعروف، وهو تمنية إسـلام أمته وطاعتهم لله ولرسله»[2]، وتأويلها بالتمني الذي هو القراءة لا دليل عليه[3]، فالآية تتحدث عن تمني كل نبي ورسول بأن يهدي الله سبحانه قومه، فيلقي الشيطان في الأمنية صعوبة هداية الناس بل استحالتها، فينسخ الله ذلك الإلقاء ويحكم آياته التي تعد بالهداية والتمكين والنصر[4]، فإلقاء الشيطان إلقاء تثبيط وتكسيل وتعجيز لا إلقاء تحريف للنص القرآني وتغيير في مسامع المشركين، على حد قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى

---

(١) يقول ابن عاشور: «التمني: كلمة مشهورة، وحقيقتها: طلب الشيء العسير حصوله، والأمنية: الشيء المتمنى، وإنما يتمنى الرسل والأنبياء أن يكون قومهم كلهم صالحين مهتدين»، يُنظر، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج١٧، ص٢١٥.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ج٥، ص٢٨٤.

(٣) نسب بعض المفسرين إلى حسان بن ثابت في عثمان بن عفان، رضي الله عنهما، قوله:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ تَمَنِّي دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى مَهَلْ

وقد راجعت البيت فلم أجده ثابتاً لحسان، وقد نسبه بعضهم لكعب بن مالك رضي الله عنه، وإن ثبت فإنه ليس بحجة في تفسير الآية، فالأصل حمل الألفاظ على ظاهرها ما لم يرد دليل يمنع الظاهر، وكما هو معلوم لدى أهل الاختصاص أن اللفظ اللغوي يحتمل وجوهاً من المعاني، ويقدم منها المعنى الأشيع الأظهر بما يقتضيه السياق، فإذا تعذر حُمِل على معنىً آخرَ بدليل انفصالي أو اتصالي.

(٤) يقول القاسمي: «﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ (الحج:٥٢)، أي: رغب في انتشار دعوته، وسرعة علوّ شرعته، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: بما يصدّ عنها، ويصرف المدعوّين عن إجابتها، ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: يبطله ويمحقه، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أي: يثبتها، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد:١٧)، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم الإلقاءات الشيطانية وطريق نسخها من وجه وحيه، ﴿حَكِيمٌ﴾ يحكم آياته بحكمته»، يُنظر: محاسن التأويل، القاسمي، ج٧، ص٢٥٤.

ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأنعام:٣٥)، والذي يطرد ذلك كله نسخ الله لما يلقيه الشيطان في النفوس؛ وهذه الآية من الآيات الدالة على ضرورة الاستعانة بالمنهج الروحي التعبدي السلوكي لنهضة الأمة، إذ الاتكاء على المنهج الفكري والعلمي والاكتفاء به، مع إهمال التغذية الروحية المتواصلة لون من ألوان تضييع المنهج التكاملي في البناء الذاتي.

وهذه الآية لا تتوقف دلالتها على الأنبياء والمرسلين، بل تتعداهم إلى الورثة من علماء الأمة ودعاتها، فهؤلاء كذلك يتعرضون لأشكال التثبيط والتعجيز من واقع الأمة في عسر نهضتها، وصعوبة أوبتها، وهي كذلك توحي لنا من خيط رقيق بأن الجادين هم من يتعرضون لإلقاء الشيطان دون غيرهم من السطحيين الساذجين، فإلقاء الشيطان من أهم العوامل والأسباب المهيئة لذهنية الاستحالة، واللامبالاة وقلة الاكتراث وانعدام الجدية في العمل، يوجد البيئة المهيئة لذهنية السهولة، فيلجأ أولئك إلى إشاعة ثقافة «التثبيط والتعجيز»، فيكونون أعواناً للشيطان من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ (الأنعام:١١٢-١١٣).

وبين هاتين الفئتين يقتصد آخرون فيوازنون بين النظرتين، ويجتهدون ضمن الممكن المتاح، فلا يبالغون في التهويل من ثقل العبء، ولا يُهوِّنون من حجم المسؤولية، فيبتعدون عن النظرة السطحية التي تتسم بضعف الإدراك وانعدام

المسؤولية واللامبالاة، ويتجنبون تلك النظرات اليائسة والأفكار اللاواقعية والعقول اللاواعية، ولعل من أسباب ظهور هذه الذهنيات في الواقع هو التراكميات الفكرية والثقافية والتربوية، والواقع الذي يعيشه الغالب الأعم من الأمة، فالظروف الاجتماعية والأسرية والاقتصادية والإعلامية والسياسية والمعيشية تؤثر بشكل مباشر في صناعة الشخصية المعاصرة، بل تشوه الشخصية السوية إذا ما استجابت للظروف المحيطة.

وهناك ثنائيات أخرى من الذهنيات المتطرفة التي لا تقتصد في النظرة، ولا توظف المعطيات بالشكل السليم، فذهنية النصر القريب وذهنية النصر البعيد ليستا عنا ببعيد، فيرى قوم قرب النصر وأنه قاب قوسين أو أدنى، ولا عيب في هذه النظرة بل هي من الشريعة مستمدة، فالمؤمن يثق بقدرة الله تعالى وأن النصر آتٍ في وقته، لكن هناك فرق بين أن تكون النظرة ناشئةً عن فهم وواقعية واتزان ووعي بالمعطيات، وحكمة فيما يُقال وفيما لا يُقال، وبين أن تكون على منهج: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (النساء:٨٣)؛ ولذا ينبغي أن تكون هناك رقابة على الإعلام الدعوي في جميع مجالاته، وذلك لا يتحقق إلا بإيجاد هيئات تنسيقية بين الأطراف الدعوية؛ لتحقيق المرجعية الإعلامية في نشر ثقافة التوازن والاعتدال.

وقد عانت الأمة وما زالت تعاني من قلة التنسيق بين الأطراف الدعوية في مجال الإعلام الدعوي في جميع وسائله المقروءة والمسموعة والمرئية، فالحالة العامة الغالبة على الأمة هي حالة ضعف التركيز على الأهداف المحددة والواضحة، وغياب الرؤية العلمية الواعية بسبب الثنائيات المشتتة، مما أدى إلى الشعور بالملل والسأم من قضية التغيير الحضاري على مستوى الصعيد العام للأمة المسلمة، وهذا قاد بطبيعة الحال إلى وجود بدائل مصغرة عن المشروع الحضاري الإسلامي للأمة الوسط، وبدوره وجد قبولاً عند كثير من الناس بسبب ما لاقوه من ضعف الخطاب الدعوي وهشاشته، بالإضافة إلى قلة التركيز على المقاصد وضعف الخبرة، وهجوم شرس من أصحاب المشاريع الأخرى، التي وجدت جواً خصباً في زرع لقاحات خبيثة من خارج رحم الأمة، وهذه بالضرورة ستجد طريقها في العناية والرعاية، إلا إذا تدارك أصحاب المشاريع الحضارية أنفسهم لإجهاض الخطر الذي يهدد حاضر الأمة ومستقبلها.

المبحث الثالث
مشروعية التغيير

التغيير مشروع حضاري ومشروعية ثقافية، واستجابة لنداء الكون المتجدد، وحاجة بشرية ملحة، تطلبها النفس على الدوام، ونصوص الكتاب والسنة تصرح بضرورة التغيير والإصلاح، وذلك من خلال النظر في النصوص الدستورية المشرِّعة لمطلب التغيير الحضاري والاجتماعي والمدني، وإن كان المنهج السائد في النظر في النصوص الشرعية مقتصراً في الغالب الأعم على النصوص التي اكتست بلفظ التغيير كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ ﴾ (الرعد: ١١)، وكقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[1].

على أن هناك نصوصاً شرعيةً قدمت تصوراً عاماً شاملاً لمنهج التغيير، ورسمت خطوات مستقيمة، وأرست قواعد كلية، وأبرزت طبيعة الصراع بين المُغيِّر والمغيَّر، بل هناك نصوص كثيرة تحدثت عن منهجية التغيير من منظور عملي مرَّ به

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم الحديث: (٧٨)، ج١، ص٦٩.
هذا وقد سبقت معالجة مصطلح التغيير في الفكر المعاصر، والفرق بينه وبين التغيير في القرآن، في بيان مفهوم التغيير، وأنه إذا أطلقنا التغيير في بحثنا هذا فإننا نريد منه الإصلاح أي التغيير النسبي لا الجذري.

دعاة التغيير سابقاً كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل:٣٦)، فالآية بينت مقصود التغيير، وموقف المدعوين منه، ونتائجه، فعبادة الله واجتناب الطاغوت مقصود التغيير، وهداية قوم وضلال آخرين موقف المدعوين منه، ونزول العقوبة بالمكذبين نتائجه، وهكذا جميع الآيات المتحدثة عن الأقوام السابقين، تدور حول هذه الأركان الثلاثة، المقصد، والموقف، والنتيجة.

فالتغيير مطلب عقدي وضرورة حضارية، وتصور إسلامي شامل، ونصوص الوحي تغذي مشروع التغيير ضمن متطلبات المرحلة التي تمر بها الأمة من تحديات وعقبات ومواجهات، سواء على المستوى الفكري أم الثقافي أم الاجتماعي أم الاقتصادي أم العلمي أم التربوي؛ فالتغيير (الإصلاح) يدور مع المصلحة الحضارية وجوداً وعدماً، وهو في أبسط مفاهيمه انتقال من المفسدة إلى المصلحة، ومن المنكر إلى المعروف، المستمد من قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة:١٠٥).

وقد أتت مجموعة من النصوص الشرعية آمرةً بضرورة تغيير المنكر، وجعلت ذلك من أمارات الأمة الناهضة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٤)، وقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠)، ثم بين سبحانه وتعالى أن أهل الكتاب ليسوا سواءً، وجعل أحد أسباب سر التمايز فيما بينهم استمرارَهم على نهج التغيير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (آل عمران:١١٣-١١٤)، وقد وصف سبحانه وتعالى المؤمنين الممكَّنين في الأرض بأنهم آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١)، وقد اتصف المؤمنون في هذه النصوص بمجموعة من الأوصاف منها: الفلاح والخيرية والصلاح والتمكين في الأرض، وهذه الأوصاف هي أوصاف الأمة الوسط، أمة العدل والاتزان والاستقامة.

وقد عززت السنة منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فجعلته الخيار المنجي من عقاب الله تعالى، فإما أمر بمعروف ونهي عن منكر، وإما عقاب من الله، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الإمام الترمذي في جامعه من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ**

فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[1]، فالحديث يستقبل الزمن بأحداثه وخياراته، لتتخذ الأمة الوسط منهجها المنجي من عذاب الله تعالى، بضرورة العمل على تغيير المنكر كي يرتفع عنها عقابه، وقد شرع النبي صلى الله عليه وسلم تغيير المنكر داخل المجتمع المسلم فقال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[2]، وهذا الحديث من النصوص التي يكثر على الألسن الاستدلال بها، وهو يبين الاستطاعة بألفاظ مجملة يفسرها فقه الواقع والمرحلة التي يتشكل فيها المنكر، بما يدرأ المفسدة عن عموم الأمة، وليس العمل بالحديث على إطلاقه، بمعنى أن إعمال دلالات الحديث الظاهرة مما يَشْكُل تطبيقه في الواقع، ومما يجر الأمة في هذا العصر - الذي يغيب فيه سلطان المسلمين الشرعي، الذي يقوم بوظيفته بتتبع المنكرات في الأقوال والأفعال - إلى ساحة الصراع الداخلي، الذي ينقلب فتنةً لا تُعصم فيها الدماء ولا الأرواح ولا الأعراض، ومن ثَمَّ تقع المفاسد وتضيع المصالح الكبرى لتطبيق ما يظهر من الحديث عند فئام من الناس.

ويتفق مع هذا الحديث - في الظاهر - حديثٌ آخر رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ

---

(١) سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم الحديث: (٢١٦٩)، ج٤، ص٤٦٨.

(٢) سبق تخريجه.

خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[1]، فهذان الحديثان يشرعان للتغيير بجميع أشكاله ودرجاته، لكنهما يحتاجان إلى زيادة بيان يأتي الحديث عنهما في مبحث قادم، إن شاء الله تعالى.

وفي هذا السياق نجد كلمة لإمام أهل السنة أحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى، يصرح فيها بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنها من صفات المؤمنين المتميزين بها عن غيرهم فيقول: «فَثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وُجُوبُ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فرق مَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، لأَنَّهُ قَالَ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ (التوبة:٦٧)، وَقَالَ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (التوبة: ٧١) فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ أَخَصَّ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَقْوَاهَا دِلالَةً عَلَى صِحَّةِ عَقِيدَتِهِمْ وَسَلامَةِ سَرِيرَتِهِمْ هُوَ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»[2].

ثم بيّن رحمه الله تعالى أن ذلك لا يكون فوضى من غير تنظيم أو مرجعية، وإنما يكون في عنق إمام المسلمين الصالح في نفسه المصلح لغيره، حيث قال:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم الحديث: (٨٠)، ج١، ص٦٩.

(٢) شعب الإيمان، البيهقي، ج٦، ص٨٤.

«ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ يَلِيقُ بِكُلِّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْفُرُوضِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ بِهَا سُلْطَانُ الْمُسْلِمِينَ إِذَا كَانَتْ إِقَامَةُ الْحُدُودِ إِلَيْهِ، وَالتَّعْزِيزُ مَوْكُولا إِلَى رَأْيِهِ، فَيَنْصِبُ فِي كُلِّ بَلَدٍ، وَفِي كُلِّ قَرْيَةٍ رَجُلا صَالِحًا قَوِيًّا عَالِمًا أَمِينًا، وَيَأْمُرُهُ بِمُرَاعَاةِ الأَحْوَالِ الَّتِي تَجْرِي، فَلا يَرَى وَلا يَسْمَعُ مُنْكَرًا إِلا غَيَّرَهُ، وَلا يُبْقِي مَعْرُوفًا مُحْتَاجًا إِلَى الأَمْرِ بِهِ إِلا أَمَرَهُ، وَكُلَّمَا وَجَبَ عَلَى فَاسِقٍ حَدًّا أَقَامَهُ وَلَمْ يُعَطِّلْهُ، فَالَّذِي شَرَعَهُ أَعْلَمُ بِطَرِيقِ سِيَاسَتِهِمْ.

... وَكُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ بَيْنَ فَضْلِ الْعِلْمِ، وَصَلاحِ الْعَمَلِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى الْمَعْرُوفِ وَيَزْجُرَ عَنِ الْمُنْكَرِ بِمِقْدَارِ طَاقَتِهِ، فَإِنْ كَانَ تَعْلِيقُ إِبْطَالِ الْمُنْكَرِ وَرَفْعه وَرَدْع الْمُتَعَاطِي لَهُ عَنْ فِعْلِهِ، وَإِنْ كَانَ لا يُطِيقُ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَيُطِيقُهُ بِمَنْ يَسْتَغْنِي عَنْ فِعْلِهِ، إِلا مَا كَانَ طَرِيقُهُ طَرِيقَ الْحُدُودِ وَالْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَى السُّلْطَانِ دُونَ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ لا يُطِيقُ إِلا الْقَوْلَ قَالَ، وَإِنْ لَمْ يُطِقْ إِلا الإِنْكَارَ بِالْقَلْبِ أَنْكَرَ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ فِي مِثْلِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ»[1].

فهذه الكلمات البسيطات في الظاهر العميقات في الباطن، الغزيرات في الفهم والعلم والتفصيل والتحقيق، تأتي مبينة المنهج السديد في التعاطي مع مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في زمن سلطان المسلمين المتابع لقضايا المعروف والمنكر؛ ولذا فنحن بحاجة إلى إعادة تنظير وتفصيل وبيان منهج التعاطي مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خصوصاً في زمن غياب التطبيق الشرعي، وشيوع الانفلات الفكري، والتعجل في الفتوى والأحكام، الذي تمازجت فيه

(١) شعب الإيمان، البيهقي، ج٦، ص٨٥.

الحقيقة الدعوية مع الحقيقة الحضارية، وارتسمت فيه خطوات العمل الجاد صوب النهوض الشامل.

ولذا وجب في هذا الزمن إعادة النظر في التعامل مع المعروف والمنكر باعتبار نسبية النظر إليهما من جهة الناظرين، حيث أصبح المنكر منسجماً مع المشاعر العامة لدى كثير من المسلمين، وأصبح المعروف غيرَ منسجم، ولا أقول إن المنكر أصبح معروفاً، والمعروف أصبح منكراً، فإن هذا لا يليق بالأمة المسلمة ألبتة، وقد شاع على ألسن كثير من الدعاة حديث منكر وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا طَغَتْ نِسَاؤُكُمْ، وَفَسَقَ شُبَّانُكُمْ وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ**»؟.. قَالُوا : وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ**»؟ قَالُوا: وَكَائِنٌ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ يَكُونُ.. كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا، وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا**»؟ قَالُوا: وَكَائِنٌ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ**»، قَالَ: «**كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ**»؟ قَالُوا: وَكَائِنٌ ذَلِكَ؟، قَالَ: «**وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: بِي حَلَفْتُ لأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً يَصِيرُ الْحَلِيمُ فِيهَا حَيْرَانَ**» ، فهذا الحديث منكر سنداً[(١)]، وهو منكر كذلك من حيث المعنى، فكيف يليق بالأمة الإسلامية أن تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف؟؟!! والله سبحانه وتعالى هو الذي أخبر عن هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس، وجعل سرَّ ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعجيب أن الذين يروون هذا الحديث هم أنفسهم الذين يروون الحديث الآخر

(١) يُنظر حكم أبي حاتم على الحديث بالنكارة، علل الحديث، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن مهران الرازي، تحقيق: الدكتور سعد بن عبد الله الحميد، رقم الحديث: (٢٧٥٩) ج٦، ص٥٦٢.

الذي أخرجه الطبراني في المعجم الكبير من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَنْ تَجْتَمِعَ أُمَّتِي عَلَى الضَّلالَةِ أَبَدًا، فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ**»[1]، ولعل هذا من قلة التوفيق في توحيد النظرة لهذه الأمة، وهو كذلك من الثنائيات التي تصاب بها الأمم المضطربة، فمنهم من يحكم على الأمة بالخير العام، ومنهم من يحكم على الأمة بالشر العام، وهو من ضعف التحقيق والتوفيق، وطغيان حقد الذات على الآخرين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولكن الذي هو كائن أن الناس تهاونوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتهاووا في أسباب الضياع والضعف والهوان، وهذا التهاون منبعه انعدام التوازن في بيان الموقف الشرعي من العصاة والفاسدين بل المعادين؛ لقلة الالتزام بالمنهج القرآني ضمن التوجيهات النبوية في التعامل مع المخالف أو المعادي، فإن الذي يلزم تفعيل دور الحكمة والاتزان في بيان موازنة القرآن بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والعقوبة والمغفرة، ببيان السنة الشافي المعافي لكثير من الأمراض التي تواجه الدعاة اليوم، وليس تثوير جانب على جانب، وطغيان منهج على منهج، بل الاتزان ضمن المصلحة الشرعية التي يحددها العلماء المخلصون، الذين جمعوا إلى التقوى رويَّة النظر، ودقة العلم بالمآلات، دون تضييع للحقوق الشرعية أو الثوابت الدينية.

---

(١) المعجم الكبير، الطبراني، رقم الحديث: (١٣٦٢٣) ج١٢، ص٤٤٧، وقد حكم عليه بالضعف الإمام النووي، رحمه الله تعالى، في منهاجه، يُنظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٢، ١٣٩٢هـ، ج١٣، ص٦٧.

والناظر في فلسفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الزاوية القرآنية، يجد أنها قامت على تقديم الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر، على أن الرعاية الأولية عند العلماء هي بالتخلية قبل التحلية، أي بالنهي عن المنكر ثم الأمر بالمعروف، والذي يظهر لي – والله أعلم بما ينزل – أن القرآن نظر إلى المجتمع المسلم باعتباره الجمعي لا باعتباره الفردي، بمعنى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعلق بالمجتمع ككل، فالأمر بالمعروف هو المقدم من هذه الناحية؛ وذلك أن فيه إقامةً للشعائر والشرائع، والنهي عن المنكر يأتي تباعاً للأمر بالمعروف، فالأمر بالمعروف يمثل حالة الفعالية لهذه الأمة في الريادة وفي إنبات الخير، كما أن النهي عن المنكر يمثل حالة الاحتراز عن الوقوع في الابتداع والانحراف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة:٧٨-٧٩)، فمعصية الذين كفروا من بني إسرائيل تمثل الحالة الأولى من الانحراف، ومن ثَمَّ تتبعها حالة الاعتداء على حقوق الآخرين، وسبب ذلك غياب السياج الحافظ الذي يمثل التغذية الراجعة – على حد تعبير علماء الإدارة –، في عدم تناهيهم عن المنكر الذي يمثل حالة الاحتراز عن الوقوع في المعاصي أو الاستمرار فيها وإدمان نكهتها القذرة.

ولذلك فإن تضييع التناهي عن المنكر من أسباب نزول العذاب والعقاب، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،**

وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[1]، وهي حالة تمر بها الأمة اليوم، وليس المقصود من العقاب في الحديث العقاب الناسخ أو الماحي لوجود الأمة، بل هو عقاب الضياع والتضييع والتأخر والتخلف والتراجع، وهو عقاب أيُّ عقاب لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم أداة رفع العقاب عن المعاقَب إرادته الرفع، وتمثلت تلك الإرادة في العودة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي بداية طريق التغيير المشروع، ومن شأن الشرع الحكيم أن يدلنا على أسباب السقوط والانتكاس، كما أنه يدلنا على أسباب الرفعة والمجد.

---

(١) سبق تخريجه.

المبحث الرابع
أسباب التغيير ودواعيه

شاع على ألسن الكثير أن الواقع الراهن الذي تعيشه الأمة يحتاج إلى تغيير، وشاع على ألسن آخرين أبعد نظراً أن البشرية اليوم تعيش في عالم من الظلام والظلمات؛ ولذا فقد وجبت المطالبة بالتغيير الحضاري للبشرية جمعاء، وذهب قوم إلى أن التغيير مطلب عقدي إيماني، وهو من مقتضيات العقيدة الصحيحة والإيمان المقبول، وذهب قوم آخرون إلى القول بأن التغيير مطلب سياسي فكري، وهو من مقتضيات إصلاح الحكام والمحكومين، وذهب غيرهم إلى القول بأن التغيير مطلب أخلاقي سلوكي، وهو من مقتضيات إصلاح أحوال الأمة، وهكذا نظر كلٌّ اتجاه إلى جزئية من كلية، وإلى جزء من كل في أهداف التغيير، وغاب عن بعضهم أسباب التغيير وعلله، على أن فقه أسباب التغيير ومعرفة الدواعي الحقيقية وراءه هي بداية الطريق الصحيح للتغيير، وهي الطريق الموصل إلى المطلوب الحضاري للأمة الوسط، وهي سبيل الإقناع لضرورة التغيير.

من هنا كان لهذا الموضوع أهمية عظيمة وأولوية كبيرة؛ لأنه يُلقي بظلاله على تشخيص الواقع الراهن في محاولة جادة للإصلاح والتغيير، ونستطيع أن نحدد أسباب التغيير ودواعيه في ثلاثة محاور؛

المحور الأول: الفراغ الحضاري للبشرية، وهو محور تفرضه طبيعة المرحلة الخارجية.

المحور الثاني: التجديد الديني، وهو محور تفرضه طبيعة المسيرة الداخلية العامة للأمة.

المحور الثالث: الواقع المتردي، وهو محور تفرضه طبيعة المرحلة الخاصة التي تعيشها الأمة اليوم، وسأتكلم عن كل محور منها باختصار فيما يأتي:

أولاً: الفراغ الحضاري:

يمر التاريخ البشري بمجموعة من الأطوار الزمانية والمكانية، يتخللها ميلاد حضارات صاعدة وسقوط أخرى، فسنة التدافع التي فطر الله الناس عليها، والفطرة البشرية التي تصبو تلقاء الخلود والبقاء، وطبيعة المغالبة بين البشر للتفوق والارتقاء، كل ذلك يعود بدوره على خلق المتغيرات التاريخية التي تصب في مصلحة إيجاد الشاغر الحضاري للأمة التي تهدف إلى تقديم خدمة حضارية للبشرية، بعد أن تمتلك مؤهلات الريادة الفكرية والأخلاقية، ومن خلال التداخل والتشابك بين الأمم اليوم فيما يسمى بالعولمة وما بعد العولمة - في إيجاد الحضارة المتحدة عالمياً لمصلحة القوة التي تريد لنفسها البقاء والخلود -، نجد حالة من الملل والضجر لدى أمم الأرض؛ بسبب ما تُمليه الأقلية الحاكمة على الأمم الأخرى باسم الشراكة الأممية، وفي الوقت نفسه نجد أن هناك بحثاً عن خيار التغيير لدى المجموع الكلي للبشرية من الدور الحضاري الممل الذي تمارسه - بنوع من الانفراد الذاتوي - القوى المديرةُ لخيوط لعبة الأمم؛ ولذلك فإن الانكشاف عن جذور حضارة

جديدة بات قريباً، والمعوَّل في ذلك على الأمة التي تكاملت مؤهلاتها في القدرة على الريادة الحضارية لتتسلم زمام الأمور ومقاليدَها[1].

والفراغ الحضاري يُعد سبباً خارجياً تصنعه طبيعة الصراعات الحضارية بين الأمم البشرية، ودور الأمة الوسط أن تحسن التعاطي مع هذا الفراغ بما يحقق لها سبق المغالبة، وهو أمر بات وشيك المنال في ظل الظروف الصعبة التي تمر بها الأمم عموماً، من انتشار الفساد الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وهو ما ينذر باقتراب وصول البشرية إلى مرحلة العجز الحضاري عن رعاية نفسها ضمن السياج الآمن للاستمرار والبقاء.

والبشرية اليوم تعيش حالة من الاسترخاء إلى النفس غروراً وانبهاراً، وحالة من الغفلة إعراضاً واستكباراً، وهو المؤذن بزوال أمم ومجيء أخرى، كما قال سبحانه وتعالى متحدثاً عن الغرور الذي أصاب أهل الكتاب قبيل الميلاد الحضاري الإسلامي الذي آذن بزوال حضارات الأرض في ذلك الوقت: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (المائدة:١٨).

---

(١) الرغبة مُلحة لدى الأمة الإسلامية اليوم أن يكون الشاغر الحضاري القادم لها، لكن هذا الأمر ليس بالأماني أو انتظار معجزة تاريخية تحدث لنوال هذه المهمة، فإن كثيراً من المفكرين الإسلاميين يرى – وهذه الرؤية حبيبة إلى قلوبنا وعواطفنا – أن الحضارة القادمة هي الحضارة الإسلامية، ويبني هذه الرؤية على عاطفة جامحة، وفهم غير صحيح للسنن الاجتماعية التي مرت بها البشرية، ومن ثم يخلطون بين الدين الحق وبين أحقية الريادة الحضارية، فكون الإسلام هو الدين الحق، لا يعني أن المسلمين هم أصحاب الريادة الحضارية في المستقبل القريب، وإنما الذي يعنيه أن هذا الدين سيكون قائداً للبشرية في وقت إصرار المسلمين ومساهمتهم في صناعة قرار التغيير، وحسن إدارته بما يمنحهم الأهلية في ذلك، ضمن سلامة المنهج، وفهم وسائل النهوض وأدواته، ضمن معطيات الوحي.

فحال التفوق الحضاري اليوم لبعض الأمم يشابه ما قاله اليهود والنصارى في ذلك الوقت، وهو أنهم أبناء الله وأحباؤه! وهو يعبر عن الغرور والخذلان في آن[1]، وهو الذي آذن بميلاد حضارة الإسلام التي عبر عنها القرآن في الآية التالية لهذه الآية مباشرة وهو قول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة:١٩)، وهو يترجم حال الحضارة الإسلامية بأنها حضارة الدعوة والهداية، لا حضارة الغطرسة والغواية، وأنها جاءت في وقت الفراغ الحضاري الذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: في وقتٍ انقطع فيه عمل الرسل من الدعوة والعمل والحكم؛ كما أخبر عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه أنه قال: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ**»[2]، فوقت الانقطاع والفتور هو الوقت الذي أصبح العالم فيه مستعداً لميلاد حضارة جديدة، تُكْمِلُ مسيرةَ الخير في بناء القيم والعدل والحق، يقول صاحب المنار:

«فأنت ترى أن هذه الآيات تبين سنته تعالى في البشر، وأن الجزاء إنما يكون على الأعمال، لا على الأسماء والألقاب، وهذا هو الذي يصدقه الوجود، وتشهد

---

(١) ويشبه ذلك ما نسمعه من بعض السذج والسطحيين عندما يُرزق بمال فيقول: هذا من توفيق الله تعالى، أو هذا بسبب رضا الوالدين، وكأن من لم يرزق المال لم يوفق للخير، أو أنه عاق لوالديه، وهذه المفاهيم المنتشرة بين الناس – والتي تحتاج إلى تصويب من قبل العلماء والدعاة – لتعكس تصوراً خاطئاً، ومفهوماً غير سوي لقانون الأسباب والمسببات.

(٢) صحيح البخاري، البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم الحديث: (٣٢٦٨) ج٣، ص١٢٧٣.

به تواريخ جميع الأقوال والأجيال، غاية الأمر أن شأن أهل الإيمان الصحيح، والدين القيم، أن يكونوا أعرف بسنن الله تعالى في خلقه؛ فتكون ذنوبهم التي يعاقبون بها موعظة يتعظون بها، وتمحيصاً يكمل نفوسهم بالعبر، ويعلي شأنها، وأن يكونوا من المتقين لكل ما جعله الله سبباً للخيبة والخسران؛ كالظلم والبغي والعدوان، والتنازع والتفرق، والغرور وعدم النظام، وبهذا يكونون من أحباء الله تعالى، ويكون ما حل بهم من قبيل تربية الوالد لولده، ولا يحسن أن يسمى تعذيباً؛ لأن مرارة الدواء الذي يشفيك من السقم، ليس كالسوط الذي لا يصيبك منه إلا الألم، ولكن المسلمين لم يعتصموا بهذا البيان؛ فيتقوا غرور أهل الكتاب، بل اتبعوا سنتهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، إلى أن آل الأمر إلى ضد ما كان، فترك جماهير أهل الكتاب ذلك الغرور بدينهم، واهتدوا بسنن الله في الأمم والدول التي كانت قبلهم، فساروا عليها في سياسة ملكهم»[1].

أقول: إن ما قاله صاحب المنار صحيح وقت تدوين تفسيره، لكن الأمر اليوم قد اختلف، فنجد أن تلك الأمم قد عادت سيرتها الأولى، وأن الأمة الوسط ستعود سيرتها الأولى – إن شاء الله تعالى – بترك التقليد لتلك الأمم، وباتباع مسيرتها الأولى، فنحن نعيش مرحلة ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وهو تعبير قرآني غاية في الدقة والبيان، ينبئ عن أمرين اثنين، أما الأمر الأول فهو حالة الركود والهدوء والسبات الذي يسبق الانطلاقة الحضارية الكبرى، وأما الأمر الثاني فهو حالة الإضاءة الحضارية الإسلامية التي عبر عنها الحق في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٦، ص٢٦٣.

حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة:١٧)، ونحن نعيش اليوم مضامين مرحلة الفترة التي طال سكونُ رمادها، وتأخر عن تفعيل جذوة نارها العاملون الباحثون عن مكمن اختبائها.

وهذه الآية من الآيات المتوعدة الأمم الظالمة الخارجة عن المنهج الحضاري، وهي وإن كان سياقها خاصاً بأهل الكتاب، إلا أنها عامة في دلالتها القرآنية، فهي شاهد قرآني على حال البشرية اليوم، فلا تقتصر دلالتها على الكتابيين وإن كانت فيهم قد نزلت، فلا تتعطل الدلالة العامة للآية، بحملها على المعنى العقدي الإيماني في صراعنا الخاص مع أهل الكتاب، مع الغفلة عن المعنى السنني الحضاري في صراعنا الحضاري الكبير مع أمم الضلالة والغواية، فهي عامة في جميع الأمم، بعموم الدلالة المستقاة من مفهوم ألفاظها، لا بخصوص الدلالة المطابقة لمنطوق ألفاظها.

وقد جاء بعد هذه الآية ما يوضح القمة الحضارية التي وصلها بنو إسرائيل بفضل الله تعالى عليهم حينما اتبعوا أوامره، ونفذوا أحكامه وشرائعه، فقال سبحانه وتعالى ممتناً على بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة:٢٠)، وهذه النعمة تتكرر في الأمم المهتدية بمنهج الله تعالى؛ وتنقطع بانقطاع الأمم عن المنهج الصحيح والطريق السديد، بل إن الأمة تدخل مرحلة التيه إذا لم تستجب لأمر ربها ثقةً به وتوكلاً عليه، وهذا ما نفيده من صنيع بني إسرائيل في امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة حين أمرهم موسى عليه

الصلاة والسلام بذلك، فحُكِم عليهم بالتيه: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة:٢٦)، «فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التي بينها الله تعالى لنا، ونعلم أن إصلاح الأمم بعد فسادها بالظلم والاستبداد، إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزتها، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها، وقد كان يقوم بهذا في العصور السالفة الأنبياء، وإنما يقوم بها بعد ختم النبوة ورثة الأنبياء، الجامعون بين العلم بسنن الله في الاجتماع وبين البصيرة والصدق والإخلاص في حب الإصلاح وإيثاره على جميع الأهواء والشهوات، ومن يضلل الله فما له من هاد»[1].

وقد احتمل المفسر المغربي الأندلسي ابن عطية، رحمه الله تعالى معنىً آخر للتيه فقال: «ويحتمل أن يكون تيههم بافتراق الكلمة وقلة اجتماع الرأي، وإن الله تعالى رماهم بالاختلاف، وعلموا أنها قد حرمت عليهم أربعين سنة؛ فتفرقت منازلهم في ذلك الفحص، وأقاموا ينتقلون من موضع إلى موضع على غير نظام واجتماع، حتى كملت هذه المدة، وأذن الله بخروجهم، وهذا تيه ممكن محتمل على عرف البشر»[2]، ولا مانع من هذا الاحتمال، فهو من الدلالات الثانوية المستفادة من النظم الكريم، وليس هناك ما يمنع من تفسير التيه بالتيه المعنوي بشرط عدم قصر تفسير الآية عليه بل فيه وفي المادي، بل في ظني أنه المراد تعييناً

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٦، ص٢٧٩.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ج٢، ص٢٠٦.

لنا؛ لنعتبر من تيههم المادي الذي نشأ عنه التيه المعنوي، وإلا لما كان لهذا النص تفعيل وفائدة وعبرة في حياتنا المعاصرة، إلا أن يكون من قبيل السرد القصصي فحسب، وهو غير مراد في كتاب الله تعالى كما لا يخفى على الناهض في الفهم، المتهيب للحق.

فيجب على العاملين التعامل مع المرحلة التي نعيش على أنها مرحلة طبيعية من مراحل العمل الحضاري لهذه الأمة، ونشر ثقافة التدرج الحضاري في الوصول إلى سلم الريادة البشرية، فالمقصد الأساس من العمل هو أن يسير الراكب في سبيله الموصل، وأن يأخذ القطار مساره المرسوم بدقة وروية، وليس المقصد أن يتحقق النجاح في حياة العامل لتحقيق الأهداف والمقاصد، وإنما المقصد أن يتحقق العمل في مساره وفي طريقه بقطع النظر عن توقيت قطف الثمار، ومن هنا تفترق النظرة للتصور الحضاري عند المؤمن عنها عند السياسي، فالأول لا يعنيه معرفة التوقيت الفعلي لتحقيق الهدف؛ لأنه يعلم أنه سيتحقق ولو بعد حين، بخلاف الثاني الذي يعنيه التوقيت الفعلي لتحقيق الأهداف، ومحاولةُ الجمع بين نظرة السياسي المتعجل، ونظرة المؤمن المتروي غيرُ ممكنة.

فنحن نعيش مرحلة الفراغ الحضاري، الذي به يتحقق وعد الله سبحانه وتعالى من خلال إنفاذ سننه في هذا الكون، والأمة الوسط هي التي تملك خيار الفهم عن ربها من خلال التدقيق العميق في المطلوب منها في هذه المرحلة، من خلال الاجتهاد الروحي والسلوكي والأخلاقي، لترفع راية الشهود الحضاري على أمم الأرض، ولتنجو من الحساب الشديد في أداء الأمانة التي في عنقها.

ثانياً: التجديد الديني:

التجديد طبيعة أرادها الله سبحانه وتعالى مستمرة لهذا الدين، لعلمه المطلق بالمتغيرات التي تطرأ على البشرية، ومدى تفعيلها لنصوص الوحي، ونسبة ذلك التفعيل، فالتجديد في حقيقته صفة لفهم الدين لا لذات الدين، فنصوص الدين لا يطرأ عليها تجديد، وعليه فالمقصود بالتجديد(١) الديني تصفية نصوص الوحي من عوالقها المتراكمة، وتنخيلها من شوائبها الملتصقة، مما جاءها من الأفهام عبر الزمن، بحيث تعود إلى حالتها الأولى بنقائها وصفائها وبهائها، وهو مأخوذ من الخبر المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»**(٢).

فالتجديد حركة دينية مباركة، وحاجة اجتماعية ملحة، وصحوة حضارية، واستجابة لقدر الله تعالى، وقد جاء الحديث على صيغة الخبر، وحقيقته الإنشاء والأمر، فليس المقصود بالحديث الإخبارَ عما سيكون على رأس كل مائة سنة، بل المراد الأمر والتكليف بتحريك الهمم نحو التجديد، وهو شكل من أشكال التوجيه النبوي التربوي في تحفيز الهمم للظفر بهذا الشرف المروم.

فدلالة الحديث دلالة حضارية دينية اجتماعية فكرية، بتوجيه نبوي تربوي تحفيزي، فالحديث يُخبر بأن الله سبحانه وتعالى سيبعث على رأس كل مائة سنة من

---

(١) جاء في معنى التجديد في عون المعبود: «معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما»، وجاء في معنى يجدد: «يبين السنة من البدعة ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم»، يُنظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو الطيب محمد شمس الحق آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤١٥هـ، ج١١، ص٢٦٠.

(٢) سنن أبي داود، أبو داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم الحديث: (٤٢٩٣) ج٤، ص١٧٨.

يجدد لهذه الأمة أمر دينها، وهذا البعث شبيه البعثة، والعلماء ورثة الأنبياء، والمجددون أولياء العلماء، فهم منزلة بين منزلتين، ورتبة بين رتبتين، رتبة الأنبياء ومنزلة العلماء، وهذه الحظوة للمجددين يحرص على نوالها كلُّ مؤمن يبتغي من الله نوراً وفتحاً، ومن نفسه عملاً وخيراً.

وقد استوقفني هذا اللفظ النبوي الأخّاذ: «**مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»، فلفظ «**مَنْ**» لا يدل على شخص واحد، وإنما يدل على فرد أو أكثر، وجماعة أو أكثر، وقد تنبه لهذا الملحظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى حين قال: «لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة[1] وهو متجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد»[2].

وهذه من المسائل التي غفل عنها كثير من الناس، فأصبحت نظرتهم نظرةً فردية شخصية لا نظرة جماعية مؤسسية، وقامت على مفهوم التجديد الفردي الذي يقوم به الرجل الخارق للعادة[3]، وتغافلت عن التجديد الذي تقوم به المؤسسات والجماعات والعلماء، وفي ظني أن حمل الحديث على المعنى الفردي

---

(١) إشارة إلى ما احتمله الإمام النووي في شرح حديث: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين**»، فقال: «ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض»، يُنظر: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، النووي، ج١٣، ص٦٧.

(٢) **فتح الباري**، ابن حجر العسقلاني، ج١٣، ص٢٩٥.

(٣) من ذلك ما تناقله العلماء عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى – وما أظنه يصح عنه – في تعيين المجدد للمائة الأولى بأنه عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، وأن المجدد للمائة الثانية محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى، يُنظر: **طرح التثريب في شرح التقريب**، الحافظ العراقي، ج١، ص٩٦.

بعيد عن مراد الشرع، بل إن هذا لا يكون إلا لنبي أو رسول، وهو ما تكلمنا عنه سابقاً بأن التراث فيه تكريس للنظرة الفردية، وفيه إلغاء للبعد المؤسسي الجماعي، وحملُ الحديث على المفهوم الذي يعم خيرٌ من حمله على التعيين الذي يخص، فضلاً على أن تعيين الأشخاص يحتاج إلى خبر غيبي، وهو مما يتنازعه الناس في الغالب الأعم.

فالتجديد الديني هو إعادة الدين جديداً كما كان، ومن الآيات المعينة على التفريق بين الدين الهادي إلى سواء السبيل، وبين ما يفهمه العلماء من نصوص الدين ليهتدوا به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (غافر:٥٣-٥٤)، فالله سبحانه وتعالى قد آتى موسى الهدى من الكتاب؛ وأورث بني إسرائيل الكتاب ليستنبطوا منه الهدى، فاستنباطهم الهدى من كتاب الهدى ليس عين الهدى[1]، وكذلك الأمر بالنسبة لهذه الأمة، فاستنباطها أحكام الدين من نصوص الدين ليس هو عين الدين، فالدين هو عبارة عن نصوص الوحي الثابتة، وما يطرأ على هذه النصوص من فهوم مرتبطة بحركة الزمان والمكان هو الهدى الذي هو من قبيل المصلحة الشرعية المرتبطة بالزمان والمكان واختلاف الأحوال، وتبقى الفائدة والعبرة كامنة في طرق الاستدلال ومنهجيات التطبيق والتفعيل، ومنهج التجديد

(١) هناك فرق بين الإيتاء والميراث، فالإيتاء إيتاء الهدى ومادته وهي الوحي المعصوم، فيشمل الإيتاءُ الوحيَ وهدايةَ الوحي التي هي عبارة عن كلمات النبوة، أما الميراث فيكون لمادة الوحي المعصوم فقط، فالهداية المستنبطة من الوحي المعصوم الذي هو عبارة عن ميراث الأمة، هي فهوم العلماء المتجددة كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢).

الذي نحتاجه اليوم هو تجديد فهم النصوص المرتبطة بإقامة حضارة الشهود على الأمم، وذلك بتفعيل البرامج التربوية والروحية السلوكية والدعوية والحوارية المبنية على فهم دقيق لعلم المقاصد، ضمن مرحلة العصر بجميع معطياتها السياسية والفكرية والثقافية، في الوصول إلى بناء الجيل القادر على التجديد العملي، وتمهيد المجتمع للتغيير الحضاري.

ثالثاً: الواقع المتردي:

لعل تردي الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم، والأمل بواقع أفضل لهو من أكثر المحفزات على التغيير عند غالب العاملين، فبؤس الحياة، وتردي الواقع الاقتصادي، وضعف العلاقات الاجتماعية والأسرية، وتراجع منظومة القيم والأخلاق، وتناقض الفكر مع السلوك، دفع كثيراً من المفكرين والمثقفين والدعاة المصلحين إلى المناداة بالإصلاح والتغيير، وهو صوت الحاجة المؤقت، وتفكير الجائع البائس، وهو ما يعكس حالة الغفلة التي عاشها المسلمون قبل أن يصلوا إلى ما وصلوه، ولا أقصد بذلك العلماء والمفكرين الذين ألقوا بذار العمل لهذا الجيل قبل عقود من الزمن وما زالت بذارهم تنمو وتترعرع، وإنما أقصد بذلك العلماء الذين لم يكن لهم دور ريادي أو فكري أو قراءة اجتماعية حضارية مستقبلية لما ستصله الأمة في قابل أيامها، إذا استمرت على النهج الذي كانت عليه، فلم يأخذ أولئك على عاتقهم رفع صوت النذارة قبل دخول نار التخلف والتراجع، ولم يستلهموا صوت البشارة لتحفيز الهمم لدخول جنة التقدم والريادة، بل حرصوا على تكرير الأفهام واسترجاعها، وتثبيت أوتاد التراث والاتكاء عليها، مع غفلة ليست بالقليلة عن الدور الحقيقي الذي يجب أن يؤدوه، حتى وصل الأمر بهذه الأمة إلى ذروة حالها مما كان ينتظر إناه أعداؤها المتربصون.

والمشكلة الكبرى في هذا الدافع للتغيير - الواقع المتردي الذي تعيشه الأمة عند كثير من العاملين اليوم - كونه استجابة للاحتياجات المادية والاقتصادية في تحسين المعيشة وتحقيق الترف والرفاهية، ومتابعة النشاط اليومي في إشباع النفس من ملهيات الحياة المختلفة، وليس استجابة دينية أو ثقافية أو فكرية، وهو ما يجعل دوافع التغيير في الجملة غير منسجمة، ففرق بين من يعمل استجابة لأمر الله تعالى، وبين من يعمل استجابة لرغباته الذاتية أو احتياجاته اليومية، وهذا التداخل والتشابك لا يظهر على السطح الفكري في ساحة العاملين، لكن آثاره خطيرة جداً على المدى البعيد، فوجب أن ينتبه العاملون للتغيير، الذين يهدفون لبناء الأمة الوسط على قاعدة القيم والمبادئ، لهذا الملحظ الذي قد يودي بمشروع التغيير الحضاري الإسلامي.

فاختلاط الأفكار والمفاهيم والتصورات الواردة في مشروع التغيير، بحجة اتفاق الجميع على ضرورة تغيير الواقع المتردي، يؤدي إلى تهميش أصالة الحقيقة الإسلامية، وإضعاف قوة التأثير على الجماهير، وإرهاق العاملين الجادين بزينة الحياة الدنيا، مما يؤدي إلى الانحراف عن الطريق الصحيح، ومحو آثار خطوات التخطيط والتنظيم لمسيرة العمل الجاد، وإيجاد خطوات بديلة هي لخطوات الشيطان أقرب، والله سبحانه وتعالى يقول محذراً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٠٨-٢٠٩)، ويأمر عباده اليقظين باتباع صراط الله المستقيم، وينهاهم عن اتباع غير سبيله، ويجعل ذلك مفرقاً عن سبيل الحق والخير، وموصلاً إلى

الضلال في المقصد والهدف فيقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام:١٥٣).

ومن أسباب تردي المشروع الإسلامي اليوم الدعوة إلى اختلاط مشروع التغيير الإسلامي بغيره من مشاريع التغيير الوطنية والقومية والعلمانية بحجة الاتفاق في الأهداف والطموحات، وهو ما يفسر لنا سبب إخفاق كثير من الإسلاميين في تحقيق القناعة الحقيقية لدى جماهير الأمة بهم - مع ملاحظة أن موقف الأمة العاطفي لصالحهم -، وهو ما يفسر لنا كذلك أسباب وقوع النزاع بين بعض رواد التغيير الإسلامي، مما يجعلهم في مرمى سهام المتربصين بهم الدوائر، لإيقاعهم في مزالق شخصية، وانتكاسات فردية، ليتم تعميمها على وسائل الإعلام، بهدف تشويه مشروع التغيير الإسلامي، وهو ما ينعكس بدوره سلبياً على حالة العجز في الثقة لدى الأمة بالعاملين للمشروع الإسلامي.

ومن هنا فإن الاستجابة لتغيير الواقع المتردي يجب أن تكون استجابة حذرة للغاية، وأن تكون من تحصيل الحاصل لا أن تكون الهدف الأسمى والمقصد الأعلى، فالمقصد الأعلى للتغيير هو الشهادة على الأمم في تبليغ رسالة الإسلام للعالمين، وفي استجابة الأمة لأمر الله تعالى لها الضمني، حين قال مخاطباً نبيَّه صلوات ربي وسلامه عليه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧) بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٥-١٠٦)، ولقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:٢٨).

ولذلك فإنا لا نقرأ في نصوص الوحي وعداً بتحسين الأوضاع المعيشية، أو وعداً برفع مستوى الحياة الاقتصادية، وإنما نقرأ أمراً بالتبليغ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة:٦٧)، ونقرأ وظيفة الشهداء في الأرض في الإنذار: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:١٩)، ونقرأ في السنة: «...**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[(١)]، فمهمة أصحاب المشروع الحضاري عميقة عظيمة، لا تتوقف على تلبية مطالب معيشية أو اقتصادية، بل هي تعمل على تغيير المسار العام للبشرية؛ لتُعيدها إلى الطريق السديد، وتنتشلها من طموحها البهيمي، إلى الطموح الديني التعبدي، ولتكون هذه الدنيا بحق طريق الآخرة المنجي من عذاب الله الأليم.

ولا يعني ما ذكرناه أن الدنيا لا قيمة لها كما قد يسيء الفهمَ بعضُ من عششت في ثنايا فكره رِدةُ فعل غير سوية ضد اتجاه الزهد المذموم، الذي تولد في ظل ظروف خارجة عن الانضباط الفكري[(٢)]، فالدنيا هي الساحة العملية

---

(١) سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم الحديث: (٣٦٤٣)، ج٣، ص٣٥٤.

(٢) ظهر في القرن الثاني الهجري اتجاه زهد غير منضبط تأثراً باتجاهات الزهد المنتشرة في المذاهب الصوفية الهندية والشرقية، وردة فعل على بعض التصرفات الموجودة آنذاك من بعض الحكام والعلماء، فأدى إلى ظهور اتجاه علمي في الرد على هذا الاتجاه، تمثل ذلك في المؤلفات والكتب التي ألفها علماء الإسلام في ذلك الوقت؛ ككتاب الكسب لمحمد بن الحسن الشيباني وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام رحمهما الله تعالى، وغيرهما ممن ألف في هذا المجال رداً على اتجاه الزهد المذموم، الذي يحارب الدنيا دون قيود أو ضوابط شرعية.

التي بها يتسابق المتسابقون لعمارة الأرض وفق شرع الله تعالى، والدنيا هي طريق التفوق العلمي والتقدم العمراني والارتقاء الحضاري، وفهم الدنيا جزء لا ينفصل من التصور العام لهذا الدين، ولكن الدنيا يجب أن تبقى دنيا، وهي وسيلة لا غاية، وأداة لا مقصد، وممر لا مستقر، ودار مسابقة لا دار مقامرة، ودار مسارعة لا دار مغامرة، فمن فرط فيها فقد فرط في آخرته.

فالخروج من تيه الواقع الذي نعيش يجب أن يكون على ضوء فهم المقاصد الأصيلة لعملية التغيير وضمن قواعده الثابتة، ولا يصح أن يكون هدفاً ذاتياً مستقلاً؛ لأن التغيير حينئذ سيتحول عن صفته الحضارية الارتقائية، إلى صفة اقتصادية آنية، وسيكون وبالاً على أصحاب المشروع الحضاري في النزول إلى مراتب الدون، والقبول بفرصة الانتحار الديني والموت الحضاري، وهو ما رفضه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عرضت عليه الدنيا من قبل المشركين، فقال لعمه أبي طالب: **«يَا عَمِّ! وَاَللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ»**[(١)]، فتقديم التنازلات لأجل الظفر بشيء من الدنيا بحجج واهية، خارج عن منهج التغيير الصحيح، وساقط من الحساب الجاد والفهم السديد لخطة التغيير الحضاري، وهو بمنأى عن أصحاب الهمم العالية والإيمان الثابت.

---

(١) السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٤١١هـ، ج٢، ص١٠١.

المبحث الخامس
التغيير إنتاج نخبة وإنجاز أمة

القلة المؤمنة المؤثرة في المجتمعات البشرية عموماً والمجتمعات الإسلامية خصوصاً فئة قليلة العدد، لا يجتمع للأمة منها إلا الشيء اليسير، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «**تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً**»(١)، فالنخبة كالراحلة في الإبل قليلة نادرة؛ والمقصود بالراحلة هنا راحلة الخير لا راحلة الشر؛ لأن من شأن الإبل أن ترحل في شؤون الخير كما هو معهود في لغة العرب، فإذا وجدت راحلة الخير تبعها الناس وانقادوا إليها، وسلّموا لها زمام الأمور ومقاليدها، ولم ينازعوها في نقير ولا قطمير، بشرط أن يتوافر في هذه النخبة الزهد بما في أيدي الناس، وأن تكون عاملةً مضحية في سبيل ما يعم نفعه ولا يخص، وهذا شيء لم يتوافر في المجتمعات الناهضة من كبوتها إلا للقليل القليل، وقد أخبرنا صلوات ربي وسلامه عليه بمنطق السنن الإلهية الاجتماعية أن الله يؤيد أنبياءه بحواريين ينصرونهم ويعزرونهم، فعن عبد الله

---

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب قوله صلى الله عليه وسلم: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»، رقم الحديث: (٢٥٤٧)، ج٤، ص١٩٧٣، يقول الأزهري في بيان المقصود من الحديث: «الكامل في الخير، والزاهد في الدنيا، مع رغبته في الآخرة والعمل لها قليل، كما أن الراحلة النجيبة نادر في الإبل الكثير»، ويقول النووي في صفات الشبيه بالراحلة من الناس في الإبل: «المرضي الأحوال من الناس، الكامل الأوصاف، الحسن المنظر، القوي على الأحمال والأسفار»، يُنظر: تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، ج٥، ص٧، والمنهاج، النووي، ج١٦، ص١٠١.

ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»(١).

فالحواريون هم النخبة العاملة وهم القلة المؤمنة المؤثرة، وقد أمر الله سبحانه وتعالى النخبة المؤمنة من هذه الأمة أن تكون مقتدية بمنهج حواريي عيسى عليه السلام في نصرة دين الله تعالى فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ (الصف:١٤)، وقال: ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (آل عمران:٥٢-٥٣).

وهذا ما كان عليه أتباع جميع الأنبياء عليهم السلام، والمنهج القرآني واضحٌ بَيِّنٌ في إبراز عمل هذه النخبة من المؤمنين؛ ولذلك أمر بالتأسي بهم، كما قال

(١) صحيح مسلم، مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم الحديث: (٥٠)، ج١، ص٦٩.

سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الممتحنة:٤)، وبذلك يكون القرآن قد أرسى قواعد المنهج لهذه الفئة، في كونهم عاملين، وفي كونهم مؤثرين، وفي كونهم أصحاب القدوة والأسوة الشرعية: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٩)؛ لأنهم مختارون على وفق الأسس الشرعية والمواصفات الحضارية: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٥٥).

وهذه الفئة هي التي تحمل المصاعب التي تعترض طريق الدعوة والنهوض؛ ولذلك كانت مواصفاتها أعلى المواصفات؛ فصبروا على إيذاء أقوامهم، وتحملوا عظيم المشاق: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة:٢١٤)، فكانت النتيجة أن يُخرجوا من بلادهم وأوطانهم من قِبَل بني جلدتهم: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ (الأعراف:٨٨)، وهو ما حصل لموسى وقومه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن

قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٢٧-١٢٩).

والملاحظ أن القرآن أبرز عنصر المعية في هذا الجانب، أي معية هذه الفئة للرسل، والنتيجة إنجاء الله لهم وتنجيتهم من عذاب الله المحيط بأقوامهم، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (هود:٥٨)، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ (هود:٦٦)، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (هود:٩٤)، وهو تهديد ووعيد للمخالفين لهذه الفئة من هذه الأمة، إذ الأنبياء إنما ورثوا علماً يحمله العدول العاملون، ومخالفوهم مستحقون لعذاب الله إن هم خالفوا أمره، وخرجوا عن نهجه.

بل إن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يَلزم هذه الفئة الملتزمة بأمر الله، وفيه أن الاجتماع على الحق والخير طريق الفلاح، وأن الانفراد ومخالفة الأمة في هدايتها – ولو قلَّت في عددها – خروج عن المنهج المرضي،

ولو كان المخالف هو رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨)، ولذلك قرن سبحانه وتعالى بين الرسول وبين الذين آمنوا معه في هذا الباب فقال سبحانه: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التوبة:٨٨)، وجعل القرآن المشاقةَ للنبي باعتباره الوحي المنزل، والمخالفةَ للمؤمنين الممتثلين بأمر الوحي حكماً واحداً من حيث النتيجة؛ فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:١١٥).

ومشروع التغيير الحضاري الإسلامي المعاصر الذي يبدأ بتشكيل نواة الأمة الوسط التي هي عبارة عن النخبة المتعجلة إلى ربها ليرضى، هي تلك النخبة الممتثلة المنهج الرباني، التي تحمل في ذاتها الاستعداد الروحي والإيماني، ورفض الأجر المادي الدنيوي: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:٩٠)، مستحضرين موقف العبد الصالح حين قال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف:٧٧)، فكانت المفارقة والمتاركة: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ (الكهف:٧٨)، عاملين بانضباطٍ وفق التصور القرآني، داعين إلى كليات الدين بالحكمة والموعظة الحسنة، تاركين الدعوة للتفصيلات الفرعية لوقتها، مستبصرين يوم القيامة في جميع حركاتهم

وسكناتهم، لا تلهيهم الحياة الدنيا عن مقصود وجودهم وعلة إيجادهم: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ (النور:٣٧).

والله سبحانه وتعالى يختار من هذه الأمة النخبة العاملة لنهضتها الإيمانية والحضارية، وهذا الاختيار مبني على علمه سبحانه وتعالى، ضمن دائرة الأسباب والمسببات، ولم يكن الله ليطلع عباده المقربين المجتبين على أخبار الغيب، وإنما اصطفاء وانتقاء واختيار لعلمه بما يصلح عليه أمر الكون، ولاختبارهم في قانون الابتلاء العام؛ ولذلك فقد أخبر سبحانه وتعالى عباده هذا الأمر، وأفهمهم ما كان يجول في نفوسهم من عدم اطلاعهم على الغيب ليحققوا مصلحة الإسلام في الحاضر والمستقبل، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٧٩)، فالنخبة العاملة يجب أن تتحلى بالثقة المطلقة بالله تعالى، وأن تعتمد على نفسها ضمن القانون الاجتماعي في العمل النهضوي، إذ الاعتماد على خوارق العادات ليس طريق بناء الحضارات، ولو كان كذلك لما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يقول: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٨).

والإيمان بالله تعالى واتقاؤه حق التقوى من المعاني الغائبة عن كثير ممن يزعم أنه من النخب العاملة للأمة، ولعل إحياء الاتجاه الروحي وتجديده في النفوس من أولويات العمل الذاتي الذي يحتاج إلى رياضة روحية نفسية، بحيث تؤهل العاملين

للنهضة الشاملة؛ ولذلك فإن النهضة الإسلامية تختلف عن أي نهضة أخرى، فهي تمتاز بأرضية الاتجاه الروحي والإيماني، وهذه الأرضية هي التي من شأنها أن تُعلي شأن العاملين في سبيل دين الله، بحيث تكون الدنيا خادمة للآخرة، والمنهج القرآني المكي قد ركز على هذا الجانب منذ مطلع نزول الآيات على قلب المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه.

فالنخبويون ليسوا فئة متميزة عن فئات المجتمع الأخرى بصفات نموذجية كهدوء الطبع، واتزان الكلمة، وحسن المظهر، وانتقائية العلاقات، فهم ليسوا فئة طبقية مخملية ذات اهتمام ثقافي خاص؛ كما هو شائع في الطبقات الفكرية الغربية، إذ تمثل النخبة الفكرية عندهم تياراً صانعاً للحياة السياسية والفكرية والثقافية والأدبية، وهذا التصور للنخبويين مرفوض في التصور الإسلامي؛ لأن النخبوية تعني الاتجاه العامل في المجتمع الإسلامي في سبيل النهوض والارتقاء به، وهذا الاتجاه يمثل الرعاية الفكرية والثقافية والسلوكية والاجتماعية والإيمانية لبقية فئات المجتمع، ويصدق فيهم قول الحق سبحانه في توجيه نبيه في إحسان التعامل معهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٢).

فمشروع التغيير الثقافي والفكري ومن ثَمَّ الحضاري، يتولاه النخبويون الذين يؤمنون بوجوب التغيير والإصلاح، وهم الذين يتحملون مصاعب العمل، ويواجهون تحديات المرحلة، ومن يدرس تاريخ الإسلام النبوي عموماً يجد أن

الأنبياء والمرسلين هم قادة هذه الفئة، ويليهم الصديقون والصالحون والأولياء[1] ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم، وهم الذين يجاهدون في الله حق جهاده، في سبيل إقامة دينه وهداية الخلق إلى دين الحق، وهم الذين يحملون راية القرآن فوق كل راية، يقول الفضيل بن عياض: «حَامِلُ الْقُرْآنِ حَامِلُ رَايَةِ الإِسْلامِ، لا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْغُوَ، مَعَ مَنْ يَلْغُو، وَلا أَنْ يَلْهُوَ مَعَ مَنْ يَلْهُو، وَلا يَسْهُوُ مَعَ مَنْ يَسْهُو، وَيَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ لا يَكُونَ لَهُ إِلَى الْخَلْقِ حَاجَةٌ، لا إِلَى الْخُلَفَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَوَائِجُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ»[2]، فإذا قامت النخبة بإنتاج هذا المشروع ليستوي على سوقه، وتقوم أركانه بقوة وثبات؛ فإن الأمة ستستجيب وتقبل على هذا المشروع برضىً مستحكم، وسترى هذه النخبة الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فرحاً وألقاً، وستكون البداية في المرحلة التالية وهي مرحلة البناء الحضاري الذي تتولاه الأمة بنشاط ومثابرة ومكابدة، وتبقى النخبة العاملة في معيار الرقابة الإيمانية، والتصويب الناقد، والمتابعة الحثيثة.

---

(١) اقتصر مفهوم الولي عند بعض طوائف المسلمين على صاحب الطريقة، الذي يلتزم بمجموعة من الطقوس والعبادات والأذكار، وهذا المفهوم مما علق بأفهام المسلمين خطأً، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس:٦٢)، ثم يبين صفاتهم فيقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس:٦٣-٦٤)، فجعلُ مفهوم الولاية بصاحب الطريقة تصور مبتدع، وحصر باطل.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط٤، ١٤٠٥هـ، ج٨، ص٩٢.

الفصل الرابع

فقه تغيير المنكر

تمهيد:

السلوك الحضاري للأمة الإسلامية يفرض عليها طبيعة احترازية في استباق الأحداث، وفهم المستقبل القريب بظروف ميلاده الحاضرة، ويكون ذلك من خلال القراءة الاجتماعية المتأنية، ومراقبة الأحداث المزدحمة حول بؤر جديدة، ودراستها دراسة استراتيجية فقهية لاتخاذ التدابير اللازمة تجاهها، وتقديم التوجيه الصحيح للأسباب التي أوجدت تمهيدات إيقاع المنكر في مجتمع الفضيلة قبل وقوعه، فهذا هو السلوك المطلوب شرعاً، وهو السلوك المفهوم ضمناً بالأمر بالمعروف أولاً والنهي عن المنكر ثانياً، فتضييع المعروف أول خطوة في طريق تثبيت ركائز المنكر، وتدارك المنكر قبل وقوعه أولى من علاجه بعد شيوعه، وهو المنهج المرضي عند عقلاء الحكماء، وحكماء الشريعة وفقهائها، فكيف بنا وقد ضاع المعروف من مجتمعاتنا باعتباره الحاكم الآسر للأفعال، وساد الهوى وحب الشهوات، وطغى على الناس إيلاف المعاصي والتردي في الهوان؟! ولذا فإن من أولويات فقه التغيير في هذه المرحلة الراهنة التركيز على أمرين غاية في الأهمية، وهما:

- الحد من شيوع المنكر وانتشاره، لا التصدي له ومهاجمته.
- البحث عن علل المنكر وأسبابه لعلاجها، وإرجاء علاج ظواهره.

وهـذان الأمـران يتطلبـان العمـل ضـمن منظومـة مؤسسـية تـتخلص مـن الاتجاهـات الفكريـة، والمـذهبيات الفقهيـة والعقديـة والسـلوكية، وتتجـرد في العمـل ضمن برامج دعوية تُبنى على قاعدة من الخبرات الاستراتيجية والتخطيط والإدارة، وتتصف بالعمل المنتج المبني على قواعد الدين الواضح البيِّن، في بساطته ووضوحه وشموله وعالميته، بحيث تُقدم مشاريع التغيير المبنية على وضوح الأهداف المرتبطة بخطط زمانية، قريبة المدى وبعيدة المدى، يُقاس نجاحها بمعايير تربوية وأخلاقية واجتماعية، وتُجرى لها عمليات تغذية راجعة لتقويم مسيرة التغيير، مع التعديل عليها بما يحقق المصلحة الشرعية، وهذا بطبيعة الحال يحتاج إلى جرأة في الطرح، وجسارة في العمل، وجدية في التطبيق والتنفيذ.

وتغيير المنكر من أصعب الممكنات الاجتماعية؛ ولذا فإن فقه التغيير يتطلب بـرامج متقدمـة لفهـم البنيـة والتركيبـة الاجتماعيـة، والـوعي بـالظروف التاريخيـة والاقتصادية والفكرية والسياسية التي مرت بها المجتمعات الإسلامية، والأدوار التي مورست ضد الشباب المسلم، فليس التغيير أمراً ميسوراً متيسراً كما هو متخيَّلٌ عند بعض العاملين، وكيف يكون كذلك والله سبحانه وتعالى يقول في وصف كتابه كتاب التغيير: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٢).

فمشروع التغيير يجب أن يأتي كذلك عن علم ودراسة مستنبطة من كتاب التغيير الأعظم، ضمن مقتضيات المرحلة الراهنة التي تحتاج من العاملين أن يقدموا ما لم يسبق للأمة الإسلامية أن قدمته من ذي قبل؛ لأنها لم تمر بظروف مشابهة للظروف التي تمر بها اليوم.

المبحث الأول

وسائل التغيير

تقوم المنظومة الفكرية الإسلامية على إيضاح المقاصد الثابتة ضمن مجموعة من الأحكام الفقهية الخاضعة لنصوص الوحي، عبر وسائل وآليات وبرامج تندرج تحت أصل ثابت من أصول الشريعة بما يحقق المصلحة الشرعية، فالوسائل والآليات هي أحكام شرعية إذا توقف العمل عليها اندرجت تحت قول الأصوليين: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»(١)؛ لأنها تستحيل حينئذ من سلوك اعتيادي إلى سلوك شرعي، يتوقف عليه تطبيق المصالح الشرعية الرامية إلى تحقيق المقاصد.

ومن القواعد الفقهية التي قالها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه واستحسنها الإمام مالك رحمه الله تعالى: «تَحْدُثُ لِلنَّاسِ أَقْضِيَةٌ بِقَدْرِ مَا أَحْدَثُوا مِنَ الْفُجُورِ»(٢)، فإن الأقضية تحتاج إلى الرقابة القضائية في متابعة المنكرات المبتدعة في المجتمع المسلم، وقد علَّق على هذه العبارة الإمام الشاطبي بقوله: «فَكَذَلِكَ تَحْدُثُ لَهُمْ مُرَغِّبَاتٌ فِي الْخَيْرِ بِقَدْرِ مَا أَحْدَثُوا مِنَ الْفُتُورِ»(٣)، وأقول: وتُحدث لهم وسائل للتغيير بقدر ما أحدثوا من المنكرات والشرور.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن علي بن محمد الآمدي، تحقيق: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، ج١، ص١٥٢.

(٢) الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: سليم الهلالي، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، ج١، ص٥٥.

(٣) الاعتصام، الشاطبي، ج١، ص٥٥.

ومن هنا فإن إمكانيات العمل متاحة في جميع حقول الدعوة، وهي كثيرة بل متكاثرة، وقد أرادها قوم أن تكون مقتصرة على أصحاب العلم الشرعي، والأمر أوسع من ذلك بكثير؛ فإن المرحلة التي نعيش تحتاج إلى جهود جبارة في كثير من المجالات الدعوية الفاعلة، فعلم الإدارة، وعلم الاستراتيجيات والتخطيط، والسياسة والإعلام، وعلم النفس والتربية والاجتماع، وعلم التاريخ، وعلم التنمية والموارد البشرية، هذه العلوم وغيرها خادمة في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ بل إن هذه العلوم هي أبجديات الوسائل والأدوات التي نحتاجها في مسيرة التغيير الحضاري لهذه الأمة.

وسأقف مع مجموعة من الوسائل والأدوات التي أرى ضرورة إيجادها في العمل الإسلامي المنظم، ضمن برامج وآليات ووسائل عملية وعلمية، بقطع النظر عن الاتجاهات الفكرية ووجهات النظر، فالمقصود أن يبحث المسلم المعاصر عن طرق تُعينه على أداء الواجب الذي يرى وجوبه في عنقه، متجاوزاً مرحلة الانشطارات الفكرية المتكررة، والانفلاقات الحزبية المتعددة، ومن ثَمَّ الانغلاق على النفس التي استجمعت قوى الفهم والإدراك والمعرفة فأصبحت الدرة اليتيمة، والنادرة العزيزة، والجملة المفيدة!! إلى مرحلة الاجتماع على الوسائل والأدوات المعينة على إدراك المطلوب، ومعرفة المقصود.

وسأتناول خمساً من الوسائل التي تعنينا في مشروع التغيير الحضاري، وأرى أنها من أولى الوسائل التي يجب على العاملين أن يتخذوها في مسيرتهم الدعوية وهي: إنشاء مراكز حضارية لتشخيص أمراض المجتمع، وإنشاء مراكز التخطيط الاستراتيجي، وإنشاء معاهد شرعية حضارية، وتجديد الخطاب الإسلامي، والتقويم

الذاتي، وهذا لا يعني أنه لا يوجد سواها، لكن هذا الذي أداني إليه اجتهادي في هذا الموطن، ولناظرٍ آخر أن يرى خلاف ما رأيت، فهي اجتهادات تحتمل الصواب والخطأ، أسأله سبحانه أن يعينني على تمام المقصود.

الوسيلة الأولى: إنشاء مراكز حضارية لتشخيص أمراض المجتمع:

لم يعتد الدعاة إلى الله تعالى أن يوظفوا الوسائل العصرية والأدوات المدنية في حل مشاكلهم التوظيف الأمثل، والاستعانة بها في سبيل النهوض بهذه الأمة، فقد يكون مبدأ تشخيص المرض الذي تعيشه الأمة موجوداً في الأذهان، يغيب فترة ويحضر أخرى، لكنه غير موجود بشكله وأسلوبه المعاصر، فلا توجد مراكز متخصصة لتشخيص مشاكل الأمة وأمراضها، يقوم عليها مختصون بالعمل الإحصائي البياني، بحيث يقومون بجمع البيانات والمعلومات وإحصائها، ومحللون اجتماعيون يقومون بتحليل البيانات إلى نتائج واقعية ملموسة، ومفكرون يقدمون العلاج الصحيح بنسبه الصحيحة بما يتناسب مع طبيعة المرحلة، وفقهاء يتابعون العلاج والمعالَج.

والناظر في طبيعة المرحلة التي تعيشها الأمة يجد ضرورةً ملحة لإيجاد هذا النوع من المراكز، وقد أغنى عنها زمنَ الوحي وجودُ الوحي نفسه، فهو المشخص للأمراض، وهو المعالج، وهو المتابع، أما اليوم فإن وسيلة الاجتهاد في سبيل النهضة الحضارية حاضرة بين أيدينا، والوحي مادةً ومنهجاً حاضر بين أيدينا، وبإمكاننا أن نضع المعايير والمقاييس الشرعية بأدوات العصر لإنشاء هذه المراكز، ولعل في السيرة النبوية شيئاً قريباً من هذا الذي أدعو إليه، وإن كانت الأخبار عنه نزرة قليلة، وهي دار الأرقم بن أبي الأرقم، التي تمثل المركز التربوي الأول في الدعوة النبوية،

وهي التي تأخذ طابع جمع البيانات وتحليلها ومتابعتها ومعرفة موقف الناس من الدعوة الجديدة.

بل إن دار الأرقم تمثل نقطة تحول في تاريخ السيرة، حيث إن المؤرخين يجعلونها منعطفاً في تاريخ الدعوة المكية، حيث يقال: إن فلاناً أسلم قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم؛ كعامر بن فهيرة وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن جحش وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعمار بن ياسر وعياش ابن أبي ربيعة ومسعود بن ربيعة وغيرهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقال: إن أول من أسلم بعد دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم عاقل بن البكير، ومن أشهر من آمن بعد ذلك عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم جميعاً، ولم تنقل أخبار السيرة شيئاً تفصيلياً عن هذه الدار، بقدر ما نقلت إلينا دورها وأهميتها من خلال تتبع أخبار أولئك الأولين في الإسلام، وهو يعكس ضرورةً دور هذه الدار في الدعوة، وكونها مركزاً مؤثراً في الناس(١).

وقلة الأخبار عن هذه الدار بل انعدام تفصيلاتها، ليبرهن على أن الوسائل خاضعة لظروف الزمان والمكان، وأن هذا متروك لاجتهاد المجتهدين في ابتكار الوسائل والأدوات المعينة على تحقيق المقصود ضمن ضوابط الشرع وشروطه، ولا يخفى أن منهج الاهتمام بالمادة المنقولة إجمالاً أو تفصيلاً دليل على كونها

---

(١) لم يُذكر في السيرة النبوية شيء عن تفصيلات دار الأرقم، ولعل ذكرها لم يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وأكثر ذكرها جاء في تراجم الصحابة رضي الله عنهم، كأن يقال: آمن فلان قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم أو بعد دخوله دار الأرقم.

حجة يجب العمل بمقتضاها أو لا يجب، وعليه فإن إيجاد المراكز التي تعتني بالدعوة بالتخصصات التي ترعى مشروع التغيير الحضاري له تأصيله الشرعي.

ولا يخفى أن التأسيس لهذه المراكز بقصد تشخيص المشاكل التي تعاني منها الأمة، من المشاريع التي تحتاج إلى دراسات تخصصية، ودراسات ميدانية تخدم هذا الجانب من الدعوة في مراحله الأولى، وميدان العمل مفسوح لمن أراده وهو طريق ممتلئ بالخير إن كانت هناك خطوات جدية، ومشاريع تنموية لإنشاء مثل هذا النوع من المراكز[1]، وفي ظني أن العاملين للتغيير لن يستطيعوا أن يتحركوا الحركة الحضارية الجادة قبل أن يقفوا على أسباب المرض وعلله، ولن يكون ذلك لهم إن هم اعتمدوا على أنفسهم، ووثقوا بأنهم قادرون على تشخيص الأمراض بتلك الكلمات الإنشائية العريضة التي ملّها الناس، من غير العودة للمختصين في هذا الجانب من العمل.

---

(١) إنشاء مراكز حضارية لتشخيص أمراض المجتمع يحتاج إلى جهد متخصصين، وعمل دؤوب يبتعد عن عنصري الارتجال والإجمال، فلا بد من التفصيل الدقيق، والمتابعة الحثيثة، والعمل الإداري المنظم، والتخصصية في الدراسة والتحليل، فلا يقوم بها شخص صاحب ثقافة عامة، أو فقيه عالم، أو أستاذ جامعي مرموق، أو خطيب وواعظ، وإنما يقوم بها متخصص ذو خبرة ودراية، يعمل ضمن منطق المعطيات المجردة، بعيداً عن العواطف الجياشة، أو ما يرغبه الدعاة من سرعة الإيمان والاستجابة؛ لأن هذا قد يقودنا إلى وضع نتائج غير علمية تعيدنا إلى سيرة الوضاعين الكذابين في وضعهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بغية الترغيب في الجنة، والترهيب من النار، وهذا ما سيوقف العمل الجاد، ويعرقل العملية برمتها، وهو ما سيعيدنا إلى الوراء خطوات وخطوات؛ ولذا كان لا بد من عقد دراسات متخصصة حول هذا النوع من المراكز، تتحمل عبأها مؤسسات علمية مرموقة وموثوق بها.

الوسيلة الثانية: إنشاء مراكز التخطيط الاستراتيجي:

يفتقد العمل الإسلامي المعاصر إلى مراكز التخطيط المستقبلي الاستراتيجي المتخصص، والتخطيط الاستراتيجي علم معاصر له نظرياته وتقعيداته وأصوله، وهو يعتمد على أمرين اثنين، المستقبل والأهمية، فالتخطيط الاستراتيجي لا يكون إلا للأمور الهامة كالأمور السياسية والعسكرية والتوسع الاقتصادي والامتداد الحضاري في المستقبل القريب أو البعيد، ولذلك فالعمل الاستراتيجي لا يخضع لدكتاتورية اللحظة كما يعتقد بعض علماء هذا العلم، وإنما يخضع للحاضر والمستقبل، ومن هنا تنبع أهمية العمل الاستراتيجي.

والتخطيط للمستقبل يحتاج إلى خبراء لهم امتدادهم الفكري، وخبرتهم الطويلة، واعتبارهم بالتاريخ الماضي، ولا يصلح أن يخطط للمستقبل من فقد الخبرة والدراية بطبيعة الأحداث التاريخية وما يجدُّ لها من ظروف تقتضيها طبيعة اللحظة التاريخية، والظروف المحيطة، وقد قص القرآن علينا قصص السابقين، وأمرنا بالاعتبار لنتقي ألم الصدمة في مواجهة المستجدات التي يستطيع العاقل أن يتجنبها بحنكته وحكمته، وأمرنا أن نتخذ مجموعة من الخطوات الراسخة في سبيل الوصول إلى الهدف المقصود، وذلك من خلال الإيمان بسلامة المنهج، وصحة المعتقد، وصلاح العمل، وعدم استعجال النتيجة.

وهذا مبثوث في كتاب الله تعالى نصاً ظاهراً ومعنى ضمنياً، بل إن القرآن قد بين أن الخروج عن المنهج مع التمكين في الأرض نهايته الاندثار الحضاري كما قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ

وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ (الأنعام:٦)، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأحقاف:٢٦-٢٧).

فليس مطلوب الأمة الإسلامية التمكين في الأرض كما هو الأمر عند بقية الأمم، بل مطلوبها الحقيقي التمكين في التمكين، أي: الاستمرار والديمومة في التمكين، وهذا لا يتأتى بحال إذا لم تعتمد الأمة في منظورها القريب والبعيد على تخطيط استراتيجي مبني على ضوابط الشرع ومقاصده، ومنضبط بالتصور الإسلامي الشامل للحياة الدنيا والآخرة على حد سواء، ودور مراكز التخطيط الاستراتيجي أن تعي طبيعة المرحلة التي تمر بها الأمة اليوم، مع إدراك طبيعة الأمراض التي تعاني منها، وربط ذلك كله بالتاريخ الأخلاقي لهذه الأمة، لتبني التصور الصحيح الذي يجب أن تسير عليه في خطواتها اللاحقة.

ولا يعنينا هنا الوقفة مع علم الاستراتيجية بقدر ما يعنينا فهم أبعاد هذا العلم في مشروع التغيير الحضاري، وما يلزمنا منه في الإعانة على استشراف المستقبل، ومعرفة الممكن الزماني القريب منه والبعيد، وإلا فالنظريات الاستراتيجية هي نظريات تشترك فيها كثير من المدارس الأوروبية والشرقية؛ كالمدرسة الفرنسية والإنكليزية والروسية والصينية، تتفق في مسائل وتختلف في أخرى، لكنها تتفق على كثير من الخطوط العريضة التي تمثل النظرية الاستراتيجية، وأما باعتبارها فناً فهذا خاضع للمتغيرات وفق ما تمليه الثقافات والأفكار والطموحات الزمانية والمكانية.

ولو نظرنا في الاختيار النبوي لشخص عمرو بن العاص رضي الله عنه – مع إيمـانه المتأخر – قائداً في غزوة ذات السلاسـل، مع وجـود أبي بـكر وعـمر وأبي عبيدة، رضي الله عنهم، فإننا نجده يمثل رؤية استراتيجية، والمدقق في أحداث هذه الغزوة وصنيع عمرو بن العاص فيها ليلمس سر الاختيار النبوي، وأن الأمر ليس خاضعاً لأفضلية الإيمان بقدر ما هو خاضع لأفضلية القيادة العسكرية التي تستلزم الخبرة والحنكة والدهاء، ولعل ما أصاب عمراً رضي الله عنه عند عودته من هذه الغزوة وسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه(1)؛ ليعكس كذلك خلطاً في فهم قانون الأفضلية الخاضع للظروف والسياقات المقامية التي تمر بها الأمة، فأفضلية العسكري في ساحات الوغى، وأفضلية المفكر في مراكز التفكير ومعاهده، وأفضلية العالم في مجالسه وحلقاته، وأفضلية الداعية في حسن تأتيه وحكمته في قلوب المدعوين(2).

(1) فقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ عَمْرَو ابْنَ الْعَاصِ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ» قُلْتُ: مِنْ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «عُمَرُ».. فَعَدَّ رِجَالاً فَسَكَتُّ مَخَافَةَ أَنْ يَجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات السلاسل، رقم الحديث: (٤١٠٠)، ج٤، ص١٥٨٤، فظن عمرو بن العاص أن إرساله قائداً إلى غزوة ذات السلاسل بسبب حب النبي صلى الله عليه وسلم له، وأن تفضيله على غيره في الغزوة من باب أفضليته على غيره، ولعل هذا الظن تسرب إليه من ثقافة سابقة في قانون المفاضلة عند العرب، وبهذا يكون صلى الله عليه وسلم قد أرسى قواعد جديدة في فن اختيار القادة، على أسس ومعايير لم يعهدها العرب قبل مجيء الإسلام.

(2) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلمات معينة على التأصيل في لحاظ الفروق الفردية بين الأشخاص ومؤهلاتهم وقدراتهم، وأن الشرع لاحظ الفروق لتحقيق المصلحة ودرء المفسدة، وأن العبرة ليست بالتقوى وكثرة الإيمان بقدر ما هي بالقدرة على إنجاز الأعمال المطلوبة، يُنظر تفصيل ذلك: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، ج٣، ص٩ وما بعدها.

ومراكز التخطيط الاستراتيجي يجب أن تعتمد في تخطيطها المستقبلي على العلم الاستراتيجي المبني على قوانين لا تتبدل، كقوانين الفيزياء والكيمياء والرياضيات، وأن تفيد مما كتبه علماء الاستراتيجية الغربية في المجالات العسكرية والسياسية والإدارية والاقتصادية في هذا الجانب[1]، مع رعاية أن تكون الإفادة ضمن التصور الإسلامي الشامل، وهذه الوسيلة لها أهميتها وأولويتها في الوقت الراهن؛ لأنها تزيل عن الأعين غشاوة المستقبل، وتتيح الفرصة للتفكير الهادئ المتزن، وتمرن كثيراً من الشباب المتحمس على ضبط الأعصاب، واتخاذ سياسة النفس الطويل، وتعيد ترتيب الأفكار، وتنقل الشريحة العاملة من المثالية إلى الواقعية، ومن التفكير السريع المتعجل إلى التفكير المتأني، ومن الكم إلى النوع، وهذا ما قد يعيد الثقة بالذات بحيث تعلم حقها ومستحقها في حاضر الأيام وقابلها، كما علمته في غابرها.

الوسيلة الثالثة: إنشاء معاهد شرعية حضارية:

كانت المدارس الشرعية في تاريخ المسلمين الفاعلة في المجتمع المسلم، والصانعة للأحداث المهمة، وسر النهضة الحقيقية، وبقيت هذه المدارس تقدم دوراً مرموقاً إلى وقت قريب، حتى حاربها الاستعمار الخارجي، والاستخراب الداخلي،

---

(١) يلجأ كثير من طلاب العلم إلى نصوص الوحي كتاباً وسنةً ليستخرجوا منها بعض النظريات المعاصرة، ولا نعجب أن يكتب كثير من المفكرين الإسلاميين المقالات والدراسات حول علم الاستراتيجية القرآني، وذلك منهم خروج – في ظني عن المقصود –، فليس القرآن كتاب علم بقدر ما هو كتاب هداية ودلالة، نعم قد يكون هناك بعض اللفتات الاستراتيجية في القرآن، لكن ذلك لا يعني أن القرآن قد أعطانا منظومة استراتيجية متكاملة بمنظورها العلمي النظري، ولذلك علينا الإفادة مما كتبه غيرنا باعتباره منتجاً علمياً لا باعتباره منتجاً حضارياً أو ثقافياً.

ففقدت مكانتها في قلوب المسلمين وعقولهم، وباتت شكلاً من أشكال التراث المنسي، الذي لا يؤثر في توجيه الأحداث فضلاً عن صناعتها.

والأمة اليوم تعيش بين إنتاج المعاهد والجامعات المنتجة للخريجين في جميع المجالات الشرعية، وبين الإنتاج الفردي الذاتي، وهذان الإنتاجان فاعليتهما أقل من حركتهما، ونشاطهما أقل من كسلهما، ومن يتدبر لقليل من الوقت واقع الجامعات الإسلامية وكليات الشريعة، يدرك حجم المأساة التي تعاني منها عموم هذه الجامعات، من خلال التفحص الدقيق للمُخرج التربوي أو الثقافي أو حتى العلمي فضلاً عن المنتج النهضوي الحضاري، فضلاً عن إيجاد النخبة الفاعلة في الحياة، وما تلك الأقلام اللامعة، والتحركات المنيرة لبعض خريجي تلك الجامعات إلا نتاج فردي وجهد ذاتي.

ولذلك فإن الأمة اليوم بحاجة إلى عمل مؤسسي نوعي متميز في صناعة جيل العلماء القادرين على رفع لواء الحق بقوة وجدارة، وإني أرى ذلك من خلال إيجاد مؤسسة علمية تقيم معاهد أو جامعات ترعى هذا الجانب من العمل الناهض، يقوم على الركائز الآتية:

أولاً: انتقاء الأفراد المؤهلين ذهنياً ونفسياً وخلقياً وعلمياً ليكونوا البذرة النواة في تأسيس هذه المعاهد الشرعية الحضارية، ضمن عمل مؤسسي تعاوني يتناسى الجهد الشخصي ويحرص على العمل المؤسسي.

ثانياً: أن تكون المؤسسة القائمة على هذه المعاهد الشرعية مؤسسةً مستقلة في مواردها المالية والفكرية، وتتحلى بكامل الحرية في تقديم ما تراه مناسباً ضمن

اجتهادها ورؤيتها وتصورها، لا ضمن رؤية معدة مسبقاً، أو ضمن مشروع إعلامي استثماري، وإنما أن يكون الجهد متخلصاً من جميع الأبعاد المرتكزة على الجانب النفعي المرتبط بمصلحة خاصة أو غير ذلك، كما هو الأمر في غالب المشاريع التي تُقام في عالمنا الإسلامي.

ثالثاً: أن تكون هذه المعاهد قائمة على العلوم الشرعية الحضارية، وليس على العلوم الشرعية فحسب، فيدخل في ذلك بعد العلوم الشرعية واللغوية علوم الإدارة والتخطيط والتربية والنفس والاجتماع والتاريخ بما يخدم المشروع الإسلامي الحضاري بأبعاده الهدائية.

رابعاً: أن يتم اختيار الطلاب الدارسين في هذه المعاهد بناءً على مؤهلات نفسية وذهنية وخلقية تتم دراستها وفق برامج تربوية بما يخدم الرؤية المستقبلية لرسالة المعهد الشرعية، وبما يخدم المصلحة العامة التي لأجلها تم تأسيس هذه المعاهد وإنشاؤها.

خامساً: أن ترتبط البرامج العلمية والتربوية بأعمال ريادية اجتماعية تُقاس نتائجها بمعايير نجاح أفرادها في التأثير في المجتمع وقدرتهم على التفاعل معه، بما يخدم المسيرة الاستمرارية والنقد البناء على مستوى البرامج والمُخرجات الدعوية.

سادساً: إيجاد معاهد شرعية عليا تُعنى بالجانب التنظيري، وهو جانب هام في مسيرة العمل الفكري الجاد، بحيث تقدم أطروحات علمية شرعية حضارية، يكون دورها في طرح موضوعات حضارية عميقة وتخصصية ترصد الظواهر الفكرية لتعالجها وتقدم الحلول المطلوبة، وتمزج بين العلوم الشرعية التخصصية وبين العلوم

المطلوبة في هذا الجانب، في سبيل إيجاد تشاركية علمية وأكاديمية في سبيل تقديم خدمة تخصصية في أحد الجوانب الحضارية.

ومن شأن هذه المعاهد أن تُقدم مجموعة من الرسائل العلمية والسلوكية والبشرية في المجتمعات الإسلامية، بحيث تعيد الهيبة لطلاب العلم الشرعيين، بمنطق العصر، وبرؤية شرعية خالصة صادقة.

الوسيلة الرابعة: تجديد الخطاب الإسلامي:

الخطاب الإسلامي المعاصر يتسم بمجموعة من الصفات لا تؤهله لإقناع المتلقي المعاصر، كعمومية الطرح، وارتجال الفكرة، وتقليدية المنهج، وترداد الصوت، وسرعة المنتج، وحضور الحلول السريعة لأي مشكلة تحدث، وفقدان وسائل وآليات الخطاب المقنع، فهذه الصفات وغيرها كثير أورثت حالةً من الملل والسأم لدى المتلقي، وقلة تفاعل عند صاحب الخطاب، مما جعل التجديد في ماهية الخطاب وآلياته وتوقيتاته ونسب الطرح المطلوبة من الواجبات الفكرية؛ لأن كثيراً منها ما زال في دائرة اللامفكر فيه، وما زال كثير منها يعاني ضيق العطن وضعف الرؤية وسذاجة الطرح، بسبب حالة الخوف التي يعيشها معظم الإسلاميين من الخروج عن المألوف، وعدم قدرتهم على رد سهام اتهام الطاعنين، مما أورث كذلك حالةً من التردد الفكري، والارتباك العاطفي الذي بدوره انعكس على الخطاب الإسلامي بنسب من القلق تزداد حيناً وتقل حيناً أخرى، تظهر في شكل انفعالات عاطفية وتختفي في شكل الحكمة والاتزان.

ولذلك فإن التجديد على مستوى الخطاب، بل على مستوى صوت الخطاب ولغته أمسى ضرورة فكرية لا تقبل التأجيل أو التسويف، وقد سبق

الحـديث عن التجـديد الديـني باعتباره سبـباً من أسباب التغيير، وهنا نتكلم عن تجديد الخطاب باعتباره وسيلة من وسائل التغيير، فليس المقصود بتجديد الخطاب الديني إعادة الدين إلى نقائه الأول – مع إرادته من غير هذا الوجه –، بل المقصـود تجديـد الفـهم لأبعـاد الـدلالة الدينيـة في تطبيقهـا على متغيرات الأزمنـة والأمكنـة، بمـا تقتضـيه طبيعـة المصـلحة الشـرعية والحضـارية والفكريـة، وانعكـاس ذلـك على مفهوم الخطـاب بنسبه المتغيرة باعتبـار الأحـوال والمتغيرات، بحيث يوصل الخطاب الإسـلامي مقصوده إلى قلوب المتلقين وعقولهم بأوضح فكر وأوجز لفظ.

وقـد حـان الوقـت الـذي يسـتغني فيـه الخطبـاء[١] التقليـديون عـن مطولاتهم المملة، وسـجعاتهم الغامضـة، وتشـدقاتهم المكشوفة، ومعـانيهم المكررة، ومنهجهم «الكلاسيكي»، وآن الزمن الذي وجب فيه على الخطباء أن يتقنوا وسائل الإلقاء اللفظـي والفكـري والإداري والبـدني، بمـا يجـذبون بـه آذان السـامعين، وقلـوب الغـافلين، وعقـول الضـائعين[٢]، فبـات الـزمن غـير الـزمن، حيـث اعتـاد النـاس في مشـاهداتهم اليومية لوسـائل الإعـلام على أساليب جاذبـة، تقـرب إلـيهم البعيـد، وتريهم الخبيء، وتكشف لهم المستور، فتعطيهم الجديد في ثوب أنيق، فإذا تمسك

(١) لا أقصد بالخطباء هنا خطباء الجمعة فحسب، وإنما أقصد الناطقين بالخطاب الديني، من الدعاة والوعاظ والعلماء والفقهاء والمفسرين والمفكرين والخطباء.

(٢) عندما بُعث صلى الله عليه وسلم جاءهم بخطاب جديد الشكل والمضمون، فأخذ ألباب العقلاء، وأدمى قلوب النجباء، وأراح عقول الحيارى، وأسكن رعشة فكر السكارى، ولم يكن خطابه شعراً، مع تمسك الناس بالشعراء، ولم يكن سجعاً مع إنصات الناس لوقع الصوت المسجوع، ولم يكن نثراً مع إعجاب الناس بالنثر المجموع، وإنما كان الجديدَ الجاذب، والقويَّ الكاسر، فهذه سنة القرآن مع أرباب الشعر والخطابة.

الخطباء بموروثهم اللفظي فهم يعلنون أنهم في غنى عن التواصل مع عموم الأمة، ويحكمون على أنفسهم بالقطيعة، ويمهدون الطريق لأضدادهم من غير المتدينين بمد خيوط التواصل، وينتهي الأمر بحالة من غربة الدين مارس أولئك سبباً من أسبابها.

وليس المقصود بتجديد الخطاب تقويته بالألفاظ الغريبة، أو الأساليب الرصينة المتينة، أو المعاني الفلسفية الجدلية، وإنما تجديده يكمن في أن يكون قادراً على الجذب مع الإقناع، والفهم مع الإخضاع، بما يتناسب مع لغة العصر، لا بما يتوافق مع فكر العصر، فالمطلوبُ المناسبةُ وهي تدل على علو صاحبها، وليس الموافقةَ وهي تدل على خضوع صاحبها، فأصحاب الخطاب التجديدي يجب أن يحافظوا على هويتهم في اتزانهم؛ لأن كثيراً ممن يتشجعون لفكرة التجديد يعلمون ظاهراً من التجديد وهم عن حقيقته وجوهره غافلون.

فتجديد الخطاب الديني وسيلة وآلية تحتاج إلى برامج مؤسسية، تخضع لعنصري النظرية والتطبيق، مع إجراء تغذية راجعة لمخرجاتها ومنتجاتها، فالأمر مرتبط بالوسيلة، والوسائل تحتاج إلى تجارب تقيس مدى نجاحها وإخفاقها، ومعرفة عيوبها وقوادحها[1]، فليس الأمر مجرد نظريات تُكتب، أو اقتراحات تُقال، بل هو عمل يحتاج إلى قياس ومراقبة ومتابعة، ثم بعد ذلك يكون من الوسائل المقبولة التي تُطبق على مستوى الأمة أفراداً ومجموعات.

---

(١) كثيرةٌ هي البرامج الإعلامية التي تُنفَّذُ وفق منظومة فكرية تتابعية، يجري عليها من التغيير والتطوير والتنمية، بحيث تكون على شكل برامج متواصلة، تعرف تطورها ونموها وإبداعها بالتفريق بين أولها وآخرها، ومثل هذه التجارب موجودة في بعض الفضائيات الهادفة، فيحسُن في مثل هذا السياق الإفادة منها.

الوسيلة الخامسة: التقويم الذاتي:

تخضع الأعمال التي تتسم بالنجاح وقابلية الاستمرارية بالتقويم والمراجعة والنقد الذاتي، ويُقاس ذلك بمجموعة من المقاييس والمعايير والموازين التي تتناسب مع طبيعة العمل ومجالاته، وقد عُني التربويون والأكاديميون ببيان أساليب التقويم وأدواته، والإفادة من تجربتهم مفيدة إذا ما تُحُرِّيَ الأخذ بالنافع الذي يعنينا في المجال الدعوي والتربوي ضمن الرؤية القرآنية والتصور الحضاري، مع التطوير عليه في المقاصد والغايات، ولا يقتصر مفهوم النقد الذاتي أو التقويم الذاتي على بيان الأخطاء أو الاعتراض على المفاسد، بل إن مفهوم التقويم أوسع من هذا بكثير، فيدخل فيه اقتراح المفقود، وتكميل الناقص، وبيان السلوك الغامض المشكل، فالتقويم مفهوم واسع لا يصح قصره على الأسلوب السلبي، بل يجب أن يتعداه إلى مستويات متنوعة في العمل والإنتاج، وهذا ما يخدم النجاح والتطور والتقدم في مجال النهضة والتغيير.

هذا وقد نزل الوحي بأسلوب التقويم في جميع مراحله، في مراقبة السلوك النبوي، وقد مر التقويم بجميع المراحل الدعوية والحضارية، فمنذ مطلع الدعوة المكية وللتقويم حضور حقيقي في توجيه النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما جاء في مطلع سورة عبس[1]: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا

---

(١) وهذا من أعظم الأدلة على أن القرآن كتاب الله تعالى، «قال ابن زيد: كان يقال: لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كَتَمَ من الوحي شيئاً، كتم هذا عن نفسه» أي: مطلع سورة عبس، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، ج٢٤، ص٢١٩.

﴿ يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ (عبس:١-١١)، وهذا التقويم ليس من باب الانتقاص من النبي صلى الله عليه وسلم في شيء، وإنما هو من باب التوجيه والمعاتبة لفعل الأولى[1]، لما قد يراه النبي صلى الله عليه وسلم في مصلحة الدعوة، فيأتي الخطاب القرآني مرشداً ومبيناً ما هو الأولى فعله، وفي ذلك تعليم لهذه الأمة أن أفعالها يجب أن يلحقها التقويم المباشر، والرد السريع، وكذلك نلحظ في هذه الآيات أن التقويم كان على الملأ، وهو قرآن يُتلى ويُتعبد بتلاوته إلى يوم الدين، تعليماً لهذه الأمة أن التقويم مما تجب فيه المسارعة لا الإبطاء، خصوصاً فيما يتعلق بفعل القادة الذين لهم بالغ الأثر في الأتباع.

فقد جاء قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام:٥٢)، تقويماً احترازياً قبل وقوع السلوك من قبل القائد الدعوي صلى الله عليه وسلم، وهذا النوع من التقويم خاضع في بعض خيوطه في دائرة التخطيط والرقابة في علم الإدارة المعاصر، فإن احتمالية الوقوع في مخالفة المطلوب يحتاج معه إلى تقويم احترازي، وهو نوع متقدم من التقويم غفلت عنه كثيرٌ من مدارس الإدارة المعاصرة، يحتاج إلى تطوير وفهم عملاً بمقاصد النص القرآني.

وقد جاء التقويم كذلك في موقف النبي صلى الله عليه وسلم من المنافقين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ج٢٤، ص٢١٩.

صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (التوبة:٤٣)، وقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة:٨٠)، فهذا التقويم من قبيل تقويم التوقيت الزماني، فليست المعاتبة في الإذن بقدر ما هي في توقيت التبين لمعرفة الصادق من الكاذب.

وقد قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالاعتراض والنقد – حسب ما يرى- لفعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فقد جاء عن سَهْل بْن حُنَيْفٍ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَلَوْ نَرَى قِتَالاً لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ فَقَالَ: «**بَلَى**»، فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «**بَلَى**»، قَالَ: فَعَلامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: «**يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا**».. فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»[1].

فلم يكتف عمر رضي الله عنه بالاعتراض على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه، وأعاد عليه ما بدأه مع

---

(١) صحيح البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم الحديث: (٣٠١١)، ج٣، ص١١٦٢.

رسول الله، وكان الجواب عينَ الجواب، وهذا من إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لفعل عمر في تقديم الاعتراض فيما ظاهره المفسدة ومآله المصلحة.

وقد وافق القرآن عمر بن الخطاب في ثلاثة مواطن، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: «وَافَقْتُ اللَّهَ فِي ثَلاثٍ -أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلاثٍ-: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى.. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ.. قَالَ: وَبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ نِسَائِهِ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ، قُلْتُ: إِنْ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبَدِّلَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرًا مِنْكُنَّ، حَتَّى أَتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعِظَهُنَّ أَنْتَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ... ﴾ (التحريم:٥)»[1].

فهذا السلوك المرضي من فاروق الأمة رضي الله عنه قد أقره رسول الله عليه، وإقراره شرع ودين؛ وهذا الشرع يحتاج إلى بيان وتفصيل يرتبط بآليات العمل؛ ليؤتي ثماره الناضجة، ويحقق غاياته التي لأجلها قد شُرع، وهنا موطن العمل الحقيقي.

وتُعجبني لفتة قرآنية في اعتراض موسى عليه السلام على العبد الصالح في مواقفه الثلاثة، وعدم صبره حتى يتبين له مآل فعل العبد الصالح، فإني وجدت المفسرين قد عدوا هذا الدرس من دروس الصبر – وهو كذلك –،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة، رقم الحديث: (٤٢١٣)، ج٤، ص١٦٢٩.

لكنه في الوقت نفسه درس من دروس التقويم والمراجعة، فلم يقص الله سبحانه وتعالى علينا هذه القصة كي نعتبر فقط من عدم صبر موسى عليه السلام، دون أن نعتبر من تقويمه ومراجعته وعدم صبره على المعصية فيما يظهر له، ولو ذهبنا هذا المذهب لعددنا موسى عليه السلام من الراكبين متن العجلة دون التنبه لملحظ عظيم في شخصيته، وهو مبادرته تقويم الرجل الصالح، فالتعجل وإن كانت له مشاكله، لكنه حميد إن كان دافعه التقويم والمراجعة بمهماز الخير والمعروف، فموسى عليه السلام محمود بتلك المراجعة لا مذموم، وعدم صبره أمر طبيعي لا غبار عليه، فكيف يصبر على خرق سفينة، وقتل غلام، وإقامة جدار لبخلاء الأرض دون مقابل؟؟!!

ولذلك نجد أن العبد الصالح أخبره بعدم استطاعته الصبر قبل أن يصحبه، وهذا الإخبار دليل على أن الصحبة ستكون شاقة ليست باليسيرة، وسر صعوبتها الإتيان بأمور خاصة لا تندرج تحت قاعدة فقهية أو إيمانية أو جلب مصلحة أو درء مفسدة، وإنما هي من قبيل الوحي الصافي: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ (الكهف:٨٢)، وذلك مما لا يُقاس عليه، والعبرة تكون دائماً فيما يُقاس عليه، فعلمنا أن فعل موسى عليه السلام في مراجعته للعبد الصالح هو ما يُقاس عليه، فكمنت العبرة فيه، وهو من أعظم الأدلة على مدح المُقوِّم المُتابع الناقد؛ ولذلك لا نجد أبداً ما يقدح في فعله عليه السلام، فثبت أن فعله موطن تأسٍ من هذه الزاوية لا من غيرها، ولو كان فعله عليه السلام مذموماً في ذاته، وصنيع العبد الصالح حميد في ذاته؛ لما صح أن يقدم العبد الصالح تلك البينات بعد ارتكاب تلك الأفعال.

وفي هـذا الـزمن نـحتـاج إلى بنـاء سياسـة جديـدة في مـنهج التقويـم الـذاتي والنقــد البنـاء في جميـع ســلوكياتنا وأعمالنـا، علـى مستوى الأفـراد والمؤسسـات، وعلـى مستــوى المرحـــلة الزمانيـة، وعلـى مسـتوى الإنتــاج الفكـري والثقـافي والإعلامـي، وعلـى مسـتوى الشـرائح المختلفـة مـن الأمـة في مـدى اسـتجابتها وتفاعلهـا، بـل نحتـاج إلى أولئـك الشـباب الناضـج المشـتعل بالحمـاس والحيويـة، فالأعمـال الـتي تتصـفى للشيوخ الحكمـاء دون عنصـر الشـباب أعمـال باهتـة غـير فاعلة، كما أن الأعمال التي تتصفى لصالح الشباب هي أعمال قصيرة في عمرهـا، عظيمة في وقعها، فالشباب هم العنصر العامل المندفع، والشيوخ هـم كوابح العمل ومقيـدوه، والأعمـال الـتي تخلـو مـن أحـد هـذين العنصـرين أعمـال تنتهـي بالرتابـة المملة، أو الموت المفاجئ.

المبحث الثاني

آداب التغيير وضوابطه

للتغيير آداب وضوابط تختص بالمـُغيِّر تارةً، وبمرتكب المنكر تارةً أخرى، وبواقع المنكر تارة، وبزمن المنكر ومكانه، وقد كثر كلام أهل العلم قديماً حول آداب تغيير المنكر، فكتب الفقه المتحدثة عن المحتسب وآدابه وشروطه مليئة بالتأصيلات الشرعية، والتفريعات التفصيلية، لكنَّ زمن التأصيل الفقهي مختلف عن زماننا، فمن ثَمَّ اختلفت كثيرٌ من الأحكام بسبب اختلاف تكييفها الفقهي، وارتباط ذلك بالاستطاعة من جهة، وبالمصلحة والمفسدة من جهة ثانية، فالمجتمع اليوم ليس مجتمعاً مقيماً لأحكام الله تعالى وحدوده وفرائضه كي يُنكر المنكر بل يُغير، وليس مجتمعاً كافراً صرفاً كي يُدعى إلى دين الله تعالى، وإنما هو مجتمع اختلط فيه الحابل بالنابل، فاختلطت فيه الأوراق على الدعاة، فمنهم من نظر إليه على أنه مجتمع مسلم يجب فيه إنكار المنكر، ومنهم من نظر إليه على أنه مجتمع مرتد يجب أن يُدعى إلى الإسلام من جديد، وتوقف المعتدلون من أهل العلم موقفاً وسطاً في ملاحظة فقه المصالح والمفاسد والترجيح بينها.

وقد استشرف قديماً شيخ الإسلام هذا الواقع الذي نعيشه اليوم فكتب كلاماً غايةً في الدقة، ففي معرض حديثه عن افتراض مشابهة أهل الكتاب جملةً، وهو ما وصلنا إليه في واقعنا المعاصر؛ فإن مشابهة أبناء المسلمين لأهل الكتاب قد عمت وطمت، وانتشر بلوى العولمة في جميع بلاد المسلمين، حتى بلغ الأمر أن

لا يُفرَّق بين مسلم وكتابي في كثير من الأفعال والأقوال بله المشاعر والعواطف، وفي ذلك يقول، رحمه الله:

«وأيضاً لو فُرض أن الناس لا يترك أحد منهم هذه المشابهة المنكرة؛ لكان في العلم بها معرفة القبيح والإيمان بذلك؛ فإن نفس العلم والإيمان بما كرهه الله خيرٌ - وإن لم يُعمل به ، بل فائدة العلم والإيمان أعظم من فائدة مجرد العمل الذي لم يقترن به علم، فإن الإنسان إذا عرف المعروف وأنكر المنكر كان خيراً من أن يكون ميت القلب لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»(١)، وفي لفظ: «... **وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»(٢)، وإنكار القلب هو الإيمان بأن هذا منكر وكراهته لذلك، فإذا حصل هذا كان في القلب إيمان، وإذا فقد القلب معرفة هذا المعروف وإنكار هذا المنكر ارتفع هذا الإيمان من القلب»(٣).

فتوجيه شيخ الإسلام لفقه إنكار المنكر في مثل زماننا اقتصر على معرفة المنكر وبغضه وكرهه، وأن هذه المعرفة وهذا البغض هو محض الإيمان، ونلاحظ أن كلامه رحمه الله أتى على سبيل الفرض، وما قاله فرضاً أتى على هذه الأمة فرضاً، والناظر في المناسبات التربوية والعلمية والثقافية والسياسية والعسكرية والدبلوماسية

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم الحديث: (٨٠)، ج١، ص٦٩.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط٢، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة - مصر، ١٣٦٩هـ، ص٤٥.

يرى ذلك الكم الهائل من التقليد الأعمى للثقافات الأخرى، بل الاعتزاز والتقليد الكامل التام للأركان والواجبات والهيئات، وأن من خالف شيئاً من ذلك عُدَّ فعله المخالف قبيحاً منكراً، ولعل كثيراً ممن ينتسب إلى العلم وأهله ممن يزعم أنه من الدعاة إلى الله تعالى يلتزم بتلك الأفعال الجاهلية التي رسَّخ لها الواقع المأزوم المهزوم.

ولذا فإني أرى أن إعادة الكتابة في آداب التغيير على الطريقة الفقهية «الكلاسيكية» هو اجترار للماضي على غير هدى، وأن اللازم في هذا العصر العودة إلى المنهج النبوي بمعناه العام باستقراء آيات الكتاب وما صح نقلُه عن سيد الأنام، للاستفادة منه في هذا الباب - وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لفقه التغيير في المنهج النبوي -، مع لِحاظ المصلحة الشرعية المتناسبة مع ظروف المرحلة الراهنة، فما يكون مصلحةً أمس يكون مفسدة اليوم، وما كان مفسدةً أمس يكون مصلحة اليوم، والأمثلة على ذلك لا يعدها الحصر أو القصر.

ونستطيع أن نلخص آداب وضوابط فقه التغيير في النقاط الآتية:

أولاً: التربية والتهيئة للبناء:

فالمسلم المعاصر الذي يطمح أن يكون أحد لبنات التغيير في مجتمعه وفي أمته عليه أن يبدأ مشوار التغيير في نفسه أولاً، بدخول غار التربية والتنشئة على مائدة القرآن، وذكر الله تعالى؛ لتكون الآخرة غايته ومقصده ومطمحه، وتكون الدنيا دار العمل والبناء، وهذا يحتاج بطبيعة الحال إلى بناء قدوات وأسوات في مجال التربية الروحية على منهج السلف بالضابط النبوي، دون تزيد أو تنقص، إلا بما تسمح به نصوص الوحي بما يحقق الخير للفرد والجماعة، والله سبحانه

وتعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١)، فالتزام المنهج يكون بالتأسي، والتأسي بالمتأسي من التأسي.

ولا يخفى شيوع المادية في حياتنا والاقتناع بكل ما هو مادي، حتى طغى مبدأ الأسباب والمسببات وخرج عن حده وشاطئه فهدم بيوت المفاهيم الصحيحة، وقلع أشجاراً راسخة، وأصبح الطرح الروحي التربوي مثار شك وقلق عند كثير ممن ينتسب إلى العلم بحجة الدروشة أو التواكل، وأصبح المنهج السائد منهج الماديات المعتمد على النظر الذاتي والثقة بالنفس، مما ضيع السر الحقيقي في التغيير، وجلب الخسران المبين إلى الدعوة وأهلها، على أن الطريق الواضح في هذا المقام هو الجمع بين المنهج الروحي القائم على العلم الصحيح والمنهج السديد في تحري الحق من مظانه، والمنهج العلمي ضمن فقه المصالح والأولويات بأدوات العصر ووسائله.

ثانياً: الفقه بأصول منهج التغيير:

يقول سبحانه وتعالى في نهايات سورة يوسف، أي في السنة الثانية عشرة للبعثة وقبيل الهجرة: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ (يوسف:١٠٨)، وقد نزلت تلك الآية عام الحزن، وهو العام الذي ضاقت فيه الأمور على رسولنا صلوات ربي وسلامه عليه، لكنَّ الفرج يأتي بعد الشدة، والسعة بعد الضيق، وهذا معنى الاستبصار بأمر الدعوة، فالعلم الضروري في هذه المرحلة علم الثقة بالله تعالى، وحسن التوكل عليه وحده دون سواه، مهما اشتدت الأمور وزاد ضيقها، هذا ما أراده القرآن في جميع آياته المتحدثة عن مفهوم العلم القائد للعمل.

فنجد أن بيان القرآن وتفصيله لا يكون إلا للذين يعلمون، مع أن البيان يكون لقوم لا يعلمون، فمفهوم العلم في القرآن يختلف عن مفهوم العلم المستقر في الفقه الأكاديمي، ولننظر في هذه الآيات: يقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٣٠)، ويقول سبحانه: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام:٩٧)، ويقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام:١٠٥)، ويقول: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٢)، ويقول: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:١١)، ويقول: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس:٥)، ويقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل:٥٢)، وغيرها من الآيات، وفي هذا دلالة على أن الذين يعلمون هم من يحملون الاستعداد النفسي لتلقي العلم، أي المسبوق بالتذكير كما أخبر سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢)، فقدَّم التزكية في هذا السياق على العلم.

ويحسم القرآن أمر العلم المطلوب، وأنه العلم المرتبط بمنهج التزكية الروحية فيقول سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر:٩)، وتأتي الآيات بعد هذه الآية موضحة منهج العمل في الدنيا، وأنه منحصر في قواعد لا يحيد عنها العاملون، وهي التوحيد والطاعة وتصحيح النية والاستمرار في ذلك، يقول سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ

أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الزمر: ١٠-١٥).

ويأتي بعد ذلك تفعيل فقه الأولويات وفقه المرحلة والواقع وفقه الموازنات بما تقتضيه المصلحة الشرعية، وبما يحقق للأمة مقاصدها الإيمانية والتربوية والحضارية، ولا يخفى أن العاملين في التغيير والإصلاح يلزمهم الكثير من التأني والاستنارة بنصوص الوحي في قواعده الكلية، وأخذ العبرة بما قصه القرآن من قصص السابقين، ومن تجربة الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، وتقديمهم التجربة النبوية التي عاشها نبينا صلوات ربي وسلامه عليه مع قومه في مكة، ومع الأقوام الآخرين بعد الهجرة النبوية، ثم الالتزام بالقواعد والقوانين والسنن الاجتماعية التي لا تتخلف، والعمل بمقتضاها بما يضمن لهذه الأمة بناء صفة الوسطية في ذاتها وفي أفعالها وفي تفكيرها وحكمها على الأحداث.

ثالثاً: الاعتماد على المنهج الروحي:

بعد شيوع المادية في الناس فكراً وسلوكاً أصبح تغيير المفاهيم المبنية على البعد المادي من الممكن الصعب، ومواجهة الفكر المادي بالفكر الديني شكل من أشكال الجدال المذموم الموصل إلى تعقيد الأمور، لبلوغ مرحلة النزاع والصدام المأزوم، والناظر في التجارب النبوية مع أقوامهم يجد أن الجدال لا يؤتي ثماره في معظم الأحيان – على أنه مطلوب في مرحلة من مراحل الدعوة –، وانظر إلى قوم

إبراهيم عليه السلام حين حاجهم: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٦٢-٦٨)، فالنتيجة كانت مجابهةً وقتلاً وانتقاماً مع اعتراف بالحق الذي يملكه عليه السلام، والتجارب التي مارسها الدعاة في هذا العصر انتهت في كثير من الأحوال بقتل وانتهاك للأعراض والأموال، وردة عنيفة على الدين والأخلاق، وكل ما يمس الدين من قريب أو بعيد؛ ولذا فإن من أراد أن يدخل هذه المرحلة عليه أن يعي أبعادها بما يمتلك من ميراث النبوة.

ولذا فإن المنهج المبني على البعد الروحي والسلوكي والتربوي، الذي يقدم قليل المعرفة والعلم التفصيلي هو المنهج الأوفق في هذه المرحلة، وسبق الكلام حول قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر:٩)، ولن يبلغ المؤمن المنهج الصحيح حتى يقول الأقوم من القيل، ولن يتحقق ذلك إلا بعد أن يكون ممن نشأ في الليل: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ (المزمل:٦).

وقد قال المفسرون بنسخ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ ﴾ (المزمل:٢٠)،

ويكمن سر ذلك النسخ بعد الفرض، أن الله سبحانه وتعالى علم أن أمر الدين لا يقوم إلا بالقائمين الراكعين، فلما قام الدين وانتشر الخير خفَّفَ عنهم ما افترضه عليهم، فعلى العاملين اليوم أن يدركوا أسرار هذه الأبعاد العلمية بآثارها الروحية والتربوية التدريجية وأثر ذلك في الدعوة، وأن يعملوا ويجتهدوا ضمن المقاصد والأسباب والعلل الروحية والإيمانية، فهي القاعدة التي تنقي العمل، وتصفي النوايا، وتوضح غاية المسير.

رابعاً: تفعيل التخصصية:

من القضايا والمسائل التي تجب إثارتها في هذا الزمن تفعيل التخصصية في مراحل التغيير المختلفة، ولعل هذا الأدب من تلك الآداب المهضومة في الواقع الدعوي، فافترقت آراء الناس وأفكارُهم، على أنهم لو رجعوا للمتخصصين كل في باب لتداركوا كثيراً من الأخطاء التي تؤخر المسيرة، وأقصد بالتخصصية الأداة الصانعة للمسيرة الدعوية لهذه الأمة، وهي صناعة المتخصصين وتفعيل دورهم في جميع المجالات؛ المجال الروحي والأخلاقي والتربوي والاجتماعي، والمجال الفقهي بأنواعه المختلفة من مثل؛ المجال الفقهي المبني على حل الأزمات، والمجال الفقهي المبني على إيجاد البدائل في الوسائل والأدوات، والمجال الفقهي القائم على رقابة المنتج الفكري والثقافي والدعوي، ومجال التخطيط والاستراتيجية والإدارة، ومجال تبسيط المفاهيم وبيانها للناس، ومجال التعمق في فهم أبعاد الأفكار الوافدة وغرضها الاستعماري الثقافي، ومجال التواصل الاجتماعي والتربوي والأسري، وغيرها من المجالات التخصصية التي تعيننا في العودة إلى امتلاك زمام المبادرة في الريادة والنهوض الحضاري.

المبحث الثالث

أبعاد منهجية التغيير

هناك مجموعة من الأبعاد في منهجية التغيير نستطيع أن نحددها في خمسة أبعاد وهي؛ تحديد أولويات العمل، الاجتهاد في معرفة الواقع، التأني والتدرج في خطوات التغيير، اليقظة لمجريات الأحداث، بناء منهج متكامل في التعامل مع الكليات والجزئيات، وهي كما يأتي:

البعد الأول: تحديد أولويات العمل:

يُعد فقه الأولويات من أنواع الفقه المـُعتبرة والضرورية في باب التغيير والإصلاح، ومعرفة ضوابط الأولويات وشروطها هو لب هذا الفقه، إذ التحديد الأصولي الفقهي المقترن بالمصلحة الشرعية الخاضعة للمتغيرات الزمانية والمكانية لمعرفة الأولويات الشرعية لهو من ثوابت هذا الفقه، وهذا النوع من الفقه لم يدخل مرحلة التفعيل في باب التغيير الحضاري كما ينبغي، فما زالت مساحات خالية من إعمال النظر والتفكير، وما زالت مساحات أخرى تحتاج إلى مزيد من النقد ومعاودة التجربة بمنهج جديد.

وتحديد الأولويات هو الثمرة الناضجة في فقه الأولويات، وهو العامود الفقري الذي تستند إليه مآلات الأفعال في نتائجها ومخرجاتها؛ ولذلك فإن صحة التأصيل النظري في هذا الباب من الفقه تبقى مرتهنة بقدرة الفقيه الأصولي على

نقلها من دائرة التنظير إلى دائرة التطبيق، ولا ينفصل عمل الفقيه في تحديد أولويات العمل في إصلاح الأمة وتغيير واقعها إلى واقع آخر، إلا بالعمل التشاركي التشاوري مع أصحاب التخصصات الأخرى التي تلزم في عملية التغيير، والعزلة عن الإفادة من الخبراء كلٌّ في مجاله لهو من تضييع المعروف، وجلب الهموم والأحزان، وتكثير الأخطاء وتركيب الأغاليط؛ ولذا كان من الواجب الشرعي أن يعرف الإنسان قدره، وأن يسقط من حساباته أسطورة الرجل الموسوعي؛ لإحياء التخصصية وتفعيلها في مشاريع الإصلاح والتغيير.

ولا يخفى على العاملين أن تحديد بدايات العمل من أصعب الصعوبات، وأشق الممكنات، إذ تترتب نسب النجاح في تحقيق الأهداف على بداياتها، ولا يستطيع طالب التغيير أن يبدأ مرتجلاً بحجة الاستجابة لأمر الله تعالى فيقرر أولويات العمل ضمن نظرته القاصرة، أو ضمن فهمه المحدود، أو ضمن فكره التقليدي، دون العودة لأهل الذكر المتخصصين في علوم التربية والاجتماع والتخطيط والإدارة والاقتصاد والسياسة.

وعليه فإن تحديد أولويات العمل في مشروع التغيير الحضاري وبناء الأمة الوسط يجب أن يكون ضمن المرحلة المعاصرة، مع الإفادة من معالجة القرآن عند نزوله للمجتمع الجاهلي، وذلك من خلال الاتعاظ والاعتبار من تلك المعالجات لا لتنزيلها كما هي على واقعنا المعاصر، بل لتنزيل منهج المعالجة لا موضوع المعالجة، وهذا ما أمر به القرآن فقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف:١١١)، وهذه الآية

من أواخر ما نزل في العهد المكي، أي قُبيل الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام – على حد تعبير الفقهاء –، ونحن في هذا العصر بحاجة أن نفيد من منهج المعالجة في تحديد أولويات العمل، قبل الانتقال من مرحلة التيه الحضاري إلى مرحلة النهوض الحضاري، ومن مرحلة أمة الوهن، إلى مرحلة أمة الوسط.

البعد الثاني: الاجتهاد في معرفة الواقع:

ينادي العاملون اليوم في مجال التغيير بفقه الواقع، وهو بلا شك مسلك في التأصيل دقيق، لكن يعتري هذا النوع من الفقه مشكلات تدخل في باب القياس من جهة، وباب الاتباع من جهة أخرى، فالمسائل الجزئية التي تدخل في باب الدعوة كبعض الأساليب الدعوية المعاصرة يجب أن يُفعَّل فيها فقه الواقع، وأما المسائل الكلية التي تحتاج إلى فقه بناء الأمة الوسط بمفهومها الشامل، وفقه بناء حضارة الأمة؛ فليس بالضرورة أن يُفعَّل فيها جميع ما يُفعَّل في المسائل الجزئية، وهي قضية منهجية مفتقرة إلى التقسيم والتمييز، ولعل من أعظم المسائل التي تحتاج إلى رعاية النظر والفكر الفروقَ التاريخيةَ ومستجداتِ الزمان والمكان، ما قبل البناء والإيجاد، وما قبل الدعوة الحضارية[1]، فإن الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم يختلف تماماً عن واقع المشركين في مكة، وهو أعقد من جهات، وأسلس من جهات أخرى، فملاحظة الفروق التاريخية ومعرفة تفصيلاتها ضرورة فقهية حضارية، تحتاج إلى دراسة علمية فكرية جادة، بل تحتاج إلى عقد ندوات ومؤتمرات يُدعى لها الباحثون الجادون للبت في تفصيلاتها ودقائقها.

---

(١) الدعوة نوعان اثنان، دعوة هداية ودعوة حضارة، أما دعوة الهداية فهي دعوة الناس للدخول في الإسلام، وهي موجودة في واقعنا المعاصر، والمسلمون أعدادهم في تزايد، وأما دعوة الحضارة فهي التي تحتاج إلى عمل نوعي.

ولذلك فإن معظم المشاكل التي ترد على فقهاء التغيير هي في منطق التعامل مع العنصر البشري على أنه عنصر إسلامي، أو على أنه عنصر إسلامي فيه معاصٍ، أو على أنه عنصر إسلامي فيه دخيل غريب عن فكر الأمة، والحق أن الأمر ليس كذلك، فالعنصر البشري في العالم الإسلامي هو عبارة عن مسلمين يعيشون مرحلة التيه الثقافي والفكري والحضاري بل الإيماني، ومرحلة التيه التي طالت بهذه الأمة اليوم جعلتها تقف ممن يريد تغيير واقعها موقف المتردد العاجز عن تقديم الجواب الشافي، وهو يعيدنا إلى المرحلة الأخرى، وهي مرحلة دعوة الحضارة، فنحن لا نحتاج إلى الدعوة الهدائية التي ينشط لها الدعاة إلى الله تعالى فحسب – على أهميتها –، بقدر احتياجنا في أن ننشط في البعد البنائي الحضاري والأخلاقي للأمة الوسط، وهو الذي سيجعل هذه الأمة أن تقول كما قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: «اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ»[1]، لا كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤)، فهذا البناء الأخلاقي الذي أقعد قوم موسى عليه السلام عن الجهاد والنهوض والعزة، هو الذي سيقعد هذه الأمة اليوم وغداً إن هي بقيت على أخلاقها الحالية، ولم تعمل بإرادتها وعزيمتها، لتمتنع عن دخول مرحلة التيه الأخلاقي الابتلائي، والوهن الحضاري الاختياري.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، رقم الحديث: (١٨٨٢٧)، ج٣١، ص١٢٤، وقد حكم عليه الشيخ شعيب بالصحة.

ليس من غرضي أن أتحدث عن الفروق بين المجتمع الجاهلي البدائي الأمي، الذي يحتفظ بالمادة الخام من الأخلاق، والمجتمع الإسلامي الأول النقي الذي صاغ تلك المادة الخام بالتصور القرآني وبالتوجيه النبوي من جهة، وبين المجتمع الإسلامي المعاصر، الذي لم يحتفظ بأصول الأخلاق، ولم يصغ أخلاقه وفق الإسلام، وإنما جمع من هنا ومن هناك فأوعى، وأدخل في جلبابه ما ليس منه فأغوى، وأُدخل فيه ما هو غريب عنه، وضيَّع شيئاً وضاع عن أشياء من جهة ثانية، فهذا ما يحتاج إلى دراسة مستقلة تنوء بالعصبة أولي الفكر؛ واستسهال الصعب مضيعة ومفسدة، كما أن تضخيم الصغير مخدعة مُلبِسة، وغاية ما يعنينا في هذا المقام معرفة واقعنا بجميع تركيباته ومشاكله وتداخلاته وعقده، مع تقديم الاعتراف الصريح بأننا لن نصل إلى بناء صحيح خالٍ من المتناقضات إن بقينا على مجموعة من العقد السابقة المتداخلة، التي إن أُثيرت في يوم من الأيام أورثت زلزالاً أخلاقياً ثورياً ينهي تعب عقود من الزمن في لحظة لم تكن في الحسبان.

ولعل هذا ما نستطيع به تفسير تلك الصعاب التي كانت تعترض طريق الإسلام في بنائه الأول، وكيف كانت تلك الوقفات النبوية الصامدة الثابتة، التي كانت تحترز للمستقبل ببناء مرن يواجه الصعاب بصمت الحكمة، وبحكمة الصمت، دون مناقشة التفصيلات الجزئية، أو حتى دون الدخول في لب المشاكل وجوهرها.

البعد الثالث: التأني والتدرج في خطوات التغيير:

ربط القرآن بين الأعمال وغاياتها، وبين الدعوة ومقاصدها، وبين الإصلاح وأهدافه، لكن تحقيق الغايات والمقاصد للأعمال التكليفية ليس بالضرورة أن يتحقق في حياة مريدي التغيير، ولأجل ذلك وجدنا أن القرآن وعد بأمرين اثنين، الأمر الأول الحياة الآخرة وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين، وهو هدف إيماني غيبي للعاملين بشروط الشرع وضوابطه، والأمر الثاني التمكين في الأرض، وهو هدف استراتيجي لمجموع الأمة لا لجميعها.

وهذان الأمران أرادهما القرآن بمنهج التأني وعدم الاستعجال، فقال سبحانه: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (الأحقاف:٣٥)، وقال: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ (مريم:٨٤)، فالاستعجال في عقوبة الآخرين مرفوض في النص القرآني؛ لأن الدنيا دار أسباب ومسببات لا دارُ جزاء وعقاب.

كما أن الاستعجال في جني ثمار التغيير مرفوض للسبب ذاته، كما قال سبحانه: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (طه:١١٤)، على أن وقفة المفسرين مع هذه الآية كانت بتفسير النهي عن التعجل بالقرآن بتعجل قراءته، حيث فسروها بالآية الأخرى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة:١٦-١٩)، والآية تدل في مضامينها على أمر آخر - بالإضافة إلى النهي عن تعجل قراءة القرآن؛ للتمكن

من فهمه لا ختمه -، وهو تعجل تطبيق القرآن، أي: تعجل نزول النصر والتمكين للشريعة، وسياق الآيات يبرهن على هذا المقصود، ففي لحاق هذه الآية يقول سبحانه مذكراً بصنيع آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (طه:١١٥-١٢٣).

فالعهد عهد الالتزام بترك الأكل من الشجرة، والفعل فعل التعجل، والهدف شجرة الخلد وملك لا يبلى، وهذا هو هدف التعجل عند جميع العاملين، شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى، حب الدنيا وكراهية الموت، الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالوهن، وهو ما تعيشه الأمة اليوم بالهبوط عن رتبة الريادة الحضارية، فالسبب في التعجل حب الدنيا وكراهية الموت، والسبب في التأني والصبر حب الموت وكراهية الدنيا، وهي معادلة لا يفهمها حق الفهم إلا من سلك درب التهذيب والتربية، وكان له مع الله سبحانه وتعالى ليالي تملأ قلبه نوراً وإيماناً.

ولذلك فإن التعجل يهدم الأسباب الموصلة، ويعرقل المسيرة الصحيحة، ويقطع السبيل، والله سبحانه وتعالى ضرب لنا المقصد السليم الذي أراده موسى عليه السلام عندما عجل إلى ربه لنيل رضوانه فقال: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ

يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (طـه:٨٣-٨٤) فكانـــت النتيجـــة: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ (طه:٨٥)، وهذا شأن المجتمعات التي تراكمت عليها ثقافة الذل والهوان، فليس من السهولة التخلص منها بأدنى إصلاح، يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في صنيع موسى عليه السلام مع بني إسرائيل:

«وَقَدِ اسْتَخْلَصَهُمْ مِنَ الذُّلِّ وَالاسْتِعْبَادِ، لِيَصُوغَ مِنْهُمْ أُمَّةً ذَاتَ رِسَالَةٍ، وَذَاتَ تَكَالِيفَ.

وَلَكِنَّ الاسْتِعْبَادَ الطَّوِيلَ وَالذُّلَّ الطَّوِيلَ فِي ظِلِّ الْفِرْعَوْنِيَّةِ الْوَثَنِيَّةِ كَانَ قَدْ أَفْسَدَ طَبِيعَةَ الْقَوْمِ وَأَضْعَفَ اسْتِعْدَادَهُمْ لاحْتِمَالِ التَّكَالِيفِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ؛ وَتَرَكَ فِي كِيَانِهِمُ النَّفْسِيِّ خَلْخَلَةً وَاسْتِعْدَادًا لِلانْقِيَادِ وَالتَّقْلِيدِ الْمُرِيحِ.. فَمَا يَكَادُ مُوسَى يَتْرُكُهُمْ فِي رِعَايَةِ هَارُونَ وَيَبْعُدُ عَنْهُمْ قَلِيلا حَتَّى تَتَخَلْخَلَ عَقِيدَتُهُمْ كُلُّهَا وَتَنْهَارَ أَمَامَ أَوَّلِ اخْتِيَارٍ. وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ اخْتِبَارَاتٍ مُتَوَالِيَةٍ وَابْتِلاءَاتٍ مُتَكَرِّرَةٍ لإِعَادَةِ بِنَائِهِمُ النَّفْسِيِّ. وَكَانَ أَوَّلُ ابْتِلاءٍ هُوَ ابْتِلاؤُهُمْ بِالْعِجْلِ الَّذِي صَنَعَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ: قَالَ: فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ، وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ وَلَمْ يَكُنْ لَدَى مُوسَى عِلْمٌ بِهَذَا الابْتِلاءِ، حَتَّى لَقِيَ رَبَّهُ، وَتَلَقَّى الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى، وَبِهَا الدُّسْتُورُ التَّشْرِيعِيُّ لِبِنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنَاءً يَصْلُحُ لِلْمُهِمَّةِ الَّتِي هُمْ مُنْتَدَبُونَ لَهَا.

وَيُنْهِي السِّيَاقُ مَوْقِفَ الْمُنَاجَاةِ هُنَا عَلَى عَجَلٍ وَيَطْوِيهِ، لِيُصَوِّرَ انْفِعَالَ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلامُ - مِمَّا عَلِمَ مِنْ أَمْرِ الْفِتْنَةِ، وَمُسَارَعَتِهِ بِالْعَوْدَةِ، وَفِي نَفْسِهِ حُزْنٌ وَغَضَبٌ، عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ أَنْقَذَهُمُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الاسْتِعْبَادِ وَالذُّلِّ فِي

ظِلِّ الْوَثَنِيَّةِ؛ وَمِنْ عَلَيْهِمْ بِالرِّزْقِ الْمُيَسَّرِ وَالرِّعَايَةِ الرَّحِيمَةِ فِي الصَّحْرَاءِ؛ وَذَكَّرَهُمْ مُنْذُ قَلِيلٍ بِآلائِهِ، وَحَذَّرَهُمُ الضَّلالَ وَعَوَاقِبَهُ. ثُمَّ هَا هُمْ أُولاءِ يَتَّبِعُونَ أَوَّلَ نَاعِقٍ إِلَى الْوَثَنِيَّةِ، وَإِلَى عِبَادَةِ الْعِجْلِ»![1].

فالأمة اليوم إذا ما أقدمت على مشروع التغيير بالتعجل المحجوج بنيل رضا الله تعالى، فإن الانتكاسة الدينية ستعاودها من جديد، فلا بد من التخلص من مجموعة النظم الثقافية، والمسطحات الاجتماعية الباهتة، والعادات الموروثة المأزومة، وأخلاق الذل والهوان في اللهث وراء الحياة الدنيا، لتكون الأمة مؤهلة للدخول في سباق النهضة الحضارية الشاملة على شرط الشرع لا على شرط غيره، فتقطف الثمار وقت نضوجها؛ لتؤتي حقها ومستحقها يوم الحصاد العظيم.

وهذا ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم عندما طلب منه أصحابه رضوان الله عليهم بالاستنصار لهم ودعوة الله لهم، فقال: **«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَحَضْرَمُوتَ مَا يَخَافُ إلا اللَّهَ تَعَالَى وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ»**[2].

فطلب الصحابة رضوان الله عليهم طلب مشروع، وهو ينبئ عن حجم المعاناة التي كانوا يقاسونها، لكن النبي صلى الله عليه وسلم ما أراد ذلك منهم؛

---

(١) **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة – جمهورية مصر، ط١٧، ١٤١٢هـ، ج٤، ص٢٣٤٧.

(٢) **سنن أبي داود**، كتاب الجهاد، باب في الأسير يكره على الكفر، حديث رقم: (٢٦٥١)، ج٣، ص١.

لأنه يعلم أن هذا الاستعجال يحمل في طياته قلة صبر، وانعدام حيلة، فإذا ما تحقق النصر وحصل التغيير استعجالاً وخروجاً عن دائرة الأسباب؛ فإن ذلك سيترك أثره غير المرضي في حياة الأمة في قابل أيامها، وهو ما يعكس عمق الفهم النبوي لأبعاد الرسالة بما أوحى الله إليه، وهو ما تَثْبُتُ به ركائز الأمور ومجرياتها، ويتبين المنهج بمنطق الأسباب والمسببات؛ ليصح فيما بعد منهج الاقتداء والتأسي في البناء الحضاري، دون أن يقدح في ذلك معجزات الأوائل، بما يوقف العملَ ادعاءُ عجز الأواخر.

البعد الرابع: اليقظة لمجريات الأحداث:

تعرضت الأمة عبر مسيرتها الطويلة لفتن وابتلاءات عظيمة، وما تزال تتعرض لفتن جديدة تتطور بتطور الأعداء، وتتجدد بتجدد نشاطهم، وتزداد عمقاً ودقة بزيادة فهمهم لشخصياتنا، وإدراكهم للمخطط البياني الذي وصلته الأمة بمجموعها العام، وفهمهم لمستوى الأخلاق الحضارية ومدى حضورها في السلوك العام للمسلمين أفراداً وجماعات، وهم ينظرون إلى هذه المعطيات بعين، وينظرون بالعين الأخرى إلى الأسباب التي قد يكون من شأنها أن تغير المعادلة، وتقلب الموازين بسرعة مباغتة، فتبهتهم كالقيامة، وهذا ما هو كائن حين يلتزم المسلمون المنهج الواضح في كتاب الله تعالى، ويفعِّلونه في واقعهم وحياتهم، الذي أحدُ أهم أولوياته اليقظةُ للأحداث المحدقة بالأمة.

ومن يتابع المستجدات «الفكرستخباراتية» في الغرب ليشهد ذلك التعاون عندهم بين المؤسسة الأمنية والمعاهد الفكرية والجامعات في توظيف المؤسسة العلمية لصالح المؤسسة الأمنية، وما ذلك السيل الجارف من الدراسات الأكاديمية،

والأطروحات الجامعية إلا بعض الخبيء، وأنت ترى أن الدراسات الغربية في عالمنا الإسلامي تتكاثر؛ فهذه دراسة جامعية يتقدم بها طالب للحصول على درجة أكاديمية في العلوم السياسية، أو الدراسات الاستراتيجية، أو علم القانون، وتلك دراسة فكرية تتخصص في دراسة ظاهرة من ظواهر الفكر الإسلامي المعاصر، وتلك دراسة اجتماعية تدرس دوافع سلوك جماعة من الجماعات الإسلامية، وتلك دراسة إحصائية تجمع بيانات إحصائية ميدانية دقيقة حول مجموعة من أعلام الفكر المعاصر، بحجة أخذ الآراء وتطوير ثقافة الحوار والتواصل مع (الآخر)!!!

والعجب أن كثيراً ممن ينتمي للعمل الإسلامي، ممن يدعي الوعي على مجريات الأحداث يدخل هذا المأزق من أوسع أبوابه، بل يسارع فيهم ليكون من الرجال المشاهير في نظر الجماهير، وهو من الإثم العظيم الذي يهتك عِرض العمل النهضوي قبل ميلاده، ويكشف وجهه قبل انتقابه، وهو من الانهزام النفسي الذي يكشف الوجه غير المرغوب في أصحاب المشروع التربوي الإسلامي، الذي يحتاج إلى التجديد على مستوى الوعي العام والخاص.

وهذه اليقظة التي تجب في عنق كل عامل لها مجموعة من المقاييس المعتبرة شرعاً، منها أن لا يُقدم أصحاب المشروع الإسلامي على مغامرة تخالف المنهج الشرعي، وأن يلتزموا الصمت في فرعيات الخلاف الفكري والمذهبي والدعوي والسياسي، وأن يركز أصحاب مشروع التغيير في عملهم ودعوتهم على المسائل الإجمالية التي تخدم على المستوى القريب، وتزرع الأخلاق على المستوى البعيد، وتقوي شوكة الثبات على المبادئ والمقاصد، فطبيعة المرحلة التي نمر بها لا تحتمل ذلك الاختلاف الذي ينمي الأفكار المأجورة، والثقافات المقلدة، والأنماط الغربية،

وإن لم نكن على حذر عند إرادة النهضة في بناء الأمة الوسط وإعدادها؛ فإن سهام الخديعة ونصال المكر ستصوب في النحر، وسيتكاثر الأكلة على قصعة فارغة المضمون والمحتوى.

البعد الخامس: بناء منهج متكامل في التعامل مع الكليات والجزئيات:

الدعوة إلى التركيز على الكليات دون العناية بالجزئيات مطلقاً دعوة تفتقر إلى دقيق النظر، وتكامل الرؤية، والدعوة إلى إقامة المسائل الفرعية وجزئيات الأعمال دعوة ينقصها طول التأمل في فقه الأولويات، وما تقتضيه المرحلة من مستجدات، والناس في هذا المجال على طرفي نقيض، والحق أن الذي تتطلبه المرحلة الراهنة الدعوة إلى كليات الإسلام مع العناية بالفروع التي لا يتحقق المنهج إلا بها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون:٦٢)، ويقول في آية الأعراف: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الأعراف:٤٢)، فالمطلوب هو تطبيق ما تستطيعه النفس المسلمة من تكاليف، ومناط ذلك متعلق بطبيعة المرحلة، فما يكون في الوسع في زمن، يضيق في زمن آخر، هذا ما راعته الشريعة في منهج التشريع، والتدرج في إنزال الأوامر والنواهي حسب المصلحة الشرعية، وحسب السعة الممكنة في التطبيق.

فالمنهج الصحيح تطبيقُ فروع الشريعة التي يستطيعها المسلمون اليوم، والدعوة إلى الكليات الغائبة عن منهج الحياة، وهذا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته المكية، بل هذا ما صنعه في بدايات نزوله المدينة، فلم يكن ليتابع الناس على الصغائر، بل كان يتغافل عن بعض الكبائر قصداً، تيسيراً على

الناس ليحصل التمكن وتتم الرعاية، والله سبحانه يقول: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٨٧)، فالدعوة حينئذ تتخلص إلى الكليات والأصول، ولكل زمن كليات وأصول تقتضيها طبيعته، لا يعيها ولا يفهم حقيقتها إلا العلماء العاملون، فمعرفة الكليات من الفروع مما يختلف فيه الناس في هذا الزمن، فكان بعض من لا يفقهون أن قاسوا المجتمع الحالي بالمجتمع النبوي بأرقى صوره، فنجدهم يطالبون الناس بتطبيق فروع فروع الفروع، التي قد فوّتها بعضُ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن المتابعة بحجة الالتزام بالسنة، وما علموا أنهم أتوا منكراً من القول وزوراً بمخالفتهم للسنة النبوية في منهجها الكلي وتصورها العام.

فالمنهج السديد الذي أرسى قواعده الأنبياء والمرسلون، واقتدى به رسولنا صلى الله عليه وسلم هو منهج الدعوة إلى التوحيد في تصوره الإيماني والحضاري والفكري والثقافي، والدعوة إلى أصول الإسلام وكلياته في بنائه الهدائي والأخلاقي والتربوي، ومنهج بناء الشخصية الإسلامية النقية المتجردة، التي تستطيع حمل لواء الإسلام في صعيده الحقيقي في مرحلة ما قبل البناء والإعداد للأمة الوسط، ولن تكتمل خطوات بناء المنهج إلا بفقه الواقع ضمن وسائل فقه التغيير وأدواته، ومعرفة الفروق الجوهرية بين مجتمعاتنا اليوم ومجتمع النبوة الحضاري، وما يترتب على تلك الفروق من أحكام ودلالات، وبالوقوف على التصور الإسلامي في بناء الأمة الوسط المؤهلة للتغيير الحضاري بجميع الأبعاد الفكرية والثقافية والتربوية والسياسية والعلمية.

المبحث الرابع

منهج النبوة في التغيير

المنهج النبوي في التغيير منهج عام شامل تنبع عظمته من عظمة تعامل الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، وحسن دعوتهم إلى الإسلام والإيمان، وقدرتهم على إرساء قواعد التغيير والإصلاح بأمثل الصور وأوضح الأساليب والبينات، سواء تحقق التغيير عند دعوة الأقوام أم لم يتحقق[1]؛ فالعبرة كامنة في صحة العمل لا في ثمرته، وفي صوابه لا في نتيجته، إذ الكل يعمل ضمن بناء متكامل من الدعوة والإصلاح، وهي حلقات متسلسلة آخذ بعضها بعُرى بعض، فلا ينحصر المنهج النبوي في دعوة نبي دون سواه، وإنما يعم المنهج ولا يخص، هذا ما أراده القرآن في عرضه لدعوة الأنبياء والمرسلين، وهذا ما أفاد منه إمامهم صلوات ربي وسلامه عليه.

---

(١) لم يتحدث القرآن في عرضه لقصص الأنبياء والمرسلين عن تحقق النصر والإصلاح والتغيير، وهذه قضية مثار دراسة وبحث، والقارئ لقصص السابقين في كتاب الله تعالى يرى نزول العقوبة والعذاب بالمكذبين في غالب الأحوال، ولا يرى تحقق الإصلاح فيما بعد، وهنا يأتي السؤال الطبيعي وهو: ما مصير الأنبياء ومن آمن من أقوامهم بعد نزول العذاب؟ هذا ما أثر القرآن إجماله وعدم الدخول في تفصيلاته – في الغالب الأعم –، والإجمال منهج قرآني له دلالته العظيمة التي تكمن في توجيه إهمال الاهتمام في ثمرة النصر والظفر؛ لأن الإنسان مجبول على حب الدنيا بفطرته، والنصر وإن كان على منهج الحق والخير إلا أنه من الدنيا – وليس في ذلك ذم للدنيا في هذا السياق –، فتوجه القرآن إلى إثبات النفوس على الآخرة؛ لأنها الطريق الحقيقي في إيجاد المنظومة الحضارية على مراد الشرع، ومن ثم فإن تحقيق التغيير آتٍ بعد نفاذ وسائله في الأقوام أنفسهم، وهذا هو مفهوم الاستخلاف الجذري، ويقابله في شريعتنا الاستبدال الحضاري – عافانا الله من عاقبته –؛ لأن العذاب العام والعقوبة الماسحة غير متحققة في هذه الأمة.

وقد حمل بعضهم مفهوم المنهج النبوي على المنهج النبوي المحمدي، غاضاً طرفه عن دعوة الأنبياء والمرسلين في كتاب الله تعالى، ظاناً أن منهجهم منحصر في تلك الأقوام البائدة، قياساً على الأحكام والشرائع، والحق أن المنهج النبوي له معنيان اثنان، معنى عام يشترك فيه جميع الأنبياء والمرسلين، ومعنى خاص يخص نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم.

فالمنهج الذي يشترك فيه جميع الأنبياء هو منهج الدعوة إلى التوحيد باعتباره الغاية العظمى، والعروة الوثقى، والمقصد الأعظم كما قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران:٩٥)، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء:١٢٥)، وقال: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:١٦١)، وقال مبيناً وجوب اتباع ملة إبراهيم وجزاء الراغب عنها: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (البقرة:١٣٠).

فملة إبراهيم عليه السلام هي دين التوحيد والهداية التي لا يقبل الله سبحانه سواها، وهي الملة التي ينبع من أكمتها منهج التغيير والإصلاح، الذي سار عليه جميع الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم إمامهم صلوات ربي وسلامه عليهم جميعاً، بخلاف الشرائع فهي مما يختلف الأمر فيها «لأن الشرائع العملية وطرق التزكية الأدبية تختلف باختلاف أحوال الاجتماع واستعداد البشر؛

وإنما اتفق جميع الرسل في أصل الدين، وهو توحيد الله وإسلام الوجه له بالإخلاص والإحسان»[1].

وقصرُ المنهج النبوي على مفهومه الخاص مع إهمال المنهج النبوي بمفهومه العام المسطور في كتاب الله تعالى لهو من تضييع الخير، والتغافل عن الحق، كيف لا؟! ومنهج النبي صلى الله عليه وسلم آتٍ من نور قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ٩٠)، فاقتداء النبي صلى الله عليه وسلم بالرسل السابقين هو اقتداء في منهجهم في الدعوة والتغيير لا في الشريعة والأحكام، يقول رشيد رضا: «الصواب أن المراد بالاقتداء هنا موافقة سنتهم وسيرتهم في دعوة أقوامهم إلى الدين والصبر على أذاهم، وغير ذلك من خلائقهم الحسنة التي بينها الله تعالى في سيرتهم، كما قال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ (هود: ١٢٠)، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ (الأحقاف: ٣٥) أي: ولا تستعجل لقومك العذاب، كما استعجل بعضهم»[2].

ولذلك وجب التنبيه على أننا لا نقتصر في كلامنا على المنهج النبوي في التغيير على ما جاء في السنة فحسب، وإنما نستقيه من نصوص الوحي عموماً كتاباً وسنة، وإن تعجب فعجب صنيع بعضهم أن يستدل بالسنة الناقلة لمناهج الأنبياء السابقين – على أنها سنة – في التغيير ويجعلها من المنهج النبوي،

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٦، ص٣٤١-٣٤٢.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٦، ص٣٤٤.

ولا يستدل بالقرآن الذي بيَّن وأفصح مناهج الأنبياء في التغيير!! وهذا نابع بطبيعة الحال من الفصل بين الكتاب والسنة في عقلية بعض الاتجاهات الفكرية، دون أدنى شعور منهم أنهم يمارسون أعلى درجات الفصل بين مصدري الوحي، مما يُلحق النظرَ في النصوص تشويشاً ليس بالغريب أو البعيد عن المتابع الحصيف.

وأضف على ذلك أن الاقتداء بسنة الأنبياء هو اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، مع ملاحظة الفروق بين كل نبي وآخر في الفرعيات والجزئيات، وقد بيَّن القرآن سنن الأنبياء والمرسلين في دعوة الأقوام؛ فاتفق الجميع على أمر واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده دون سواه، ثم تباينت الدعوات بناءً على فقه الأولويات من جهة، وفي ملاحظة حجم الفساد المستشري في كل قوم ونوعه من جهة ثانية، فهذا نبي الله نوح عليه السلام دعا قومه أولاً إلى توحيد الله فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (هود:٢٥-٢٦)، ثم بعد ذلك كان من أولى الأولويات محاربة الطبقية في قومه، فهي الفساد المستشري، وهي الطامة الكبرى التي طرأت على البشرية في وقت مبكر في التمييز بين الأغنياء والفقراء؛ فقال سبحانه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود:٢٩-٣١)، فكانت

أولوية الدعوة في معالجة هذا الشكل من الفساد، الذي انعكس بدوره في رفض دعوة الحق، فالمانع كبر الطبقية، كما أن المانع عند غيرهم وجود المال والشح في إخراجه.

وهذا نبي الله هود دعا قومه إلى التوحيد أولاً: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود:٥٠)، ثم دعاهم إلى ترك العجب بقوتهم وتفوقهم وتقدمهم في الوسائل المادية التي أدت إلى الطغيان والإشراك بالله تعالى، فبدأ ببيان أصل هذه النعمة والقوة فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود:٥٢)، ثم بين أن هذه القوة منتهية إلى عذاب عظيم إن هم بقوا على طغيانهم واستكبارهم؛ فقال سبحانه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء:١٢٨-١٣٥)، وقال مبيناً موقفهم من الدعوة الجديدة في الاستكبار ورفض الخضوع والانقياد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (فصلت:١٥).

وقد كانت دعوة صالح عليه السلام قريبة من دعوة هود عليه السلام في ملاحظة فقه الأولويات؛ لتقارب الزمان والمكان والطباع، فقال سبحانه في أصل الدعوة: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف:٧٣)، وقال: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود:٦١)، وقال في بيان الطغيان والفساد الذي بلغوه بعد استعمار الله لهم في الأرض: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء:١٤٦-١٥٢)، وقال في بيان فسادهم وسكوتهم عليه: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (النمل:٤٨)، فالطغيان والفساد هو السوء المستشري في ثمود، فكان فقه التغيير يستوجب تقديمه في المعالجة على غيره.

وأما شعيب عليه السلام فنجد اختلافاً في شكل فقه الأولويات ومضمونه في دعوته، فتركزت الدعوة بعد الدعوة إلى التوحيد في علاج الفساد الاقتصادي، فقال سبحانه: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا

ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هـود: ٨٤-٨٨)، وقـال سبحانه: ﴿ ۞أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء: ١٨١-١٨٣) فـدعوة شـعيب عليـه السـلام تركـزت علـى الإصـلاح الاقتصـادي؛ لأنـه الفسـاد المستشري في قومه؛ فوجب حينئذ أن يكون على رأس الأولويات في الدعوة.

وأمـا دعـوة موسـى عليـه السـلام فـإن الحـديث حولهـا يطـول ويطـول، فهـي جـاءت لتعـالج الطغيـان والتعـدي علـى الألوهيـة والربوبيـة؛ وجـاءت لتقلـب السـحر على السـاحر، فقـد كـان السـحر هـو أحـد أدوات الطغيـان في ذلـك العصـر، فقلـب موسى عليه السلام الأمر عليهم بقدرة الله تعالى، وجاء كذلك ليخرج بني إسرائيل من صفات الهوان والذل والضعف، إلى صفات الكرامة والعزة والقوة.

وأمـا عيسـى عليـه السـلام فجـاء ليعـالج مجموعـة مـن الأخـلاق الفاسـدة في قومه، والقناعات الكاذبة، بالإضافة إلى التقدم العلمي والطبي الذي أدى إلى حالة من الثقة الزائدة، إلى حد الطغيان ومجاوزة الحد.

وهكذا جميع الأنبياء والمرسلين، كلٌّ منهم ركَّز في دعوته على محور، وجعل بقية المحاور تابعة للمحور الأصل بعد التوحيد.

وأمـا دعـوة النـبي صـلى الله عليـه وسـلم فإننـا نلاحـظ أنهـا اختلفـت في فقـه الأولويات، وفي طبيعة الموضوعات المطروقة والمطروحة، فكان منهج دعوته متناسباً مـع زمـانه ولا يعـني هـذا ضـرورةً أن يتنـاسب في جميـع تفصيـلاته وأسـاليبه وأدواتـه مـع الأزمـان الـتي تليـه، بـل يكفـي أن تتفـق المقاصـد والغايـات، والخطـوط

العريضة في المنهج، وعلى رأسها ملاحظة ما يحتاجه كل زمن وعصر، وهذا ما طبقه نبينا صلوات ربي وسلامه عليه حين استقى منهجه من منهج الأنبياء في القصص القرآني، والله لم يقصص عليه القصص إلا للاعتبار والاتعاظ، فالمنهج النبوي بمعناه الخاص ما هو إلا الترجمة الحقيقية لمنهج الأنبياء في التغيير والبناء الحضاري للأمة الوسط، التي لا يقتصر مفهومها -كما سبق بيان ذلك- على الأمة المحمدية فحسب، وإنما يتعداه إلى كل أمة أرست قواعد الإسلام تطبيقاً وتصوراً وعملاً.

وهنا يلزمنا الوقوف على مسألة ضرورية في المنهج، وهي طبيعة الموضوعات التي طرحها القرآن في العهد المكي وركَّز عليها، كموضوع البعث، ووأد البنات، وظلم النساء – بشكله الجاهلي -، وبعض مظاهر الشرك، وغيرها من الموضوعات التي عالجها القرآن في تلك المرحلة، فهي موضوعات ارتبطت بطبيعة المرحلة التي بُعث فيها صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة، ونجد أن القرآن أعطاها كامل الأولوية إلى أن استقر أمر الإسلام في المدينة، وبدأ التركيز على موضوعات أخرى لها ارتباط بالواقع الجديد، وهذا يدل على أن منهج التغيير مرتبط بالواقع ضمن سُلَّم الأولويات، وهذه الأولويات تحددها المرحلة ومتطلباتها بما يحقق مقصود العبادة ببعدها الحضاري.

فمنهج التغيير في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم كان خاضعاً لمجموعة من المعايير التي تولى سياسة الإرشاد فيها الوحيُ من حين لآخر، والدارسُ لكتاب الله تعالى من هذه الزاوية يجد أن كثيراً من الآيات القرآنية نزلت مصباحاً منيراً في خطوات الدعوة وتدرجها.

وإن كان لي من رأي في هذا المقام فإني أرى أن بعض الآيات المتعلقة بدعوة الأنبياء من حيث الأحداث، كانت لها فائدتها العظيمة وأثرها الكبير في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ففيما يتعلق بالحياة الدعوية الخاصة للنبي صلى الله عليه وسلم، نجد أن آياتٍ قرآنيةً نزلت كان لها كبير الأثر في إنقاذه عليه الصلاة والسلام من الموت، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل:٤٨-٥٠)، وهي تتوافق مع الحادثة التي حصلت له عليه الصلاة والسلام حين اجتمعت قريش في دار الندوة ومكرت بالنبي عليه السلام أن يأتوا من كل قبيلة بشاب كي يتفرق دمه بين القبائل[1]، فالحدث عين الحدث، والإنجاء عين الإنجاء، وهذا من عناية الله تعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم، وهذه الرعاية الإلهية للنبي صلى الله عليه وسلم ما كانت إلا ببركة اتباع منهج الأنبياء المتقدمين، ولن يصلح حالنا إلا بما صلح به الجيل الأول ممن اتبعوا المنهج على عين القرآن ونوره، فصدق فيه صلى الله عليه وسلم قولُه تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ (طه:٣٩).

ولا يخفى على مطَّلع متأمل في الأحداث الدعوية، والحركات النهضوية، والجماعات الإسلامية، وما يطرأ على الساحة من مستجدات، وما يرتبط بذلك من ألم البعد عن فهم المراد من حقيقة الارتباط بالمنهج النبوي، بأبعاده الهدائية والإيمانية والأخلاقية والتربوية والحضارية، أنَّ ما يعانيه المسلمون اليوم بسبب

(١) يُنظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ج٣، ص٥-٨.

ما كسبت أيديهم، وما تلك الثقة الغريبة من نوعها، وما ذاك الطغيان العجيب في مادته، وما أمر التكبر والعتو في المراس الدعوي عند بعض أرباب الدعوة وقادتها، إلا مظهر من مظاهر البعد عن الالتزام بالمنهج النبوي في مادته وأسلوبه.

ونستطيع أن نلخص معالم المنهج النبوي في فقه التغيير في مجموعة من النقاط الأساسية، وهي كالآتي:

أولاً: الدعوة إلى التوحيد هي القاعدة العظمى التي يتأسس عليها المنهج، وهي السلك الناظم لمفرداته، وهذه القاعدة لا تختلف باختلاف الأزمان والأحوال، فهي ثابتة في محورها وفي مبدئيتها وفي حضورها، وإن كان هناك من تغيير فهو في طريقة العرض، وأسلوب الطرح، وفي التركيز على موضوعات التوحيد بما يتوافق مع حاجة المجتمع، ولا يختلف أصل ذلك باختلاف دعوات الأنبياء والرسل، والله يقول: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (الممتحنة: ٤).

ثانياً: ارتباط المنهج النبوي بمجموعة من الموضوعات القابلة للتغيير بتغير الأحوال، كما هو الأمر واضحٌ وبيِّنٌ في الفرق بين موضوعات المرحلة المكية والمرحلة المدنية، وهذا يلقي بظلاله على فقه التعاطي مع الموضوعات المستجدة، وهذا ما تجب ملاحظته عند التخطيط للموضوعات التي يجب إبرازها والتركيز عليها؛ لأن ما تدعو إليه الحاجة المجتمعية هو المُقدَّم في الحس الدعوي بل الاجتماعي والحضاري.

ثالثاً: المنهج النبوي ليس خاضعاً لأحكام قانونية فقهية ثابتة جامدة، فقد استقر في أدبيات كثير من دعاة التغيير والإصلاح، أن المنهج النبوي هو عبارة عن قوانين يجب الالتزام بها عند الدعوة، ثم انتقل الأمر إلى خطوة خطيرة في هذا المجال وهو تدوين أدبيات فهم المنهج النبوي، ثم تتطور هذا الأمر إلى مرحلة تشبه حالة التقديس لأدبيات عمرها عقود طويلة، مما سبَّب حالةً من العجز الفكري في طرح الجديد، ومزاجيةً غريبةً في التعصب لطرق الدعوة وأساليبها.

رابعاً: حضور السلوك الروحي والأخلاقي والتربوي في منهج التغيير الحضاري، فالقاعدة الأساسية التي يُبنى عليها منهج التغيير الاستعداد الروحي للقائم بالتغيير، والله سبحانه وتعالى لم يرسل نبياً أو رسولاً إلا بعد أن بلغ أشده، وبلوغ الأشد لا يكون إلا ضمن المنهج التربوي الروحي، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٢٢)، ويقول: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (القصص:١٤)، وهكذا كل نبي، إنما أرسله الله سبحانه وتعالى بعد أن قَبِل تربيته وسلوكه، وقد نُقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي**»[1]، فالحضور السلوكي والأخلاقي والروحي أساس من أساسيات المنهج النبوي، ولا يقبل الله عملاً إلا إذا كان مبنياً على هذا الأساس من العمل.

وقد نقل الأئمة حديثين في منهج التغيير النبوي، أُديرت عليهما عجلة الفهم، أما الأول فهو ما رواه مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال:

---

(١) يقول ابن تيمية في هذا الحديث: «المعنى صحيح، لكن لا يعرف له إسناد ثابت»، ينظر: **مجموع الفتاوى**، ابن تيمية، ج١٨، ص٣٧٥.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»[1].

وأما الثاني فهو ما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»[2].

فهذان الحديثان يبينان أن تغيير المنكر واجب شرعي في رقبة كل مؤمن، وأن من مستتبعات الإيمان تغيير المنكر كما قال ابن تيمية: «فَعُلِمَ أَنَّ الْقَلْبَ إذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ؛ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنْ الْإِيمَانِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِهِ الثَّوَابَ»[3]، وكذلك من مستتبعات التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم تغيير المنكر، والحديثان فيهما من التفصيل الدقيق الذي لا يخفى على ذي لب وعقل، وألفاظ الحديث ناطقة بالخير الإيجابي الفعال، وناطقة بالتغيير الفعلي والقولي، كما أنها ناطقة بحكمة التغيير الصامت، إذ الصمت في كثير من الأحيان قوة مغيِّرة

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح مسلم، مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم الحديث: (٨٠)، ج١، ص٦٩.

(٣) الإيمان، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، دراسة وتحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، عمان – الأردن، ط٥، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، ج٢، ص٥٨.

للواقع الفاسد، يقول سيد قطب: «وإنكار القلوب لوضع من الأوضاع قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنكر، ولإقامة الوضع المعروف في أول فرصة تسنح، وللتربص بالمنكر حتى تواتي هذه الفرصة، وهذا كله عمل إيجابي في التغيير، وهو على كل حال أضعف الإيمان، فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان! أما الاستسلام للمنكر لأنه واقع، ولأن له ضغطاً - قد يكون ساحقاً - فهو الخروج من آخر حلقة، والتخلي حتى عن أضعف الإيمان»![1].

وإن كان لي من كلمة في بيان معنى «أضعف الإيمان» الواردة في الحديثين فأقول: إن هذا البيان النبوي يحتاج إلى شرح وتفصيل، والفهم الدارج لهذه الجملة وهو أن أضعف الإيمان صفة للقائم بالتغيير القلبي، فَهْم يُعوزه شيء من التدقيق والنظر، فقد أثَّر هذا الفهم على الشباب المعاصر فكان لهم اتجاهان اثنان، اتجاه فيه من الانفعال والتسرع والتطرف ومجاوزة الحكمة في التغيير، فلجأ إلى التغيير بقوة فردية، وبتوجه ذاتي، فوقعت الصدامات على جميع المستويات، وتعدى أولئك حقوقهم فركبوا متن التغيير من غير سلمه، وقادوه في عرض المحيط الهائج ليبتلعهم، فسببوا لمن بعدهم أفانين المشاكل والانتقادات مما لا يخفى على متابع؛ فكانوا كصبية المدارس، الجالبين التعب والهم، والمنادين على الحزن والغم.

ونشأ اتجاه آخر شعر بأنه من أصحاب الحلقة الإيمانية الأضعف، فظن أولئك أنهم المتخاذلون المتقاعسون الضعفاء الجبناء، فتولَّد في نفوسهم انكماش وانطواء على الذات، فأصبحت أحكامهم ونظرتهم تابعةً لنفسيتهم، فولَّدوا لنا أفكاراً مريضة خانعة، تحتاج إلى معالجات نفسية قبل المعالجات الفكرية، على أن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٢، ص٩٥١.

العلاج يبدأ بالفكر لا بالنفس، وهذا كله آتٍ من عدم تدبر كلام الأوائل، وضعف الهمة في التفصيل والبيان، والحق أن التوسط والاعتدال هي لهجة الحديث وسَمْته، وهو من الأحاديث التي تولت التفصيل العلمي المبني على طرد سلوك التطرف والتخاذل برعاية وحكمة، فالحديث مرتبط بمرحلة الإسلام الأولى، وبمرحلة منازعة الأمر أهله من الحكام المسلمين، لا في مرحلة ذهاب الدين من التصور والشعور والتطبيق، وقد سبقت الإشارة إلى كلمة شيخ الإسلام في هذا الباب، حيث قال: «وأيضاً لو فُرض أن الناس لا يترك أحد منهم هذه المشابهة المنكرة – أي: مشابهة أهل الكتاب –؛ لكان في العلم بها معرفة القبيح والإيمان بذلك؛ فإن نفس العلم والإيمان بما كرهه الله خير وإن لم يُعمل به، بل فائدة العلم والإيمان أعظم من فائدة مجرد العمل الذي لم يقترن به علم»[1].

والأمر في هذا الزمن قريب مما قاله شيخ الإسلام، فإن تغيير المنكر باليد متعذر غير مستطاع لأفراد المسلمين، والتكليف منوط بالاستطاعة، فإذا استطاع المسلم تغيير المنكر بيده ولم يفعل مع توافر شروطه، وعدل عن الإنكار باليد إلى الإنكار بقلبه فإنه آثم تارك لواجب، كما أن من أراد تغيير منكر بيده وهو غير مستطيع مع علمه أنه يلحق ذلك التغييرَ منكرٌ أعظم فإنه آثم مرتكبٌ لحرام، فتبين بذلك أن استطاعة التغيير هي مناط التكليف لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ (البقرة:٢٨٦)، وأن من خالف شرط الاستطاعة مع تحقيق المفسدة فإنه آثم، سواء بالفعل أم بالترك، بل من استطاع الإنكار باليد وعدل إلى اللسان فإنه مرتكب لإثم، وأفضل منه

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، ص٤٥.

من لم يستطع الإنكار إلا بقلبه وفعل الإنكار بقلبه، فمناط التكليف الاستطاعة، فكان الحكم على إيمان المسلم بمدى التزامه التكاليف المفروضة عليه بشروطها وقيودها، لا بإطلاقها وعمومها.

ولو قلنا: إن المقصود بضعف الإيمان الوارد في الحديث ضعف إيمان القائم بالتغيير القلبي؛ لكان غير المستطيع أقل أجراً من المستطيع، وهذا لا يقول به عالم فضلاً عن عاقل! ففعل الممكن المُستطاع هو الذي ينبني عليه التكليف والأجر لا فعل المستحيل غير المستطاع، وإلا لكان مغير المنكر بيده في بيته أفضل ممن غيره بلسانه عند سلطان جائر، ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول: **«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ، فَنَهَاهُ وَأَمَرَهُ، فَقَتَلَهُ»**[1]، فميزان الإيمان القيام بالتكاليف الشرعية، ومعيار التكاليف الاستطاعة.

---

(١) المعجم الأوسط، الطبراني، ج٤، ص٢٣٨.

الفصل الخامس

إعادة البناء ومرتكزات النهوض

المبحث الأول

مقومات البناء «الإمكان الحضاري»

تمتلك الأمة ميراثاً من قيم العصمة والتجارب التاريخية في استخلاص العبر والفوائد في تاريخ النهضة والنكسة، ما يجعلها قادرةً على استشراف المستقبل القريب بعين بصيرة ورؤية ثاقبة، وهي مؤهلة بما تملك من إمكانيات العمل الناهض الدؤوب أن تكون في قمة الريادة الفكرية؛ لتُقدِّم مشروعاً حضارياً سابقاً للموجود المعاصر في جميع المجالات الفكرية والثقافية والتربوية والعلمية والسلوكية والمادية، وهي بذلك تكون متربِّعة على عرش الحضارات التي عرفتها البشرية منذ بزوغ فجر الحضارة.

وهذا التفوق الذي تمتلكه الأمة الإسلامية اليوم يكمن في قوتين استراتيجيتين؛ القوة الأولى قيم الكتاب والسنة، والقوة الثانية التطبيق الحضاري لهذه القيم منذ لحظة نزول نور الإسلام إلى هذا العصر، وفي القوة الثانية

وأعني بـها تاريخ الإسلام لا تاريخ المسلمين فحسب[1]، إذ إن تاريخ الإسلام

(١) التاريخ الإسلامي وتاريخ المسلمين مصطلحان بينهما وشائج وروابط، فالتاريخ الإسلامي هو الأصل والمعيار لتاريخ المسلمين، وتاريخ المسلمين نشأ وتفرع عن التاريخ الإسلامي، وهذا الفرق نابع من معرفة معنى الوصف في قولنا التاريخ الإسلامي، ومعرفة معنى الإضافة في قولنا تاريخ المسلمين، وهذان المعنيان يعينان على دقة التفريق بين المصطلحين، فعندما نريد أن نصف التاريخ بالإسلام نقول: التاريخ الإسلامي، ومعنى هذا الوصف أن التاريخ وهو الزمان الممتد الحاوي للحدث الإنساني والنشاط البشري قد اتصف بالإسلام؛ فالإسلام هو الوصف الحقيقي لهذا الزمن، فالتاريخ يتسم بمبادئ الإسلام ومعاييره الحقيقية، فعند إطلاق مصطلح التاريخ الإسلامي يُلحظ هذا الجانب من المعاني، أما تاريخ المسلمين فتعني الإضافة أنه تاريخ للمسلمين، ومادام الأمر على هذه الشاكلة فإن مضامين هذا التاريخ وما فيه من نشاط بشري وأفعال إنسانية هي للمسلمين في فهمهم للإسلام لا للإسلام باعتباره دين العصمة، والمسلمون غير الإسلام، فالإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين، وعن هذا الدين تنشأ جميع القيم والمعايير التي تصوب وتقوم السلوك الإنساني، فهو المصدر والأصل والأساس الذي ينطلق منه الإنسان المسلم في مسيرته في هذه الحياة، والمسلمون أولئك الذين آمنوا بأصول الدين الإسلامي وفروعه، ولم يلتزموا بكل ما آمنوا به، فإيمانهم هو الإسلام أو هو فهمهم للإسلام، وأعمالهم الناشئة عنهم إما أن تكون التزاماً بالإسلام وإما أن تكون غير ذلك، فمجموع أعمالهم لا نستطيع أن نطلق عليها اسم الإسلام؛ لأنها ليست الإسلام، ومن ثمّ لا نستطيع أن نصف تاريخهم بالتاريخ الإسلامي، وإنما نضيف التاريخ لهم ولأعمالهم فنقول تاريخ المسلمين؛ لأنه تاريخهم وتاريخ أعمالهم وأفعالهم، وتاريخ انتصاراتهم وانهزاماتهم، وتقدمهم وتأخرهم، وتطورهم وتخلفهم، وعلوهم وانحطاطهم، ونجاحهم وإخفاقهم، وهذا بالطبع ليس تاريخاً للإسلام أبداً؛ لأن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الخطأ أو الانهزام أو التأخر أو التخلف، فما هو التاريخ الإسلامي الذي هذه صفته؟

قلنا سابقاً: إن الإسلامي وصف للتاريخ والتاريخ هو منبع القيم والمبادئ والمعايير لتصحيح المسيرة الإنسانية، ولا تاريخ يوصف بهذا الوصف إلا تاريخ الأنبياء والمرسلين، فالتاريخ الإسلامي تاريخ الأنبياء والمرسلين، وتاريخ المسلمين تاريخ أتباع الأنبياء والمرسلين، التاريخ الإسلامي تاريخ المعصومين، وتاريخ المسلمين تاريخ غير المعصومين، التاريخ الإسلامي تاريخ الدين الحق، وتاريخ المسلمين تاريخ أتباع الدين الحق.

والذي دعاني إلى هذا التفريق بين التاريخ الإسلامي وتاريخ المسلمين ما ينشأ عن الخلط بينهما من محذورات فكرية بل حضارية، فانظر إلى تلك المحاكمات الفكرية والتاريخية لتاريخ المسلمين من قبل المفكرين المعاصرين، وانظر إلى أشكال النقد والطعن في المسيرة الحضارية للمسلمين، فإذا ما وصفنا هذا التاريخ بأنه تاريخ الإسلام وقعنا في اتهام الإسلام ونقده ونحن نقصد أتباع الإسلام، وفرق كبير بين الأمرين؛ لذا كان من الضروري التنويه على هذا الأمر كي نلتزم الدقة عند إطلاق مصطلحاتنا، وكي لا نقع في محظور فكري وشرعي.

وإذا أردنا أن نقف مع قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣٣)، فإننا نقرأ الآية قراءة حضارية ثابتة الخطى والمنهج بأن الله إنما أرسل رسوله لإظهار الإسلام على جميع الأديان، ولو أعدنا النظر كرةً أخرى فقرأناها قراءة تاريخية فماذا نرى؟!؟! نرى شيئاً مختلفاً عن تلك القراءة المطلوبة، فهناك قراءتان قراءة حضارية قرآنية ارتبطت بدين الإسلام هي الأصل، وقراءة تاريخية ارتبطت بالمسلمين هي الفرع، فتكون القراءة الأولى هي القراءة المطلوبة وهي القراءة التي سار عليها الأنبياء والمرسلون، والقراءة الثانية هي قراءة النقد لتاريخ أتباع الأنبياء والمرسلين، وإنما نحاكم القراءة الثانية على ضوء القراءة الأولى؛ لأن القراءة الأولى هي قراءة تاريخ الإسلام، والقراءة الثانية هي قراءة تاريخ المسلمين.

هو التاريخ القابل للقياس، بينما تاريخ المسلمين هو التاريخ القابل للاعتبار حال التنفيذ المنضبط بالرؤية القرآنية، والتجربة النبوية المبثوثة في تاريخ الإسلام العريض؛ ولذا فإن الإمكان الحضاري حاضر، وحضوره ثابت لا يقبل الارتباك أو الإرباك، والعبرة كامنة في التحرك تلقاء العمل الجاد لتحقيق المسيرة الاستخلافية لهذه الأمة.

ومن أساسيات البناء الحضاري معرفة مقومات البناء للأمة الوسط، إذ مدار البناء الحضاري على هذه الأمة التي امتازت بوصفها «الوسط»، وإن باتت أمةً غيرَ فاعلة، فاقدةً للوصف القرآني ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، وهذا الفقد من باب نسيان الموجود والتعامي عن المرئي لا من باب الجحود أو النكران، ومع طول أمد النسيان لوسطية الإسلام وعدالته الحضارية، كان من الواجب التربوي إعادة البناء وإزالة الأتربة عن القواعد؛ ليرفعها أتباع إبراهيم عليه السلام ممن قرأ قوله تعالى فآمن به: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٧-١٢٨)، فالقواعد التي رفعها إبراهيم عليه السلام هي قواعد البيت الذي هو عبارة عن قبلة الموحدين المصطفين، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (فاطر:٣٢)، فالمقصود بالكتاب جميع الكتب السابقة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى

على رسله[1]، وهذا يدل على شمولية الكتاب، وأنه ميراث باقٍ لا يندرس، والمصطفون هم هذه الأمة المسلمة التي هي دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (البقرة:١٢٨).

وسنقف مع مجموعة من مقومات بناء الأمة الوسط، التي تعنينا في جانب النهوض الذاتي والاستنهاض الحضاري الشامل، وهي تتمثل في مجموعة من المقومات الثابتة التي بثها القرآن في جميعه، منذ نزول الرسالة بمعناها الشامل على جميع الأنبياء والمرسلين، التي حفظها لنا القرآن الكريم بأبعادها الإجمالية، وركائزها الإيمانية.

أولاً: البناء الإيماني:

يمثل الإيمان القاعدة الارتكازية لأي أمة ارتأت القيام والنهوض، فهو المحرك الحقيقي لأبعاد الحركة التربوية، وهو المغذي المنبت لفروع التروية الفكرية، وهو المُقوّي الدافع لأصول التغيير الحضاري، ولما كان الإيمان في الأمة الوسط قناعةً عقليةً، وثباتاً قلبياً، وعاطفةً مؤثرة، وقوةً مادية، كان صاحبَ الأولوية في بناء

---

(١) يقول الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب تأويل من قال: عنى بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر:٣٢) الكتب التي أنزلت من قبل الفرقان.

فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه وأمة محمد صلى الله عليه وسلم لا يتلون غير كتابهم، ولا يعملون إلا بما فيه من الأحكام والشرائع؟ قيل: إن معنى ذلك على غير الذي ذهبت إليه وإنما معناه: ثم أورثنا الإيمان بالكتاب الذين اصطفينا؛ فمنهم مؤمنون بكل كتاب أنزله الله من السماء قبل كتابهم وعاملون به؛ لأن كل كتاب أنزل من السماء قبل الفرقان، فإنه يأمر بالعمل بالفرقان عند نزوله، وباتباع من جاء به، وذلك عمل من أقر بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به وعمل بما دعاه إليه بما في القرآن، وبما في غيره من الكتب التي أنزلت قبله.

وإنما قيل: عنى بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ الكتب التي ذكرنا؛ لأن الله جل ثناؤه قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (فاطر:٣١) ثم أتبع ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾، فكان معلومًا إذ كان معنى الميراث إنما هو انتقال معنى من قوم إلى آخرين، ولم تكن أمة على عهد نبينا صلى الله عليه وسلم انتقل إليهم كتاب من قوم كانوا قبلهم غير أمته أن ذلك معناه»، يُنظر: جامع البيان، الطبري، ج٢٠، ص٤٦٩.

العمود الفقري لهذه الأمة، ولا نعجب من ملاحظةٍ نقرأها في كتاب الله تعالى وهي أنه جعل المؤمنين على درجتين من حيث الأحقية، المؤمنون والمؤمنون حقاً، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال:٤)، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال:٧٤)، فهاتان الآيتان جاءتا في سياق الحديث عن الغنائم والجهاد، لترسخا في النفس أن الإيمان عند فريق من الناس دعوى لا يتبعها دليل، فأراد سبحانه وتعالى أن ينبه عباده المتقين إلى أن الإيمان لا يكون إيماناً حقاً إلا إذا جاء دليل الإثبات، الذي هو عبارة عن القاعدة الراسخة والبناء الشامخ، الذي به تُثبتُ الأمة وسطيتها واستقامتها على أمر الله تعالى، وهو ما يريده سبحانه من عباده في بداية الطريق ومطلع العمل واستهلال الحركة.

وفي زمن بناء الأمة الوسط نحتاج إلى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾، ونحتاج إلى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، لا إلى ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ ولا إلى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ ﴾، فالبناء الإيماني للأمة الوسط يحتاج إلى نقاء المعدن، وأصالة الجوهر، وانتظار النضج والاستواء، كما أن المرونة والليونة تقبح في مرحلة البناء من حيث إنها جميلة لطيفة في مرحلة الانتشار والتفريع، ولم يكن ليأتي الدخول في دين الله أفواجاً إلا بعد مجيء نصر الله والفتح، وتمكُّن الدعوة في قلوب المدعوين، والأمة اليوم تعيش ما بين داعٍ إلى دين الله تعالى ومدعو، ومواصفات الداعي إلى دين الله تختلف عن صفات المدعو فهما ليسا سواءً، ونهضة الأمة متوقفة على تحقق مواصفات إيمان الداعي، وهو إيمان له مواصفاته التي عرضت له

الآيات المكية على وجه التحديد، وكي نبلغ المرتبة العَلِيَّة في القبول لنكون جيل التغيير علينا أن نستيقن أننا متصفون بمواصفات ومعايير إيمان الداعي لا بمواصفات إيمان المدعو.

ويتوقف البناء الإيماني لجيل العزة والتغيير على صفتين أساسيتين تدور حولهما بقية الصفات وهما العلم والحب، فأولى صفات المؤمنين العلم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد:١٩)، وهو ما أخبر به سبحانه تمييزاً للمؤمنين عن الكافرين فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ ...﴾ (البقرة:٢٦)، فهو علم يقيني فاعل محرك منتج، وليس علماً نظرياً تقوله الألسن ويغيب عن القلوب والجوارح، والعلم هو طريق توجيه المسيرة وتصحيح الفكر، وقد ضرب الله لنا مثل قارون وموقف الناس من ماله، حيث انقسم الناس إلى قسمين، فمنهم من أراد الحياة الدنيا: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ (القصص:٧٩)، ومنهم من أُوتي العلم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ (القصص:٨٠)، ونلحظ أن القرآن لم يقل: وقال الذين يريدون الحياة الآخرة، كما قال: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ﴾؛ وذلك لبيان أن العلم هو طريق الآخرة، وهو طريق النجاة، وللرد على قارون في قوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ (القصص:٧٨)، فالعلم هو المُنضج للعقل، والباني للقلب، والمُقوِّم عند ازدحام المصائب والفتن.

وثانيهـا الحـب المتعلـق بـالله تعـالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ (البقرة:١٦٥)، بل إن الله سبحانه وتعالى ذكر الحب على أنه الصفة الأولى من صفات جيل البدلاء فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة:٥٤)، تنبيهاً على أن بداية طريق الردة عن الدين هي بسبب الإيمان الخالي من الحب بين العبد وربه، فالحب هو الذي يولد الذلة للمؤمنين والعزة على الكافرين؛ لأن من أحبَّ ذلَّ لمحبوبه، ومن أحب الله ذلَّ لعباده، وعادى أعداءه، وكأني بالآية تُلَوِّح بعلة الردة عن دين الله تعالى وهو عدم وضوح قاعدة الحب بين العبد وربه، وهو شعور يتنامى بوسائل التربية والتنشئة، والأمة التي تغض الطرف عن التقرب إلى ربها بعبادة الحب، أمة تستحق أن يُغض الطرف عنها، لتتهاوى وتتهالك في مصارع حياة الكره.

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى جعل المفاضلة بين حبه وبين حب مظاهر الحياة الدنيا هي الفيصل بين نزول العقوبة وبين استمرارية نزول النصر فقال سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة:٢٤)، فحب الله تعالى هي الصفة الأعظم في البناء الإيماني، ولن تتكامل معالم البناء إلا إذا تكاملت القلوب على حب الله بعد صفة العلم، وهاتان الصفتان العلم والحب هما القاعدة الأساسية في البناء الإيماني لجيل التغيير، وما كان ليوسف عليه السلام أن يحب السجن على إغواء امرأة العزيز

لينال رتبة الخيرية في هذه الحياة إلا بعد تكامل العلم والحب: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣).

والأمة اليوم بعَوَز شديد إلى الالتفاف حول قاعدة الحب؛ لتشكل تجاذباً شعورياً عاطفياً صوب طريق الخير والفلاح بضابط العلم، ولا يتأتى هذا البنيان الشامخ إلا بعد توافر عنصر الإرادة الناشئ عن التفكير الطويل المتأني بأن تفوق هذه الأمة في الدنيا والآخرة لن يتحقق إلا بالمسارعة والمسابقة إلى الإسلام مادة ومنهجاً، وترك منهج زينة الحياة الدنيا للآخر ليتمتع به، والله يقول: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة:٢١٢)، والسخرية تحدٍ عظيم من تحديات المرحلة التي نعيش، والمواجهة على قدم وساق بين الساخر والمسخور منه، وعموم الأمة يعيش حالةً من ضياع الذات في تلبية زينة الحياة الدنيا استجابةً للذات وهروباً من سخرية الساخرين، أو تركها ليكونوا في صف المسخور منهم، وهي معادلة صعبة في ذهنية الخالي من العلم والحب، الممتلئ بالركون إلى زينة الحياة الدنيا، بل هي صعبة كذلك على المؤمنين أنفسهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى حذرنا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ولم يقل: والذين آمنوا، وهي إشارة ملفتة مقلقة في كتاب الله تعالى، فالعدول عن وصف المؤمنين المذكور في الدنيا، إلى وصف المتقين في الآخرة له دلالته التي لا تخفى على ذي لب وفهم(١).

---

(١) يظهر لي في الفرق بين صفتي الإيمان والتقوى، أن وصف الذين آمنوا جاء عاماً، بمعنى أن الكافرين يسخرون من عموم المؤمنين؛ فهم لا يميزون بين العصاة والفاسدين والمتقين من أبناء المؤمنين، فالكل يدخل تحت مسمى المسخور منه، وهؤلاء لن ينالوا جميعاً رتبة الفوقية يوم القيامة، بل الذي سينال شرف هذه الرتبة هم المتقون من المؤمنين، الذين يمثلون جيل العزة والكرامة في مواجهة تحديات السخرية من الداخل والخارج، على مدار الزمان كله، والله أعلم بما ينزل.

وتحدي سخرية الساخرين يحتاج إلى الاستعداد الإيماني بمادة العلم والحب، ولعل ما يفسر لنا سرَّ إقبال بعض الناس على الدعوة ثم ينكصون على أعقابهم هو عدم احتمالهم سهام السخرية، ومن هؤلاء من يلجأ إلى زينة الحياة الدنيا بطابع إسلامي؛ ليجمع – في ظنه – إلى الآخرة الدنيا، وهو سلوك ابتُلي به اليوم كثير من أرباب الدعوة والدين والعلم، فنجد من هؤلاء حرصاً على زينة الحياة الدنيا ما يتفوق به على عوام المسلمين، وما يسابق به أنظار الجاحدين، ويفاخر بذلك بني قومه ظناً منه أنه يُحسن صنعاً، وليت أولئك تركوا الزينة لأهلها والتفتوا إلى العظيم القادم؛ لينقذوا أنفسهم من مهالك الزمن وعرصات القيامة، ويكونوا عوناً للعاملين الجادين ممن ينطوي تحت لوائهم.

وينشأ عن العلم والحب في البناء الإيماني الشعور الجاد بالتوكل على الله تعالى، واستحضار معيته، بالإضافة إلى حسن فهم موضوع الرزق بشكله الصحيح، ولسببٍ ما تكرر قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (إبراهيم:١١)، في سياق الجهاد والدعوة، فللتوكل أبعاد عظيمة في نجاح الدعوة وتفوق أصحابها على غيرهم؛ ولهذا فإن الله أنطق ذينك الرجلين اللذين أنعم الله عليهما بالعلم والحب الصادق: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة:٢٣).

فالتوكل سلوك إيماني بامتياز، ولن تتحقق لهذه الأمة غلبتها على عدوها حتى تفقه التوكل علماً وعملاً، وهذا متوقف على التضحية بعد التطلع إلى القيامة بعثاً وحساباً، ولنا أن نستحضر تلك الكلمات البسيطات يوم بدر، حين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ؟، قَالَ: **نَعَمْ**، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**، قَالَ: لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: **فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ»(١).

فلم يُسَوِّد ذلكم الصحابي الصفحات الطويلات في بيان معنى جنة عرضها السماوات والأرض، بل عدل إلى السلوك الإيماني المطلوب بالتطبيق المباشر، فكان النصر وكان التفوق وكانت الجنة تفوح برائحة الرضا لمن ترك الدنيا إقبالاً عليها، فاستحق أن يزفَّ له النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه البشرى أنه من أهل الجنة.

ثانياً: البناء الروحي:

لا عجب أن يكون إشباع الجانب الروحي من قبل نبينا صلى الله عليه وسلم قُبيل الوحي هو المهيمن عليه، فعن أمنا عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، حديث رقم: (٥٠٢٤)، ج٦، ص٤٤.

أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ»[1]، وإنها لرسالة من السماء أن يكون الاصطفاء والاجتباء لهذا النبي الأمي من بين العالمين في ذلك الزمان في غار حراء، وإن الرسالة لتتكامل في أبعادها التربوية والروحية حين يهيئ المولى سبحانه وتعالى لكليمه عليه السلام الذي قال في حقه: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ (طه:٣٩)، فترةً من الزمن غير قليل في مدين؛ فيقضي فيها النقاء الروحي والاستعداد النفسي لتلقي الرسالة ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (القصص:١٤)، وهو ما هيأه سبحانه من قبل للكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم قُبيل تلقي الرسالة ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٢٢).

والأمة اليوم في بنائها الروحي تعيش ما قبل مرحلة بلوغ الأَشُد، وحتى تصل تلك المرحلة عليها أن تعي طبيعة الواجبات الموكولة إليها في الاستجابة للأوامر الضمنية التي لا يستقيم الحال إلا بها، وأن تتجاوب مع حاجاتها الروحية بالإقبال على المعاصي تخلية، واللجوء إلى الطاعات تحلية، لتبني العلاقة بينها وبين مولاها على أسس ثابتة وأركان وطيدة، ومن تأمل حكم قيام الليل في سورة المزمل وحكمته أدرك أن القيام واجب روحي في حق الثلة المؤمنة، وأن الفرض عاد ليُقَوِّم الطريق ويُسدد الخطى، بل هو في تضاعيفه وأبعاده شرط حضاري للأمة الناهضة، لا تتحقق لها بغيتها إلا إذا أتت عليه بمواصفاته الروحية ومعاييره الذوقية، فالمرحلة

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: (٣)، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، ج١، ص٤.

مرحلة بناء القواعد لا مرحلة التتميم والاكتمال، فكان العمل ضمن المنهج السلوكي النبوي المنضبط بالرؤية الإسلامية الصافية، وبالأبعاد الفكرية النقية، واجب من واجبات المرحلة الراهنة.

وإني أرى في هذه الأمة التي نامت حتى قعد النوم في مقلتها قعدته الطويلة، وشد الأجفان بإثقالها وإرخائها، لتتهيب للنهضة المسبوقة بقيام الليل، وقد أثقلتها أحزان الماضي، وكدرتها أعباء الحاضر، وتخوفت من وعيد المستقبل، لكنه قيام الليل الذي يسبق انبلاجة فجر وإشراقة صبح، وكأني بهذه الأمة التي أوشكت على الوثوب الكاسر بتأهب الراصد تنتظر اكتمال شحنها في ليل دامس، وما هذه التحركات اللطيفة من شباب الأمة نحو التفكير في المستقبل المشرق إلا كقيام ليل سابق لحركة النهار، نهايتها نهضة شاملة ويقظة عامة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ (الفجر: ١-٥)، والليل مهما طال فنهايته فجر ساطع، وعاقبته: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر ٦-١٤).

وإدراك أن بداية عواقب الأمم الظالمة سيكون في البناء الروحي والاستعداد السلوكي هو من العلم الذي يغيب عن أصحاب التفكير السطحي، وقد نبه القرآن على أن العلم هو النتيجة الحقيقية للتربية الروحية، فقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ

﴿هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (الزمر:٩)، فلم يستو أهل العلم مع غيرهم بالبناء الروحي، ثم كانت النتيجة الإجمالية التي ليس من شأن القرآن أن يخوض في تفصيلاتها بل الاكتفاء بالإشارة والتلميح لمن أراد أن ينخرط في صفوف العابدين: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ (الزمر:١٠)، وللقرآن منهج في بناء النفوس على طاعة الله تعالى، وربط تطلعاتهم بالآخرة لا بالدنيا، ولذلك اكتفى بالإشارة إلى ﴿حَسَنَةٞۗ﴾ في الدنيا، ثم عاد إلى التأكيد على أن الأمر فيه من العناء ما لا تحتمله إلا النفوس الكبار: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

وقد ميز القرآن بين أهل الكتاب بناءً على ترقيهم الروحي فقال سبحانه: ﴿۞لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ (آل عمران:١١٣)، وجعل ميزان أولي الألباب ومعيارهم البناء الروحي: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (آل عمران:١٩٠-١٩١)، وقد أمر سبحانه نبيه عليه الصلاة والسلام بقيام الليل استعداداً للمرحلة القادمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ (المزمل:١-٤)، التي عبر عنها القرآن

بقوله: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (المزمل:٥)، معللاً سبحانه ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ (المزمل:٦).

فالمرحلة التي تمر بها الأمة اليوم هي مرحلة بناء المنهج الروحي في شباب الأمة؛ ولذلك وجب على العاملين أن ينتبهوا ويستيقظوا من نومتهم في المجالات الفكرية والثقافية والفقهية الأكاديمية؛ لينتقلوا إلى عنصر ضروري في هذه المرحلة وهو عنصر البناء الروحي، الذي يتطلب إعادة بناء يتصف بالنقاء والصفاء ومتابعةٍ واقتداء، وخلوٍ من الابتداع والترهبن والاعتزال، يعيد الأمة إلى صفائها الأول، ونقائها الفطري الذي به تكفل صحة المسيرة، وسلامة الطريقة.

ثالثاً: البناء الأخلاقي:

يصعب تحديد الطريق الذي تُبنى فيه الأخلاق، ويصعب كذلك بناء الأخلاق الخام التي تصنع رجال التغيير، وإن قلت: إن الصعوبة تقارب حدَّ الاستحالة ما إخالك مبتعداً عن جوهر الأمر ومضمونه، وغاية ما نستطيعه في هذا الباب أمران اثنان لا ثالث لهما، البحث عن الرجال الذين يتحلون بأخلاق التغيير، ومعاملة الناس على أنهم متحلون بأخلاق التغيير، وهذا ما يعززه المنهج التربوي، ويشهد له لسان النبوة الصادق؛ فيقول عليه الصلاة والسلام: «**النَّاس مَعَادِن، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**»[1]، ويقول

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ (يوسف:٧)، حديث رقم: (٣٢٠٣)، ج٣ص١٢٣٨، وأخرج أبو عبد الله القضاعي في مسنده زيادة تزيد في البيان وهي: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا»، يُنظر: مسند الشهاب، أبو عبد الله القضاعي، رقم الحديث: (١٩٦)، ج، ١ص١٤٥.

صلوات ربي وسلامه عليه في بيان الأمر الثاني: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**»[1]، وفي رواية: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**»[2].

فالمطلوب البحث عن الرجال المتحلين بالأخلاق التي تبني الحضارة، والرجال معادن كمعادن الذهب والفضة[3]، فللرجال صفات ومعايير لا تستقيم جميعها في تحمل الصعاب الثقيلة، فينوء كثير منهم عن التحمل إلا إذا كنت عليه قائماً، ولا يلين كثيرٌ في موطن الاحتياج للمرونة، بل ينكسر فيكسر، ولا يصمد المعظم أمام تغير الأجواء والأحوال فيصيبها الصدأ والاهتراء، فيتلاشى عن الوجود ذاتاً وأثراً.

والذي يبقى صامداً من الرجال أمام المواجهة العظيمة هو من حمل في قلبه أخلاق التغيير، وهؤلاء على ندرتهم موجودون، لكنهم بحاجة إلى التنقيب والبحث من أصحاب البصائر المتفرسين، مقتدين بحبيبهم صلوات ربي وسلامه عليه حين أبصر في الخطَّاب رجلَ التغيير والنهضة؛ فقال داعياً الله تعالى: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ**»، قال: وكان أحبهما إليه عمر[4].

والناظر في فلسفة القرآن في توجيه الأنظار إلى الحق في هذه المسألة ليشهد بأنها من المسائل المبتوتة في تاريخ بناء الدعوة، ومن أعظم الأدلة التي تشهد لهذا المنهج في اختيار الرجال ليكونوا جيل العزة والبناء والنهضة قوله تعالى:

---

(١) الأدب المفرد، البخاري، رقم الحديث: (٢٧٣)، ص١٠٤.

(٢) السنن الكبرى، البيهقي، رقم الحديث: (٢٠٥٧١)، ج١٠، ص١٩١.

(٣) أخرج أبو عبد الله القضاعي في مسنده: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ، إِذَا فَقِهُوا»، يُنظر: مسند الشهاب، رقم الحديث: (١٩٦)، ج١، ص١٤٥.

(٤) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم الحديث: (٣٦٨١)، ج٥، ص٦١٧.

﴿ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٧٩)، فكما أنه اختار من رسله من شاء سبحانه بناءً على واسع علمه وعظيم حكمته، وبناءً على أنه المتفرد بعلم الغيب، فهو كذلك يصنع في تمييز الخبيث من الطيب من الجيل المؤمن، وهي لفتة قرآنية عظيمة لها شأنها في فهم طبيعة المسيرة الاستخلافية.

وهي أنه سبحانه وتعالى أنزل قانون الابتلاء على هذه الأمة تمييزاً بين الصنفين، كما أنه اجتبى من رسله من يشاء، وهي من رعاية الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة بما يحفظ عليها كينونتها، وبما يعطيها الدفء الآمن بأن الله يرعى مسيرة عباده المتقين، ولو أعدت النظر مرةً أخرى في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لعلمت أنك غير متروك ولا منسي، بل أنت برعاية مولاك فكن على قدر المسؤولية، ولو أنعمت النظر بعين بصيرتك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾[1] لتوكلت على الله حق التوكل، وعلمت أنه لن يتركك.

وهي المسيرة ذاتها مع جميع الأنبياء: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (الحج:٧٥)، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٣٣)، ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النمل:٥٩)، وهو ما مارسه موسى عليه السلام في اختياره قومه: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا

(١) يقول ابن عاشور: «لأنه تعالى جعل نظام هذا العالم مؤسساً على استفادة المسببات من أسبابها، والنتائج من مقدماتها»، يُنظر: التحرير والتنوير، ج٣، ص٢٩٤.

لِّمِيقَٰتِنَاۖ ﴾ (الأعراف:١٥٥)، وهم جيل القدوة والعز والكرامة، لا جيل التبعية والذلة والمهانة.

أما الأمر الثاني وهو معاملة الأمة على أنها متصفة بأخلاق التغيير، فهذا من طبيعة المنهج التربوي الذي يجب أن يقوم به أصحاب أخلاق التغيير الحضاري؛ لأن المعاملة العكسية ستخلق حالة من العداء المستحكم بين الدعاة إلى التغيير وبين عموم الناس، فمعاملة الناس على أنهم مدعوون لا غير، وأن للدعاة درجة دينية فوق درجتهم؛ لهو عين الطبقية التي تخلق جواً من العداوة والبغضاء والشحناء، وهي ليست من المنهج الإسلامي في شيء.

ولذا كان لزاماً على العاملين في المنهج الدعوي التنبه إلى البرامج التربوية من خلال تفعيل برامجها التوعوية والثقافية والفكرية، بما يضع النقاط على الحروف، وبما يرسم أبجديات المسيرة وطبيعة العلاقة بين الداعي والمدعو، مع تناسي نقاط الافتراق الثقافي والفكري والتركيز على نقاط الالتقاء المشترك، وقد بين القرآن المنهج التربوي في التعامل مع المدعوين من خلال بيان الفوارق القليلة، ونقاط الالتقاء بين الأنبياء وأقوامهم الكافرين، فهو يُعَلِّمُ إمام المرسلين ما يقوله لقومه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ (الكهف:١١٠)، ويقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ وَوَيْلٞ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ (فصلت:٦)، بل إن القرآن أراد أن يجعل نماذج الأنبياء السابقين حاضرة في الأذهان بتلك الصورة الواضحة المشرقة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا

بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴾ (الفرقان: ٢٠)، وقال في حق محمد صلوات ربي وسلامه عليه: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ٧).

ولن تتهيأ الظروف لهذه الأمة ما لم تتهيأ هي لها، ولن تأخذ مكانتها الحضارية إلا إذا كانت على قدر المسؤولية، يقول مالك بن نبي: «(إن الحقوق تؤخذ ولا تعطى)! لحاها الله كلمة تطرب وتغري، فالحق ليس هدية تعطى، ولا غنيمة تغتصب، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما متلازمان، والشعب لا ينشئ دستور حقوقه إلا إذا عدل وضعه الاجتماعي، المرتبط بسلوكه النفسي، وإنها لشرعة السماء: غير نفسك، تغير التاريخ!»(١)، فحقوق الدعاة حاضرة في الأسواق والمجالس والأندية العامة، لا في مجالس الجامعات والأحزاب والمساجد والمؤتمرات فحسب، فالناس بحاجة إلى يد الحنان والرحمة، وهم متشوقون إلى تلك الرعاية القريبة من الأبدان والأسماع، ومتعطشون إلى رواء الحق، فالأمة مليئة بالخير وتنتظر معول هدم باب الانغلاق بينها وبين دعاتها.

وإني لأستحضر في هذا المقام دعاءً نبوياً صارخاً بالأخلاق الحضارية، تكاثرت عليه الألسن ولم تتكاثر عليه القلوب والعقول، وهو: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ**»(٢)، فهذا الحديث يصرخ

---

(١) شروط النهضة، مالك بن نبي، ص٣٢.

(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٥٥٧)، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، ج١، ص٥٦٩.

بالتدافع الحضاري، وينبه على الألم المستكن في النفس البشرية، ويُشخِّص المرض بعلله وأسبابه، فالهم والحزن مرضان نفسيان يصيبان القلب فيقعدان صاحبه عن العمل، بتضخيم العمل وتصغير العامل، والعجز والكسل شعوران ناشئان عن الهم والحزن، فإذا أصاب النفسَ همٌ وحزن تحول ذلك إلى عجز عن أداء المقصود وكسل عن القيام بالواجب، والجبن والبخل مظهران من مظاهر العاجز الكسول؛ لأن العجز عن التحصيل والكسل عن المثابرة يؤديان بصاحبهما لأن يجبن ويبخل، إلى أن يُفلس الإنسان من مساعي العمل الصحيح والمسيرة الجادة فيصبح عالةً على الآخرين، استدانةً للأموال فقهرٌ وذلٌ للرجولة التي أرادها الله سبحانه وتعالى مادةً للتغيير والنهضة.

وهذه الأخلاق ليست مقتصرة على السلوك الفردي، وإنما هي أخلاق عموم الأمة، وسببها الأصيل الركون إلى الدنيا والتغافل عن الآخرة مع غياب المنهج النبوي التربوي عن تعديل المسار، وهي آفات آخذ بعضها برقاب بعض، فالأمة اليوم مهمومة حزينة، عاجزة كسولة، بخيلة جبانة، مستدينة مقهورة، على أنها مستطيعة أن تتعدى هذه الأزمات بوثبة جريئة تنسيها آلامها وتريها آمالها إن هي استعدت لذلك، ورأت من يُنوِّر بصيرتها، وينير دربها، فالبناء الأخلاقي للأمة ضرورة من ضرورات المرحلة التي نعيش، وإن لم نستطع أن نبني هذه الأخلاق ونعيد بناءها على منهج الإسلام؛ فإن المشوار سيطول على طوله، وسيتضاعف العمل على مشقته، وستتكاثر على الأجيال القادمة عقدة الأزمات بما لا نيل للفكاك منها.

المبحث الثاني
حركات التغيير والإصلاح وعبرتها

ليس غرضنا أن نقف مع حركات التغيير والإصلاح في العالم الإسلامي لاستعراض تاريخها أو رجالاتها أو إنجازاتها، بقدر ما يعنينا الوقوف على العبرة المستنبطة من مسيرتها الإصلاحية ومن تجربتها الميدانية، وهي تلك الحركات التي قامت استجابة لنداء الواجب، وتلبية لمطلب الشرع، في الوقت الذي ادلهم الناس على مغريات الحياة الدنيا، وتسابقوا على قنوات فتحت لهم من حيث لا يشعرون، وقد حازت قصب السبق في الفضيلة الدعوية بما كانت لمن بعدها تجربةً تُحتذى وعبرةً تُقتدى، بقطع النظر عن إنجاز أيٍّ منها، وحجم الإنتاج.

وفي هذا المقام أسترعي الفضل العظيم لتلك الحركات على الأمة الإسلامية بما قدمت وأثمرت، وبقليل من التفكير المتأني المنصف نُدرك حجم الخير الذي ورَّثته في مجال تقدم الأمة بعد طول تخلف، وفي صحوتها بعد طول نوم واسترخاء، وفي محاولة عودتها إلى جادة الصواب بعد تنكب وتقهقر، وليس من الإنصاف في شيء أن نستحضر في ذاكرتنا الفكرية الأخطاء التي وقعت فيها، فهي تبقى في طورٍ من أطوار الاجتهاد الدعوي الجماعي، ومن أبسط حقوقها التي منحها الشرع أن تأخذ نصيباً من الاجتهاد الخاطئ، ويشفع لها في ذلك أن القائمين

عليها من آحاد البشر، فهم ليسوا بمعصومي الفكر والاجتهاد، وقد قدموا إلى الأمة ما أداهم إليه بالغ اجتهادهم وعظيم جهدهم.

ويرى مالك بن نبي، رحمه الله تعالى، أن الحركات التغييرية في العالم الإسلامي على امتداده التاريخي لم تحقق النجاح المطلوب إلا على صعيد ضيق، يقول رحمه الله: «إن المتتبع لأحوال العالم الإسلامي يلاحظ أن الحركات التغييرية التي قامت فيه منذ عصر شيخ الإسلام ابن تيمية، بل منذ عصر الغزالي إلى عصرنا هذا لم يكتب لها النجاح إلا في بعض التغييرات السياسية، كالتي حققتها دولة الموحدين في حدود قيامها بالشمال الأفريقي والأندلس، حيث كان لها على الأقل دور المعطل لحركة التحلل، التي ستؤدي إلى سقوط غرناطة.

أما الحركات التغييرية التي قامت في العصور المتوسطة على اجتهاد فردي، مثل اجتهاد ابن تيمية فإن أثرها لم يبق إلا في التراث الإسلامي، حيث تكوّن الترسانة الفكرية التي لا زالت تمد الحركات الإصلاحية بالأفكار النموذجية إلى اليوم، ولكن لم يكن نصيب الحركات التغييرية المعاصرة بأوفر من السابقات، سواء كانت قائمة على الاجتهاد الفردي، مثل دعوة جمال الدين الأفغاني، أو على جهد منظم، أو شبه تنظيمي، مثل الحركة السلفية في الجزائر قبل الحرب العالمية الثانية.

وقد يتأتى تفسير فشل هذه الحركات التغييرية على أنها أتت في مجتمع لم يبق فيه مجال للتغيير بالنسبة للحركات الأولى، أو لم يفسح فيه بعد مجال للتغيير بالنسبة للحركات المعاصرة، وهذا التفسير المرحلي يقنع من يؤمن بمراحل التاريخ أي بالدورة الحضارية»[١].

---

(١) تقديم مالك بن نبي لكتاب «حتى يغيروا ما بأنفسهم»، جودت سعيد، ط٨، ١٩٨٩م، ص٩.

وبطبيعة الحال فإن ذلك لا يمنع أن تكون هناك مجموعة من النقاط التي نقف معها اعتباراً من عمل تلك الحركات الإصلاحية الريادية، التي كان لها بالغ الأثر في مفكري الإسلام المعاصرين، وفي علماء الأمة المجتهدين، شاء من شاء، وأبى من أبى، وسأحاول لملمة الموضوع في مجموعة من النقاط:

أولاً: تحولت بعض الحركات الإصلاحية من كونها حركة إصلاحية تسعى لتغيير واقع الأمة المتردي، وتجتهد ضمن فقه المرحلة والواقع، إلى مذاهب فكرية إصلاحية معاصرة، أشبه بواقع المذاهب الفقهية القديمة، وإن لم يترسخ هذا الأمر بعد، فهو في طريق الترسخ والاستقرار إن لم يتدارك أرباب تلك الحركات أدبياتهم ومناهجهم التربوية.

على أن الحركة الإصلاحية بمنطقها الفطري السليم يجب أن تحافظ على غايتها وهدفها، والطرح الفكري الاجتماعي الإصلاحي لا يرتبط بفكرة فرعية، بل بمتغيرات تفرضها طبيعة المرحلة التي تعيشها الأمة، وضمن الأصول الفكرية والاجتماعية والتربوية والشرعية التي ترتبط بها حركات الإصلاح والتغيير، والجمودُ على طريقة واحدة وعلى منهج أوحد يدل على أن القائمين على تلك الحركات قد بدأوا مشوار الإفلاس الفكري، في عدم القدرة على استنباط أدوات التغيير والإصلاح، بما يحقق الغاية والهدف المشروع، وبما يزحزح عنها تهمة التعصب المذموم للبدايات الأولى من الانطلاق والانبعاث، وهذا ما لا يقبله أصحاب المشروع الفكري الهادف، فكان الخروج من هذه الآفة من أولى أولويات الإصلاح الداخلي، للخروج من مأزق الالتفاف حول الذات المؤدي إلى الاختناق.

ثانياً: نقصان عنصري التجديد والمراجعة، والجمود على الوسائل والأدوات التي برع فيها القادة في زمانهم، وعدم القدرة على الاجتهاد للخروج بأدوات تناسب المرحلة الجديدة، وسبب الجمود وعلته الاعتقاد الراسخ في الذهنيات الجامدة أنه ليس بالإمكان أفضل مما كان، ولو تخلص أولئك من فكرة «أنا الأقدر» ومن فكرة «أنا الأحرص» لوصلوا إلى ابتكار المفقود، وتطوير الموجود، فالطريقة التقليدية في التغيير أصبحت مملة وغير مجدية وغير فاعلة في المجتمعات الإسلامية، بل أصبحت المجتمعات اليوم ثابتة الخطى في مكانها، لا تراوح ولا تتحول عنه، وهذا الجمود في المجتمع الإسلامي يُعد مشكلة حقيقية تحتاج إلى حل، فحال معظم الحركات الإسلامية اليوم الرضا عن البرامج الدعوية والفرح بالمنجز الدعوي، مما ولد في نفسية الكثير الشعور بنشوة المنتصر، مما انعكس سلباً على الصفوف العاملة في حقول الدعوة المختلفة، ومما ولَّد كذلك حالة من الجمود في مسيرة النهوض رضاً بما تصنع.

ثالثاً: عدم إعطاء الشباب المجدِّد الفرص الكافية من العمل الحر، وسيطرة الخط القديم على المسيرة الإصلاحية بجميع أبعادها، خوفاً من الانحراف عن الطريق، وأحياناً أخرى خوفاً من طاقة بعض الشباب في قدرتهم على سحب البساط من تحت أقدام الكبار إن سنحت لهم الفرصة، وهذا من التنافس على الدنيا المذموم؛ لأن هذا الحرص في حد ذاته مُخِلٌّ بالعمل الدنيوي، فما بالك بالعمل الديني!! وقد تعامَلَ أولئك الشيوخ مع حتمية القانون في هذا الأمر، فافترضوا لأنفسهم القدرة ولغيرهم العجز؛ فوقعوا في عُجَزِ العجز وهم لا يشعرون.

رابعاً: التعامل مع المشاريع الإصلاحية بمنطق المشاريع الدنيوية؛ كالحرص على الظهور، والتشبث بالكراسي الدعوية، والألقاب الإصلاحية، وإدخال المشاريع الربحية في العمل الإصلاحي على أنها أدوات دعوية، ثم تحولها فيما بعد إلى طريقة من طرق الكسب الحلال، كل ذلك جعل المشاريع الإصلاحية جامدة غير متحركة، قلقة غير ألقة، وللناس منطقٌ لا يُستهان فيه في توجيه سهام الاتهام صوب سلوكيات بعض المنتسبين للحركات الإصلاحية، فغالب الناس لا يفرق بين سلوك الحركة وسلوك أفرادٍ من الحركة، إذ يستوي عندهم الجميع في ميزان النقد؛ ولذا كان لا بد من جعل الأدوات الدعوية خالصة للدعوة والتربية، ومن الخطأ الذريع إخراجُها عن مسيرتها تلك إلى أن تكون ربحية نفعية، فالبيع والشراء ليس مكانه طرقات الدعوة، وقد جاء النهي عن البيع أمام أبواب المساجد[1].

خامساً: حركات التغيير والإصلاح التي قامت في العالم الإسلامي امتازت على العموم بنوع من عداء السلطة القائمة، وهذا العداء المستحكم كان نوعاً من أنواع الميراث لتركة الاستعمار، فقد خَلَقَ العداءُ النفسيُّ بين دعاة الإصلاح وبين السلطة القائمة حالةً من التنافر والتناحر والتخاصم، حتى انتهى الأمر إلى إعلان الحرب ممن بيده زمام الأمور على كل حركة تريد تغيير الواقع الراهن، استجابةً لنداء الوجود والبقاء والانتصار على الحركات التي تهدد وجودها، ولا ننس كذلك

---

(١) جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم «أَنَّهُ نَهَى عَنْ تَنَاشُدِ الأَشْعَارِ فِي الْمَسْجِدِ، وَعَنْ الْبَيْعِ وَالاشْتِرَاءِ فِيهِ، وَأَنْ يَتَحَلَّقَ النَّاسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ الصَّلاةِ»، سنن الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر في المسجد، حديث رقم:(٣٢٢)، ج٢، ص١٣٩.

أن كثيراً من تلك الحركات قامت استجابة لنداء الحق في مطلع الأمر في مواجهة العدوان الخارجي، واستمرت بعد ذلك لتواجه الداخل، فبقيت المواجهة، وبقيت وسائلها وأدواتها وخطابها، ولم يتغير من ذلك شيء! فأصبحت المعادلة واحدة – على المستوى الفعلي وليس بالضرورة على المستوى التنظيري – في التعامل مع أعداء الخارج والداخل، مما ولَّد حالة من الاضطراب الشديد بين تغيير الواقع الراهن الذي تشهده الأمة بجميع سلبياته ومشاكله، وبين الدفاع عنه وعن رموزه القائمين على الحفاظ عليه.

وقاد هذا إلى إيجاد فجوة حقيقية بين الأمة بمجموعها العام، وبين دعاة التغيير بمجموعهم العام، فأطلق عليها بعض المفكرين «جاهلية»، وبعضهم «ردة»، وبعضهم «دار كفر»، حتى استمكن العداء بين الطرفين، وتحول الانشقاق الحقيقي في الأمة الواحدة، إلى عداء دائم ظهر أحياناً بالمظهر الفكري، وأحياناً بالمظهر السياسي، وأحياناً أخرى بالمظهر العسكري، وبسبب تراشق الاتهامات بين الطرفين أصبح الرفض للإسلام تابعاً لرفض تلك الحركات وسياستها التي لا تتبدل ولا تتغير، ولما كانت بعضُ الحركات الإسلامية هي الحاملة للواء الفتوى وإصدار الأحكام الدينية، بدأ مسلسل التكفير والتبديع والتفسيق والتضليل للمخالفين في الرأي ووجهات النظر، مما زاد الطين بِلَّة، ومكَّن من ظهور فسطاطي الكفر والإيمان!! مما جعل الحاجة ملحة لإعادة النظر في طبيعة هذه العلاقة، تأسياً بدعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم عند بعثته إلى قريش، ومنهجه في دعوة علية القوم.

فحركات الإصلاح والتغيير بدأت بداية مباركة مؤثرة، لها تأثيرها العظيم على الجماهير، وحققت انتصارات دعوية، وسحبت البساط من تحت أقدام أصحاب الفكر الوطني والقومي والبعثي الحاضرة في العالم الإسلامي، وأدخلت الإسلام كل بيت، لكنها لم تستطع لهذه اللحظة أن تبني البناء المتكامل للأمة الوسط، بما يخدم المشروع الحضاري الشامل، وذلك عائد بالدرجة الأولى إلى ضعف خلق الصبر، وتعجل قطف الثمار، والاغترار بالكثرة لا بالنوع.

ولعل الانخداع بزهرة الحياة الدنيا التي حذَّر منها المولى نبيَّه صلى الله عليه وسلم لم تكن بالحسبان عند مدِّ العين إلى متع الآخرين، فكانت النكسة من حيث هي صحوة، وكان التوقف من حيث هو استمرار، فتوقفت حركة الاجتهاد الدعوي، وضعفت الأساليب والأدوات الفاعلة، وبدأت الثقة بالنفس تخدع أصحابها، إلى أن برد الوطيس، وأصبحت السيوف محدودبة، وهي الآن بحاجة إلى من يحمي النار ليكمل مسيرة التقويم؛ لتدخل غمادها كما كانت في سالف أيامها، فتعود إلى منهج البدايات على طريق سلف هذه الأمة، في الصبر والعمل والمثابرة وترك المتاجرة.

المبحث الثالث

توفير شروط الميلاد الأول وظروفه

«لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها»

أخرج حافظ المغرب أبو عمر ابن عبد البر بسنده في كتاب «التمهيد» قال: «أَخْبَرَنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْعَبَّاسِ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى، قَالَ: حَدَّثَنَا أَشْهَبُ، عَنْ مَالِكٍ، قَالَ : «كَانَ وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ يَقْعُدُ إِلَيْنَا وَلا يَقُومُ أَبَدًا، حَتَّى يَقُولَ لَنَا: اعْلَمُوا، أَنَّهُ لا يُصْلِحُ آخِرَ هَذَا الأَمْرِ إِلا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهُ، قُلْتُ[1]: يُرِيدُ مَاذَا؟ قَالَ: يُرِيدُ فِي بَادِئِ الإِسْلامِ، أَوْ قَالَ: يُرِيدُ التَّقْوَى»[2].

وسؤال أشهب للإمام مالك عن مراد وهب بن كيسان له دلالته في تحديد مراد الألفاظ، والأمر المراد في قوله: «آخِرَ هَذَا الأَمْرِ» هو تطرق الفساد بعد الصلاح، أو أصل المنكر والفساد؛ لأن الذي يصلُحُ هو الأمر الفاسد

---

(١) السائل هو الراوي عن مالك، والمجيب هو الإمام مالك أي: يريد وهب بن كيسان في أول الأمر، أي: بداية الإسلام.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق: مصطفى ابن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ، ج٢٣، ص١٠.

لا الصالح، وقد صلح فساد الأرض بالقرآن وبمنهج التعامل مع القرآن، يقول محمد البشير الإبراهيمي في مقال له نشر عام ١٩٥٢م: «هذا العنوان جملة إن لم تكن من كلام النبوة فإن عليها مسحة من النبوة، ولمحة من روحها، وومضة من إشراقها.. فالذي صلح به أول هذه الأمة حتى أصبح سلفاً صالحاً هو هذا القرآن الذي وصفته منزّله بأنه إمام، وأنه موعظة، وأنه نور، وأنه بينات، وأنه برهان»[١].

ويرى سيد قطب أن صناعة الجيل الأول كانت بأمرين اثنين، القرآن ومنهج التلقي، يقول رحمه الله: «كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن، القرآن وحده، فما كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديه إلا أثراً من آثار ذلك النبع، فعندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»[٢]... هناك عامل آخر غير اختلاف طبيعة النبع، ذلك هو اختلاف منهج التلقي عما كان عليه في ذلك الجيل الفريد، إنهم في الجيل الأول لم يكونوا يقرأون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م، ج٤ص٩٣.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم الحديث: (٢٤٦٠١)، ج٤١ص١٤٨.

الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه»[1].

وقد ألَّف الأستاذ محمد صادق عرنوس رسالة بعنوان: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها»[2]، يقول فيها: «إن الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان فهموا الإسلام غير فهمنا، وخرَّجوا مقاصده غير تخريجنا، فهموه روحاً تتقمص من هداه الله إليه، فإذا هو ربانياً حكيماً ينظر بنور الله، ويحكم بما أنزل الله، ولم يفهموه كما فهمناه رسوماً عجفاء، وصوراً جافة، يُؤدى ما يُؤدى منها بتكلف ظاهر، ويُترك ما يُترك منها غير مأسوف عليه، كأنما لم تأت أحكامه طُهرةً للنفوس، وتزكيةً للأرواح، وصلاحاً للدنيا، وفلاحاً في الآخرة»[3].

ولن تقوم هذه الأمة من نكستها وتنهض من جديد إلا إذا استعادت مكمن قوتها في تناغمها وتجاوبها مع كتاب الله تعالى، تلقياً وفهماً وشعوراً وأثراً وعملاً ودعوة، ثم نهوضاً حضارياً شاملاً، يقول مالك بن نبي: «وإنه لتفكير سديد؛ ذلك الذي يرى أن تكوين الحضارة كظاهرة اجتماعية إنما يكون في نفس الظروف والشروط التي ولدت فيها الحضارة الأولى، كان هذا صادراً عن عقيدة

---

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الشرعية السادسة، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ص١٢-١٤.

(٢) طبعت هذه الرسالة بمطبعة التقوى في القاهرة عام ١٣٥٦هـ، وأصلها محاضرة أُلقيت في نادي محاضرات الوعظ والدعوة الإسلامية، وهي ملحق بمجلة التقوى العدد رقم (١٦٨).

(٣) «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها»، محمد صادق عرنوس، القاهرة، مطبعة التقوى، ١٣٥٦هـ، ص٧.

قوية، ولسان يستمد من سحر القرآن تأثيره، ليذكر الناس بحضارة الإسلام في عصوره الزاهرة»[1].

وقد اتفق المؤرخون قاطبة على أن الجيل الأول لهذه الأمة المتمثل بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جيل من الطراز الأول، ولن يتكرر بمجموعه بالظروف نفسها لوجود المربي الخاتم صلى الله عليه وسلم، وقد أخذت هذه اللفتة التاريخية المجيدة انتباه المفكرين فأدهشتهم، فأخذوا ينقبون عن سر ذلك التميز الذي كان لهذا الجيل، وهي دراسة جديرة بالتحليل والاستنباط المتقدم المبني على نظريات التلقي وعلم النفس وعلم الاجتماع من منظور علمي مجرد، للخروج بمنهج تربوي اجتماعي إسلامي في صناعة جيل التغيير.

وقد جعل القرآن للسابقين الأولين ميزة لم تكن لمن جاء بعدهم، وهذه الميزة نابعة من كونهم مادة التغيير الحضاري لهذه الأمة، وهم القلة المؤمنة المبدعة المؤثرة التي نفضت عن نفسها أغبرة الماضي ونظرت لانفلاق فجر جديد، وهم الذين قال فيهم سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

فالسابقون الأولون يمثلون حالة الريادة في بناء أسس الأمة الوسط وقواعدها، ويمثلون بمجموعهم الجينات الأساسية للجسد الإسلامي القادم، وبقدر صلاحية هذه الجينات وقدرتها على المواصلة والاستمرار والبقاء، يكون صلاح الأمة وقدرتها على التواصل الحضاري مع باقي الأمم

---

(١) شروط النهضة، مالك بن نبي، ص٢٥.

والشعوب، وكلما أجهد العاملون أنفسهم في سبيل إنشاء جيل الريادة كان الامتداد الحضاري أرسخ خطىً وأشد تحملاً.

ولذلك فإن عودة السابقين الأولين من العاملين المتأسين بمن آمن مع نوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب، وقوم موسى وحواريي عيسى، هي استجابةٌ لأمر القرآن الضمني، وتطبيق لمنهج النبوة الفعلي، وهي ليست باستحالة اجتماعية، ولا امتناع أخلاقي، ولا طفرة غير متكررة، بل إنها تحصيل حاصل، ووعد أكيد متحقق ولو بعد حين، لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥)، وتشبيه استخلاف المخاطبين باستخلاف من قبلهم ليس متوقفاً على جيل الصحابة، بل هو وعد للأمة كلها، وما كان الله ليخص الخير بزمن دون زمن، أو بمكان دون مكان، أو بأشخاص دون أشخاص، فالخير مفسوحٌ للجميع؛ لينهل من مائدته من صبر وآثرها على موائد الشر، وإنها لكلمة الله الماضية في عباده المتقين: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (الصافات: ١٧١-١٧٥).

المبحث الرابع
عقبات وتحديات على طريق التغيير

طريق التغيير شاق وطويل، والعقبات تزيد من طوله وتُضاعف من مشقته، فمنها الداخلي، ومنها الخارجي، منها ما هو مرتبط بالتربية الذاتية لأصحاب المشروع، ومنها ما هو مرتبط بطبيعة المرحلة التي يمر بها مشروع التغيير والإصلاح، وحصر هذه العوائق والتحديات في بابٍ من الأبواب أو فصلٍ من الفصول من العسرة بمكان؛ ولذلك سأقف مع نوعين من أنواع العقبات والتحديات التي تعترض التغيير، وهي العقبات والتحديات الداخلية والخارجية.

أولاً: العقبات والتحديات الداخلية:

العقبات والتحديات الداخلية التي تعترض طريق التغيير نوعان؛ عقبات داخل حركات التغيير والإصلاح، وعقبات داخل المجتمعات الإسلامية.

أما العقبات داخل حركات التغيير والإصلاح فهي عقبات يأتي علاجها من الداخل الناقد، وتتمثل هذه العقبات في البرامج المتكررة التي تنتهجها الحركات الإصلاحية، والشعور بالفصل بينها وبين الأمة، بما يؤدي إلى الشعور بالملل والفتور والسلبية وسوداوية النظرة والشعور بالإخفاق والتراجع، والفوضوية وضعف الإدارة وقلة التركيز على التخطيط الاستراتيجي والتكتيكي والموازنة بينهما، وضعف التواصل الاجتماعي والأسري بشكله الطبيعي المتوازن، والحرص على الإنجاز

والإنتاج مع إهمال المواصفات والمعايير، وحب الظهور والتمسك بالمناصب الدعوية – إن صح التعبير – مع وجود من هو أقدر وأجدر، والنقد العلني للحركات التغييرية والإصلاحية المخالفة، والفوضوية وضعف روح المسؤولية، والتعلق بالأشخاص والتعصب لهم دون الثبات على الأفكار والمبادئ، وهي عقبات تنتسب لضعف التربية الفكرية والإيمانية والتربوية والروحية والسلوكية، مع افتقاد عنصر القدوة والأسوة في جيل الريادة والقيادة، وهذه العقبات والتحديات لا ينكرها من اطلع في الداخل نظرة نقد جادة، ونظرة رحمة مبتغاة، وهدف أصيل نبيل.

وليس من أهداف الدعوة التنموية التربوية السكوت على الأخطاء، أو التغافل عن الخلل المنهجي المصاحب لحركة الإصلاح الاجتماعي، كذلك ليست هذه الأخطاء بالأمر الداعي إلى الخيبة وسوء الظن والارتداد عن العمل، بل هي داعية العمل ضمن منهج روحي تربوي لاستعادة بياض الصفحات، ونصاعة الكلمات، في القلوب القابلة لأن تصفو بعد كدر واختلاط، فاليأس أشد بؤساً على الدعوة من هذه الأخطاء، لاسيما أنها أخطاء طبيعية تنعكس من حياة البشر المعرضين للفتنة والنكسة، وما أسعدني بقوله تعالى في وصف المتقين من أهل الجنة: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ (الحجر:٤٥-٤٧)، فالغل وما يتبعه من المشاحنة وحب الدنيا والحرص عليها الذي هو داعية الغل

لا يسلم منه أحد[1]، وإنما العبرة في أن يكون هذا داخل القلوب مطوياً، لا في ظاهر الأعمال مفضوحاً مرئياً.

وأما العقبات والتحديات التي تعترض طريق التغيير والإصلاح في داخل المجتمعات الإسلامية فتتمثل في أمرين اثنين، اتجاه الفساد السياسي، واتجاه الفساد الفكري.

أولاً: اتجاه الفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي المـُمنهج، والاستبداد في مصادرة الحقوق الفكرية والثقافية والتربوية والعلمية والسياسية والاجتماعية، ومحاربة الحريات الإنسانية والبشرية فضلاً عن الحريات الإسلامية والشرعية، وقد أوجز القرآن ذكر هذه الاتجاهات من الفساد بتعبير أخّاذ يختصر كل تعبير، ويتجاوز كثرة الكلمات المُموهة، والجمل المُلبسة، والتعبيرات الغامضة، والأساليب الملتوية بكلمة مختصرة موجزة، فاضحة واضحة، ألا وهي كلمة «الْمَلَأُ»، فهي طبقة الفساد العفن، وأسلوب المكر الخادع الغادر، المستحكم

(١) يقول الأزهري: «سمعت غير واحد من مشايخنا يقول: إن زهاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتتاموا عشرة مع وفور عددهم وكثرة خيرهم، وسبقهم الأمة إلى ما يستوجبون به كريم المآب برحمة الله إياهم ورضوانه عليهم، فكيف من بعدهم وقد شاهدوا التنزيل وعاينوا الرسول؟ وكانوا مع الرغبة التي ظهرت منهم في الدنيا خير هذه الأمة التي وصفها الله جل وعز فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠)، وواجب على من بعدهم الاستغفار لهم والترحم عليهم، وأن يسألوا الله ألا يجعل في قلوبهم غلاً لهم، ولا يذكروا أحداً بما فيه منقصة لهم، والله يرحمنا وإياهم، ويتغمد زللنا بفضله ورحمته إنه هو الغفور الرحيم»، يُنظر: **تهذيب اللغة**، أبو منصور الأزهري، ج٥ص٧، وما نسبه الأزهري لبعض مشايخه فيه شيء من الحق لكن ليس بهذه المبالغة من التقليل، فهم أكثر من ذلك بكثير، هذا ما يشهد به التاريخ، وما يشهد له القرآن الكريم من الترضي على أصحاب الشجرة وهم ذلك العدد الوفير، وكذلك كتب الفضائل في الصحاح والجوامع والمصنفات والرسائل الحديثية ما يشهد لهم بعظيم الزهد، وكبير الامتثال في الاندراج في مدارج السلوك والزهد.

بمقدرات الأمة، والقاضي المحارب لكل جديد يهدد وجوده وبقاءه، والمفكر الذي أتى على حيل الشيطان وأساليبه، الناطق بكلمة الجمال، والمُبطنُ اعتقادَ الباطل وأساليب الاحتيال.

«الْمَـلَأُ» كلمة تمالأت على كل كلمة، وارتفع صوتها فوق كل صوت، وأجلبت على الخير خيل ورجل الباطل، نطقت بذلك أحياناً: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (الأعراف:١٠٩-١١٢)، وأنطقت ممثلها أحياناً أخرى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٣٤-٣٧)، صوتان من حنجرة واحدة، وكلمتان من قاموس واحد، وردة فعل باعثها قلب رجل واحد.

سلاح «الْمَلَأُ» تسفيه الآخرين: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (الأعراف:٦٦)، وتضليل المخالفين: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الأعراف:٦٠)، وتكذيب الصادقين وتهميش وجودهم وأثرهم في الحياة: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ (هود:٢٧)، استكباراً وتحدياً وعناداً: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ

ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف:٧٥-٧٧)، وتهديداً وإجباراً: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف:٨٨-٩٠).

وهذه الفئة لا تتورع في اللجوء إلى أي شكل من أشكال الاستبداد والإقصاء ومصادرة الحقوق إن طالت يدها ذلك، وقدرت على إفراغ صوت الحق بعد ذلك: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (القصص:٣٨)، بل تتجاوز المعقول والمعروف للولوج في باب الجنون والمنكر والباطل: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ (الأعراف:١٢٧)، وهي فئة لا ترعوي عن مخالفة الحق في شيء، موافِقةً الباطلَ في كل شيء، كيف لا وقد استنكهت طعم الترف فقرَّبته،

واستقذرت طعم الإيمان فاستبعدته: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (المؤمنون:٣٣).

ثانياً: اتجاه الفساد الفكري، ومن «الْمَلَأ» إلى أسناد وأنصاب وأزلام «الْمَلَأ» ، «رُّوَيْبِضَة» الفكر والثقافة، الناطقين بكل باطل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**»(١)، ونحن نعيش في زمن قد أخذت الرويبضة مكاناً بفعل الملأ الظالم المستبد، وهؤلاء قد جمعوا إلى ثقافتهم نجاسة المقصد، وخبث الطوية، فنطقوا في أمر العامة تفاهةً وسفاهةً ورذالةً، فجاؤوا بالفساد العريض، وبالمنكر الفاحش.

وبسبب تمكين «الرُّوَيْبِضَة»، قبل الملأ أصبحت الأمة تعيش ضياعها، وترى حتفها، وتلمس مُدية القاتل بيدها، غير آبهة بسبل نجاتها ولا بطريق خروجها من محنتها، وتمثل «الرُّوَيْبِضَة» ثقافة التحايل والتبرير والمدح والثناء، أو الرفض والإقصاء والذم والهجاء، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ج٢ص١٣٣٩، رقم الحديث: (٤٠٣٦).

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٧)، فطبقة الشعراء[1] هي أحد أشكال طبقة «الرُّوَيْبِضَة»، ومن يطالع التاريخ الأدبي لهذه الأمة سيعلم حجم الوبال الذي جره أولئك على الخلفاء والسلاطين، من نهب أموال الأمة، والتلاعب بعقول حكامها، وإلهائهم عن الواجب المطلوب، إلى الحرام المرذول، وتضييع حقوق الرعية، بالمديح الكاذب، والثناء الباطل، حتى بلغ الحال بنا ما بلغ، والساكتون الصامتون ممن ورثوا علم النبوة استمروا في صمتهم لتنطق «الرُّوَيْبِضَة» بكل فحش، ليصدق فينا نطقه عليه الصلاة والسلام: «**وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**»، على أنه عليه الصلاة والسلام قاله تحذيراً وتنبيهاً، وما من واجب مُضيَّع إلا إلى جانبه حرام مرتكب، وما من سنة مهجورة إلا إلى جانبها بدعة بالتزيين مستورة.

فهاتان الآفتان آفة الملأ التي تمثل الاتجاه السياسي والأمني والاقتصادي، وآفة «الرُّوَيْبِضَة» التي تمثل الاتجاه الثقافي والفكري، قد عمَّ شرُّهما في المجتمعات الإسلامية اليوم، وقد نطق القرآن تحذيراً منْ الآفة الأولى، ونطقت السنة تنبيهاً على الآفة الثانية، لتتخذ الثلة المؤمنة العاملة تدابير العلاج، وحسن التأتي، والصبر على تحديات المرحلة، بما يكون عوناً للخروج من مأزق المرحلة الراهنة، والدخول في مرحلة البناء الحضاري للأمة الإسلامية، والدعوة الهدائية التي تحملناها لبقية أمم الأرض، ولنكون على قدر المسؤولية وعظيم التكليف، بقدر الطاقة التي شرف الله بها المؤمنين على غيرهم، لنكون عنوان الامتثال، وبريد النهوض والارتقاء.

---

(١) مع اعتبار الاستثناء في الآية، إذ الغالب على الشعراء هذه الأوصاف، والحكم للغالب الأعم لا للمستثنى الأخص.

ثانياً: العقبات والتحديات الخارجية:

كثر اللغط حول العقبات الخارجية التي تعترض طريق النهوض، وتحاول جاهدةً وأد المشروع الإسلامي بكل الحيل الممكنة وغير الممكنة، حتى أصبح العدو الخارجي الهمَّ المسيطر على قلوب الدعاة، والخوف الأكيد المتمكن في الأفئدة، والفكر المستقر في العقول والأذهان، وبنظرة متفحصة في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم لا نجد ذكراً للعدو الخارجي باعتباره عقبة تعترض طريق النهوض، كما رأينا في استفاضة حديث القرآن عن الملأ والأقوام المكذبين لأنبيائهم ورسلهم، وكذلك الأمر في السنة النبوية لم يأت ذكرٌ للعدو الخارجي باعتباره صاداً عن الدعوة، وهنا يثور السؤال حول العقبات الخارجية، فهل الوحي نطق بجميع التحديات التي تقف في وجه الدعوة الإسلامية بمعناها الحضاري؟ أو أنه استعرض الأخطار زمن نزول الوحي وترك الاجتهاد لعلماء الأمة كلًّا في وقته؟ أو أنه تكلم عن الأخطار والعقبات ولم يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا وأجاب عليها؟

فهذه الأسئلة وغيرها تُطرح على بساط البحث، وتحتاج إلى جوابٍ شافٍ كافٍ يؤدي المقصود بتمامه، والحق أن الوحي لم يحذرنا بشكل مباشر من العدو الخارجي، وإنما هي إلماحة مجملة وردت في تحذير الأمة من المشركين وأهل الكتاب – خصوصاً يهود –، وكما هو معهود القرآن فالتحذير من مشركي ويهود العرب، أما الحديث عن الخطر الخارجي كدولتي الفرس والروم فلم يأت له ذكرٌ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حارب الروم

في حياته، وكانت الغزوات تترى تجاه الشام، ومع ذلك فبقي الأمر غير واضح مما نحن في صدده تحديداً.

ولعلاج هذا الأمر علينا أن نستحضر أمراً غاية في الأهمية وهو: أن الوحي لم يفرق بين عدو داخلي وعدو خارجي، وهذا التقسيم فرضته طبيعة المرحلة التي يعيشها المسلمون اليوم، فالمعركة في حقيقتها بين أنصار الرحمن وأوليائه وبين أتباع الشيطان، بين الحق والباطل، بين حزب الله وحزب الشيطان، بين متبعي الهدى ومتبعي الضلالة، سواء أكان العدو داخلياً أم خارجياً فالأمر سيَّان من حيث المواجهة والمصادة، فطبيعة المرحلة هي التي تفرض مقدمات العمل وأركانه وواجباته، وليس الأمر مرتبطاً بجغرافية العدو أو تاريخه.

وفي الوقت ذاته يجب أن نسترعي أمراً آخر، وهو أن العدو الخارجي يبقى خطراً تابعاً للعدو الداخلي وليس العكس، وأنا لا أتحدث هنا عن نظرية العميل السياسي، وتنفيذ الأجندة الخارجية، بقدر ما هو حديثي عن المستفيد الأول والأخير من محاربة النهضة الإسلامية، نعم الآخر الخارجي لا يريد لهذه الأمة أيَّ نهضة أو تقدماً، ويحاربها بشتى الأساليب والوسائل، ويدعم بكل قوة أوتيها أسنة الظلام ورماح الضلالة، ولكن تبقى حلبة الصراع الحقيقي بين الدعاة إلى الله تعالى وبين أعداء الداخل(١).

---

(١) والناظر في الأحداث التي تمر بها الأمة الإسلامية اليوم من مصائب، وما تعرض ويتعرض له المسلمون اليوم من التعذيب والتقتيل والدمار، يدرك حجم المأساة التي تعيشها الأمة، وأن العدو الداخلي لهو أشد ضرراً على الأمة في أبعادها السياسية والعسكرية والأمنية والفكرية والثقافية والتربوية والتعليمية من العدو الخارجي، فهو المانع من التقدم والتطور والتنمية، بحججٍ باتت أوهى من بيت العنكبوت وعلى رأسها حجة الخطر الخارجي.

والخارج يبقى متفرجاً مترقباً حتى إذا قامت للمسلمين قوة بدأ دوره الحقيقي في إقامة لعائن الباطل ضد المشروع الإسلامي في تكامله وتنامه[1]، وما دعم الخارج لأعداء الداخل إلا صورة من صور عقبة الداخل، فلولا التأييد الداخلي لما تجرأ أولئك أن ينبسوا ببنت شفة، لكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال أن يكون هناك تحديات وعقبات خارجية تعترض المشروع الإسلامي وتعمل على وأده قبل مخاضه، ونستطيع أن نحددها في خطرين اثنين:

الأول: الاتجاهات الفكرية المعادية للدين الإسلامي باعتباره حامل مشعل الحضارة القادمة، والمهدد الحقيقي للوجود الحاضر، وهؤلاء هم المغذي الحقيقي للاتجاه السياسي في الدول الغربية تحديداً، وهم الذين يثيرون قلاقل الفتن وزوبعات المحن ضد المشاريع الإسلامية، بل هم من يحرك الأيدي الخفية لنهب ثروات الأمة في سبيل إبقائها فقيرة ضعيفة متهالكة، وهم من يقف ضد تنمية الأمة وجعلها مختبرات تجارب الثقافة والتربية والفكر والطب والصيدلة، وما كان لهم ذلك إلا بالتقاء مصلحة عدو الداخل مع مصالحهم، فالتقى العاملان في حلبة الصراع، وكان الشيطان صاحب النصيب الأوفر، والخاسر الكبير هم الجمهور المتفرج من أبناء المسلمين، الذين باتوا قصعةً تُؤكل فصدقت فيهم نبوته صلى الله عليه وسلم حين قال: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى**

(١) الدارس لتاريخ المسلمين في حربه مع الخارج يعلم أن هذه الحرب لم تبدأ إلا بعد أن كان للمسلمين قوة تهدد كيانهم، وتلوح بعصا الترحال عن ديارهم، ابتداءً من عصر النبوة مروراً بعصر الخلفاء الراشدين والملك العضوض، وانتهاءً بعهود السلاطين، وجميع تلك الهزائم والنكسات في المعارك الطاحنة في تاريخ المسلمين مع الخارج كان سببها في حقيقة الأمر الخطر الداخلي، سواء من الفاسدين المتهالكين على الدنيا من حكام الزور والبهتان، أم من الفرق الضالة التي تحفر للأمة خندق الخيانة والغدر، أم من اتجاه الفجور والفسق والنفاق ممن يريد لصوت الفجور والطغيان أن يعلو ليلهو!!

قَصْعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ».. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ[1]؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[2].

الثاني: الاتجاهات السياسية ذات التأثير المادي والعسكري، وخطر هذه الاتجاهات أقل على المدى البعيد، بل قد يكون لها من الفائدة ما لا يعلم به إلا الله تعالى وهو القائل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦)، فخطر هذه الاتجاهات خطر مؤقت يزول مع تحديه والوقوف في وجهه، وما استعصت الأمة على عدوها الخارجي ممانعة ومناكفة، بل هي الواقفة بكل ما أوتيت من قوة وصبر على تعدي الخارج، وتبقى عقبة الخطر الخارجي العسكري عقبةً نفسية تكهنية أكثر منها عقبةً مانعة من

---

(١) الوهن هو الضعف كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ (العنكبوت:٤١)، وهو مما لا يكاد يخفى على السائل، ولو كان مراده السؤال عن معناه المعروف لكان الجواب: الضعف، لكن السائل يسأل عن شيء أدق من ذلك، وهو سبب الوصول إلى هذه الحالة من التردي المذموم الذي لا يتخيله المسلم في زمن عزة الإسلام، فكان الجواب المقاصدي على السؤال الدقيق من المعلم الأول صلوات ربي وسلامه عليه: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»، أي: الموصل إلى هذه الحالة هو إيثار الحياة الدنيا على الأخرة، «قال الطيبي رحمه الله: سؤال عن نوع الوهن، أو كأنه أراد من أي وجه يكون ذلك الوهن؟ قال: وهما متلازمان؛ فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين، ونسأل الله العافية»، يُنظر: **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤١٥هـ، ج١١ص٢٧٣، وهو الأمر ذاته الذي وسوس به الشيطان لأبينا آدم عليه السلام: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ (طه:١٢٠)، فشجرة الخلد هي كراهية الموت، وملك لا يبلى هو حب الدنيا.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم الحديث: (٤٢٩٩) ج٤ص١٨٤.

النهوض والتغيير والبناء، وتصويرها على أنها العقبة إما خلل في التصور والفهم، وإما سوء طوية وخبث نيَّة.

وقد شاهدنا العقبات والتحديات التاريخية والحاضرة التي اعترضت الأمة في مسيرتها النهضوية من الخارج، فوجدنا أن الخطر الخارجي ألهمها الإيمان، وأعادها إلى مائدة الإسلام، وبثَّ فيها روح الجهاد، وحب القتال، وأحيا فيها العزة والكرامة والنضال، فوجدنا الشعوب الإسلامية التي تجاهد عدوها الخارجي المعتدي أقوى شكيمةً، وأمتن صفًّا، من تلك الشعوب التي تعيش حياة الترف والبذخ، وهي أقرب طريقاً إلى بناء المسلم وفق التصور الإسلامي، من تلك التي تتجرع طعم الذل والهوان، وترضع لبن البؤس والخضوع، وتبحث عن أسباب الكرامة في دور المهانة، وعن دور الريادة تحت مخالب القمامة، فلا دنيا حصَّلت ولا آخرة أثمرت، وتاريخ يسطر أسباب اللعن والطي والنسيان!

وتبقى العقبات والتحديات الداخلية والخارجية داخلةً تحت اسم الوهم والخيال إذا أرادت الأمة أن تتجاوزها بمعول الوحي، وبإرادة القوة والعزيمة والإقدام، وبنظرة صادقة للدار الآخرة، وبسلوك الرحمة لأمم الأرض الضالة، دون بحث عن الريادة والتقدم المرتبط بحب الحياة الدنيا، بل المرتبط بمعنى الخلافة الشامل للحياة الدنيا والآخرة؛ فإذا تجاوزت الأمة مرحلة التحدي الفكري المستورد الذي سيطر على سلوكها، وعقبة الثقافة الغربية التي وجَّهت مسيرتها، فعند ذلك ستهون الأمور وسيكون في مقدور الأمة أن تتجاوز جميع العقبات، بخطى ثابتة وعزم أكيد.

المبحث الخامس

استراتيجية النهوض وشروطه

الحديث عن استراتيجيات النهوض لهذه الأمة حديث عن مفهوم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، المرتبط والمرتهن بالوعد الإلهي ضمن شروط الوحي: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥)، المتوج بالمنّة السرمدية والتمكين المتين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص: ٥-٦)، ولا يكون النهوض إلا بعد قعود وسبات وانتكاس، وارتباطٍ بمنهجٍ يصح معه الانتقال من دار القعود إلى دار الشهود، ومن حب سماع الصوت إلى حب رؤية الموت، ومن جعجعة اللسان إلى جلجلة السنان، ومن عالم الكلمات إلى عالم اللبنات.

وعلم الاستراتيجيات علم شبه معاصر ارتبط بالمدرسة العسكرية – وخصوصاً الغربية –، ثم شاع حتى ضمَّ تحت جناحيه الاتجاهات والعلوم السياسية والفكرية والاقتصادية والأمنية والاجتماعية والتربوية والعلمية، وبات

مرتبطاً بأمرين اثنين؛ الزمن المستقبل، والعمل على تحقيق الأهداف والمقاصد في وقت محدد، ضمن مجموعة من الخطط التكتيكية التي تخدم الاستراتيجية الشاملة، ولا يخفى علينا أن الإفادة من هذه العلوم المرتبطة بالمنهج المجرد عن الفكر والثقافة، الذي هو عبارة عن أدوات ووسائل لتحقيق الأهداف الفكرية من الأمور التي بتَّ الشرع فيها كلمته، ونطق العلماء بجوازها بل بوجوب تعلمها والأخذ بها إن كان في ذلك تحقيقٌ لمصلحة المسلمين، ولا يتعارض مع قواعد الشرع وأصوله.

واستراتيجية النهضة الشاملة يجب أن ترتبط بالوحي أصالة عند الانطلاقة الكبرى لهذه الأمة، بأدوات العصر ووسائله وإمكانياته وشروطه، وسأقف مع مجموعة من الاستراتيجيات التي جاء بها الوحي، وهي:

أولاً: استراتيجية التعامل مع الوجود الاستبدادي.

ثانياً: استراتيجية التعامل مع الطبقة الفكرية الداخلية.

ثالثاً: استراتيجية التعامل مع الحكومات الشورية.

فهذه ثلاث استراتيجيات نستطيع أن نستخلص منها أبعاد الاستراتيجية الشاملة للنهوض الحضاري للأمة الوسط، استجابةً لأمر الله تعالى الذي شرع لنا من الدين ما وصى به الأنبياء السابقين: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى:١٣)، فإذا ما ضممناها إلى الاستراتيجية المحمدية تكاملت الرؤية، وانطبق الخير، وتحركت المسيرة بخطى واثقة.

وقد حرصت كلَّ الحرص أن أتحدث عن هذه الاستراتيجيات الثلاث من الوحي نفسه، فهو الثابت الأصيل، وما يتبع هذه الاستراتيجيات من فروع اجتهادية فهي خاضعة لطبيعة المرحلة والمكان والبيئة، فما يصلح في بيئة لا يصلح في غيرها في الزمان الواحد؛ ولذا فإن النظر في الاستراتيجيات التي تمهد للمستقبل وتخطط له، يجب أن تبقى محتفظة بالإجمال والخطوط العريضة دون الدخول في التفصيلات المتروكة لاجتهاد المجتهدين؛ لأن الحديث عن الاستراتيجية هو حديث عن علم متكامل لا حديث عن خطط تكتيكية؛ ولذلك فإن الوقوف مع الخطط الاستراتيجية بمفهومها العام هو الأنسب في هذا المقام، وتُترك تفصيلات تلك الاستراتيجيات لاجتهاد العاملين كلاًّ في وقته وزمانه.

أولاً: استراتيجية التعامل مع الوجود الاستبدادي(١):

وتمثلت هذه الاستراتيجية بسلوك مجموعة من الأنبياء في دعوة أقوامهم إلى دين الله تعالى، كما كان ذلك لنوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب وموسى عليهم السلام، وتتمثل استراتيجية هؤلاء الأنبياء في مجموعة من النقاط الأساسية، أستطيع تلخيصها فيما يأتي:

- **المحاجة في الحق**، والثبات عليه، ونستطيع أن نقف مع مجموعة من النصوص التي تبين هذه النقطة، وهي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (هود:٣٢)، ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ

(١) يُنظر في هذا: «منهج الأمم السابقة في التعامل مع دعوة الأنبياء والمرسلين، الأنواع والمقومات كما يبينها القرآن» للمؤلف، مجلة جامعة جازان، المجلد ١، العدد ١.

إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام:٨٣)، وقوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الأعراف:١٠٤-١٠٥)، وقوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٥-١٢٦).

- **لفت الأنظار إلى الفساد الفكري والمواجهة والتحدي بالحق،** كما قال سبحانه: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (يونس:٧١)، وقال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأنبياء:٥٧-٥٨)، وقال: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ (هود:٥٤-٥٥)، وقال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (هود:٩٣)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (الإسراء:١٠١-١٠٢).

- **الرحمة بالمخالف؛** كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾

(هود:٧٤-٧٥)، وما جاء على لسان صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (الأعراف:٧٩)، وما جاء على لسان شعيب: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود:٨٨).

- **الوضـوح والمصـارحـة المبـدئيـة**: وتمثلت في إبراهيم عليه السلام ومـن معه من المؤمنين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الزخرف:٢٦-٢٨)، وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ (الممتحنة:٤).

فهذه الاستراتيجية نحتاجها في مرحلة الصراع الحاد، وفي مرحلة القلة المؤمنة أمام الكثرة المتكاثرة، لا في مرحلة الرخاء وانتشار الحريات، وفي زمن الغطرسة والكبر لا في زمن اتزان الأعداء وتقبلهم للمخالف، وهي استراتيجية تحفظ لأصحاب الدين الحق الثبات على المبادئ في عدم تضييع حقوقهم، وهذه الاستراتيجية من الاستراتيجيات اللازمة والواجبة في مطلع الدعوة، وفي وقت اتساع باب المحن.

ثانياً: استراتيجية التعامل مع الطبقة الفكرية الداخلية:

وتتمثل هذه الاستراتيجية في تعامل موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، الطبقة الفكرية المتحايلة على تطبيق الدين، التي تريد تطويع الأوامر الإلهية وفقَ رغباتها وشهواتها والتي لا تقيم هيبةً للشرع، وتحاول الخروج الدائم والمتواصل على الأوامر والنواهي الشرعية، وهي تمثل كذلك أعلى درجات الانفلات الفكري في مواجهةٍ وتحدٍ للانضباط الشرعي، وهذه الطبقة عادت إلى مجتمعاتنا المعاصرة بصورة شنعة بشعة، مستقبحة مسترذلة، لكنها ضمن تحديات المرحلة التي يجب على العاملين أن يحسنوا التعامل معها، بمنهج القرآن، وبنَفَس النبوة الصبور.

يمثل بنو إسرائيل في كتاب الله تعالى الأمة المؤمنة التي حاولت النهوض من ترديها وعبوديتها، فواجهت تحدياتٍ وعقبات كان لها عظيم الأثر في طول مدة المكث في عذاب التخلف والقهر، وقد أنجاهم الله بالمنهج الموسوي من تسلط فرعون وملئه وأورثهم أرضهم وديارهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف:١٣٧)، فكانوا على النجاة والنصر والظفر، ثم ما لبثوا قليلاً من الوقت حتى بدأ الاختبار البسيط فسقطوا في التقليد المقيت: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف:١٣٨-١٤٠)، ومنهج موسى عليه السلام

يتسم بالصبر وضبط الأعصاب والحكمة في الخطاب مع البلاغة في الاستدلال؛ وهو ما نحتاجه اليوم في التعامل مع المخالفين من أبناء جلدتنا ممن يريد تقليد مناهج الغرب ليتخذها حاكماً علينا في حياتنا[1]، ومنهج التقليد هذا ساد في المجتمعات الإسلامية على مدى عصورها ودهورها بل كان من بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]، وهو يدل أن السلوك البشري يعم ولا يخص فئةً دون سواها.

ثم جاء البلاء المبين فوقعوا في مصيدة عبادة غير الله تعالى، كما وقع كثير من أبنائنا اليوم: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ (الأعراف:١٤٨)، وقد وقع بنو إسرائيل بسبب شعوذة السامري، فأعطوه عقولهم، وأسلموا له أفئدتهم، الذي اعتذر عن فعلته بأنه عن أثر النبوة صدر، ومن معين الرحمة خرج: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ۝ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ (طه:٩٥-٩٦)، وهذا ما وقعت فيه الأمة سابقاً وتصر على الوقوع فيه اليوم من قبل المشعوذين والدجالين ممن يلبس لبوس الدين، ويدعي حب الرسول صلى الله

---

(١) ولذلك فإن الرأفة بالمخالفين الذين يدعون إلى المناهج الغربية الكافرة، إنما صدروا عما صدر عنه أولئك القوم من بني إسرائيل، فمنهج موسى هو المنهج السديد في التواصل معهم، ومنهج الإلغاء والإقصاء والتكفير والاتهام سيزيد من بشاعة الموقف، وشناعة المصير، وهذا ما لا يؤيده دليل فضلاً عن استدلال.

(٢) أخرج الترمذي في جامعه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَرَجَ إِلَى خُيْبَرَ، «مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف:١٣٨)، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، يُنظر، جامع الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء: لتركبن سنن من كان قبلكم، رقم الحديث: (٢١٨٠) ج٤ص٤٧٥.

عليه وسلم والمؤمنين، الذين هم على منهج السامري، فكثُر السامريون وقلَّ الموسويون، ولا حول ولا قوة إلا به.

وهنا كان لا بد من إعادة البناء للأمة الوسط التي تحمل القيم بصبر وثبات: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٥٥)، وتأتي الإشارة القرآنية إلى أن أولئك السبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام ليكونوا قومه[1] هم بداية الطريق ونواة الأمة الوسط، ولنقرأ: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ

---

(١) ذهب النحاة إلى إعراب ﴿سَبْعِينَ﴾ بأنها مفعولٌ ثانٍ، وجوّز أبو البقاء أن تكون على البدلية، وإن كان لي من كلمة هنا فأرى أن ﴿سَبْعِينَ﴾ عطف بيان، فالمختارون هم سبعون رجلاً، أي أن المختارين الحقيقين أن يكونوا قوم موسى عليه السلام هم أولئك السبعون فحسب، فهو اختار قومه من بني إسرائيل فكانوا سبعين رجلاً، وهذا الإعراب هو المتناسب مع المعنى القرآني لمفهوم الاجتباء والاختيار والتمييز بين الطيب والخبيث، وما كان اختياره عليه السلام إلا بعد فتن كثيرة صمد فيها أولئك السبعون، فاستحقوا أن يكونوا قوم موسى عليه السلام، والبقية ليسوا قومه، كما قال سبحانه مخاطباً نوحاً عليه السلام: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّـهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، فنفى سبحانه أن يكون الابن من أهل الوالد؛ لأنه عمل عملاً غير صالح، وهو ما تؤيده قراءة الكسائي ويعقوب: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّـهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾، وحينئذ يُضمنُ فعل ﴿اختار﴾ فعلاً يتعدى لمفعول واحد بمعنى ميّز، يُنظر: التبيان في إعراب القرآن من وجوه الإعراب والقراءات، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ج١، ص٢٨٦.

وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٦-١٥٧).

وقد كان لبني إسرائيل اعتيادات مسترذلة لكنها عندهم ممدوحة محمودة بل مطلوبة، فمن ذلك اعتيادهم أكل البصل والثوم، وموسى عليه السلام الذي جاء بوحي السماء ليكون خليفة الله في الأرض، يدلهم على طريق رغباتهم من باب التربية والتأديب واعتبار اللاحق بالسابق: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ٦١)، وفي هذا دليل على أن الإنسان معتاد على تقديم معتاد النفوس - وإن رذلت -، فجاءت الآيات لبيان أن التغيير مطلب نهضوي، وأن مقاومته تثبيتٌ لرذائل العادات وعادات الرذائل، وقد اعتادت الأمة في كثير من أوقاتها التاريخية على التناحر والاختلاف، والتباغض والتحاسد والتشاتم، مستخدمةً في ذلك لسان الأدب، وأحياناً أنغام الطرب، وهي تحن إلى ذلك الماضي في اللاشعور، كما حنَّ بنو إسرائيل إلى بصلهم وثومهم[1]، فأخذنا نصيبنا من الذل والمسكنة والغضب، فقتلنا علماءنا ودعاتنا كما صنعوا بأنبيائهم.

(١) يقول الحسن البصري، رحمه الله تعالى: كانوا نتانى «أَهْلَ كُرَّاثٍ وَأَبْصَالٍ وَأَعْدَاسٍ؛ فَنَزَعُوا إِلَى عِكْرِهِمْ - أَيْ أَصْلِهِمْ- عِكْرِ السُّوءِ، وَاشْتَاقَتْ طِبَاعُهُمْ إِلَى مَا جَرَتْ عَلَيْهِ عَادَتُهُمْ»، يُنظر: الكشف والبيان، أبو إسحاق أحمد ابن محمد بن إبراهيم الثعلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان،١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ط١، ج١ص٢٠٤.

وبسبب اعتياد بني إسرائيل رذائل الأمور؛ ما استطاعوا معاليها عندما طلبوها؛ لأنهم لم يتخلصوا من علة اعتياد الرذائل أصلاً: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٤٦)، وهذه التولية صورة انعكاسية لطبعٍ وسلوكٍ اعتادوه، وتغييرها يحتاج إلى منهجية متكاملة في العلاج والتربية، كان منها التيه، وكان منها العقوبات المادية، وما كانت أسباب شدة المعالجة إلا بسبب طامة الرذيلة.

ومن صفات بني إسرائيل التي نعاني منها في هذا العصر صفة الأنانية التي تجمع إلى الوقاحة حماقةً وخسة، فبعد أن ولَّوا مدبرين طالبوا بنقيض الإدبار وهو الملك، بل قدموا البراهين والحجج والأدلة والأقيسة المنطقية على أن يكونوا ملوكاً!! ولا أدري كيف يلتقي حبُّ الملك في قلوب الجبناء الذين لا يستطيعون الدفاع عن الحقوق فضلاً عن أداء الواجبات؟! ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٤٧)، لكنهم استجابوا في نهاية المطاف لنبيهم وانتصرت الفئة المؤمنة القليلة منهم، ولا أعلم هل استجابت أمتنا اليوم لأمر ربها في أن يكون الملك في الصالحين المقتدرين؟! أو أننا لم نبلغ بعدُ ما بلغه أولئك من الكر بعد الفر!!

ولما طلب موسى عليه السلام من قومه أسباب النهوض والارتقاء الفعلي في الإقدام على الأرض المقدسة جهاداً ومغالبةً، كان الموقف موقفَ الرفض بسبب انطوائهم على الجبن، وحب الدنيا، وكراهية الموت، والجهل بقيم الإيمان من التوكل والثقة بالله تعالى، فجاء على لسان موسى عليه السلام: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (المائدة: ٢١-٢٥).

ونحن في هذا العصر قد أُصبنا بما أُصيب به القوم من قبل، فأصابنا الخوف من العدو الذي لا يُقهر، وقلنا: إن فيها قوماً جبارين بلسان الحال والمقال، فكانت النتيجة الحضارية: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٦)، فعشنا زمن التيه والضياع الحضاري، لكن لا أدري أأربعون هي أم أكثر؟! ولعل في هذا التيه ضياعاً لصفات الجبن والبخل والعجز والكسل والحمق في رمال الصحراء، ولعل في الضياع وُجدان الضالة، ولُقية الخير، ونجدة الحق، وهذه الأربعون كفيلة بأن تدحر جيلاً متكاملاً ممن علقت بهم آثار الماضي الرذيل؛ لتأتي بجيل جديد لينطلق في إقامة الحق والخير كما أراد الله ذلك.

فمنهج موسى، عليه السلام، قد قام على المعالجة بطول النفس، والتَنَزُّل مع القوم إلى أبعد حد ممكن، ومحاولة المعالجة من خلال التجربة العملية والإثبات السلوكي، دون الاكتفاء بالتنظير وإلقاء المواعظ والخطب، ونحن بحاجة إلى هذا المنهج في تعامل الدعاة اليوم مع أبناء المجتمع المسلم ممن أصابهم ما أصاب غيرهم، وساد فيهم الغلو والانحراف.

ونجد في هذا المنهج الذي يجب أن يكون استراتيجية مستقبلية مبدأ التخلص من عقدة الكثرة، والاستغناء عن الناس عند مخالفة الحق؛ ولذلك اختار موسى سبعين رجلاً فحسب، بل قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ (المائدة:٢٥)، وسبب عقدة الكثرة الذلُّ فالشعور بالحاجة إلى الناس، ومن ثَمَّ الوقوع في مزالق تلبية الرغبات والشهوات، ولَتلبيةُ شهوة العامة أوقع في قلوب بعض الدعاة من الحرص على رضى الحكام!

ومن منهجية موسى عليه السلام في البناء المستقبلي لعقلية قومه ونفسيتهم تذكيرهم بأيام الله: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ (إبراهيم:٥)، وهذا التذكير كافٍ أن يترك بصمته في عقل المتلقي وقلبه في قابل أيامه، وفرق بين التذكير بأيام الله وبين التغني بأمجاد الماضي، ونحن نعدل عن التذكير بأيام الله التي أنقذتنا من الاختلاف والشقاق والتناحر وأسباب النجاة من النار، إلى التذكير بأيام الناس من التغني بالماضي التليد والزمن المجيد والانتصارات العظيمة والفتوحات الواسعة، وهو يعكس ثقافتنا في الاعتزاز بالنفس الذي يظهر على شكل الاعتزاز بالماضي؛ لأن الماضي

يعني أنا، أما أيام الله فهي ليست كذلك بالنسبة للمنسلخ عن الشعور الإيماني والانتساب الفكري السليم.

ثالثاً: استراتيجية التعامل مع الحكومات الشورية:

وتمثلت هذه الاستراتيجية بشكلين من أشكال التعامل مع الحكومات الشورية، وهي دعوة يوسف عليه السلام ودعوة سليمان عليه السلام، والذي يعنينا في هذا المقام استراتيجية يوسف عليه السلام في التعامل مع حكومة الملك في مصر، وأما استراتيجية سليمان عليه السلام فأسأله سبحانه أن يهيئ الظروف لهذه الأمة لكي تستطيع أن تصل إلى حسن تطبيقها في التواصل الحضاري، المبني على البعد الإيماني والدعوي في التواصل مع (الآخر).

والأمة اليوم تعيش تشاركاً سلبياً مع بقية الأمم في جميع المجالات، حتى غطت في نوم التناسي لخصوصيتها الثقافية، وأصبحت لا تفرق بين ما هو خاص لا يقبل الاشتراك، وبين ما هو عام لا يقبل الاختصاص، حتى خلطت بين المنهجين، فأصبح العام خاصاً والخاص عاماً(١)، فكان بيانُ دوائر الخصوصية التي تعكس حالة النقاء الثقافي والفكري المطلوبَ من الواجبات التي تسعى الثلة المؤمنة نحوها؛ لأن النهضة على معايير الأمة الوسط لن تتحقق إلا ببيان القواعد الخاصة التي تميز الشكل الإيماني والتصميم الفكري لمعالم هذه الأمة، وقد أدرك يوسف عليه السلام هذه الأبعاد، من خلال تلك التربية النبوية المتوارثة، ومن خلال وحي

---

(١) فمن الخاص الذي أصبح عاماً قضايا الثقافة والفكر والسلوك الأخلاقي، ومن العام الذي أصبح خاصاً الابتكار العلمي والتقدم التكنولوجي، فالأمة بسلوكها تتعامل مع هذه القضايا على أنها من الخاص لا من العام، وهذا نابع من الشعور بالنقص والعجز والتردي، فعلى رواد النهضة أن يعالجوا هذه النظرة لعلاج بقية المسائل.

الله تعالى له، بأن التشارك مع أمم الأرض في بنائها الحضاري العام الذي يصب في مصلحة البشرية في إيمانها ونجاتها من النار في مآلات الأفعال له حدوده التي لا تُتجاوز، وله أركانه التي لا يُقفز فوقها إلا بالهروب التام من الدين، فكان إسهامه عليه السلام إسهاماً حضارياً اقتصادياً فكرياً، انتهى إيمانياً سلوكياً أخلاقياً.

وهذه الاستراتيجية التي اتبعها يوسف عليه السلام كانت بإرشادات الوحي — سواء علمنا تفصيل ذلك أم جهلناه —، وهي استراتيجية تنبئك أن دين الله تعالى قادر على تلبية الاحتياجات لهذه البشرية بوسائل متعددة، وبطرق مختلفة، حسب طبيعة المرحلة الحضارية، والمكانة التي وضعت فيها الأمة الوسط[1]، وعلينا أن نستحضر في هذا المقام أن الزمن الذي جاء فيه يوسف عليه السلام كانت الأمة الوسط فيه الأضعف عدداً وقوةً، والأقوى فكراً وسلوكاً هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن يوسف عليه السلام قد سنحت له فرصةٌ تختصر عليه الزمن الدعوي، وتقلل من فرص المواجهة والتحديات، ولا يخفى علينا أن هذه التحديات جاءته قبل النبوة فنجح في اختبارها وابتلائها، فالظن فيه كذلك بعد النبوة والرسالة.

وهنا يبرز لنا شكل من أشكال الدعوة يختلف بمنطقه وأسلوبه وطريقته واستراتيجيته عن باقي الأشكال الدعوية التي تشابهت عند معظم الأنبياء، في

---

(١) يمثل يوسف عليه السلام الأمة الوسط في هذا المقام، والله يقول في شأن جده إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل:١٢٠)، وكذلك يوسف عليه السلام كان في هذا المقام أمة وحده بميراث: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (يوسف:٣٨).

ظروفها وملابساتها مواجهةً وتعذيباً بل تقتيلاً ونفياً وطرداً، فهل الاستراتيجيات في الدعوة ثابتة في أسلوبها وشكلها، أو أنها تخضع لطبيعة المرحلة التي يمر بها النبي أو الرسول؟

الحق أن القرآن قد أجاب بما قصه على هذه الأمة من ذلك القصص النبوي الفريد، ونجد هنا أن يوسف عليه السلام قد سلك مسلكاً غاير فيه أسلوب الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم، وذلك يكشف لنا أن المنهج الدعوي خاضع بمرونته المنضبطة لظروف المرحلة، لا أنه مُخضعٌ ظروف المرحلة لأسلوبه وشكله، فقد تهيأت الظروف أن يكون صاحب مكانة في دولة يغلب عليها الجانب الشوري دون الجانب الاستبدادي، ويظهر أن حرية الرأي وشيئاً من العدالة كانا متحققين، وهي بيئة لا بد من توافرها لقبول المخالف، وكذلك لمن أراد أن يمارس دوره بالغايات والمقاصد التي يؤمن بها، لا لتحقيق مقاصد (الآخر)؛ ولذلك نجد أن الثبات على المقاصد كان حاضراً في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ (يوسف:٧٦).

والأمة اليوم تعيش فرصاً بالغة الخطورة في هذا الجانب، وهي فرص لو قامت على استراتيجية يوسف عليه السلام بجميع مقاصدها وأبعادها لحققت للأمة خيراً عظيماً، سواء على مستوى الداخل الإسلامي أم الخارج، والذين يتعاملون مع هذه الفرص في غالب الأحيان أحد شخصين، إما صاحب تطرف فكري رافض لأي تعاون أو تشارك مع (الآخر) في الداخل والخارج، أو متهاوي في سبيل الدنيا بشعار الدعوة والهداية، وهذان الشخصان طريق للويل والثبور، والأمة ليست بحاجة إليهما؛ لأن الأول يرسخ قاعدة التصلب في بناء العداوات مع (الآخر)،

ومن ثم إيجاد بيئة حقد وعداء وحسد وكره لهذه الأمة، والثاني يقتل الأمة في فكرها وثقافتها وإيمانها، ويتركها قلقةً مستريبةً من كل داعٍ إلى منهج الدعوة التشاركي مع (الآخر)، فنحن بحاجة إلى الشخص الثالث الذي يكون مهيأً لمد جسور التواصل مع (الآخر)، بثقة إيمانية كبيرة، وبانتماء إلى دين الأمة وملتها، وبعقل متفتح منضبط، وبقلب تخلص من شهوة الحياة الدنيا.

والطريقُ إلى العمل التشاركي مع بقية أمم الأرض، طريقٌ سديد، ومنهجٌ قويم، فنحن نعيش مرحلةً متقدمةً من الانخراط المجبورين عليه، فإما أن نتشارك بقوة ثابتة الأركان، وإما أن نقرر العزلة الحضارية فننعزل عن أمتنا ونتركها لغيرنا، وإما أن نتهاوى في غيرنا فنهلك ونُهلك، والمطلوبُ إحياء منهج التشارك مع الآخر بضوابط صحيحة، وبعزة حقيقية، وبإسهام حضاري فعال، ورفع ألوية الخوف من التأثر بالآخر أوصلنا إلى الذوبان في (الآخر)، وواقع الأمة اليوم شاهد ودليل.

فهذه الاستراتيجيات الثلاث إذا ما ضممناها إلى الاستراتيجية المحمدية الشاملة في منطلقاتها وأبعادها، في رؤيتها ومسيرتها، في فقهها وسياستها، في ثباتها ومرونتها، أصبحت الاستراتيجيات النهضوية في التغيير والإصلاح واضحة المعالم، بينة الأركان، وأصبح الاجتهاد مرتبطاً بقواعد دعوية، وفهوم ناطقة بالمستقبل القريب، وتصورات لطبيعة المرحلة القادمة، في تحدياتها وعقباتها، وستكون الأمة قادرةً على تجاوز عقبات طويلة في الاختلاف حول طبيعة العمل، وفي منهج التعامل مع الملفات الطارئة في كل وقت وحين.

رؤية مستقبلية
لمعاودة بناء الأمة الوسط

على الأمة أن تدرك أن المشوار طويل، وطوله شكل من أشكال ابتلاء الأمة لقياس مدى جديتها في التعامل مع مسألة التغيير على أنها مسألة إيمانية وحضارية في آن، وكي تصل الأمة بمجموعها الكلي إلى درجة الارتقاء الحضاري عليها أن تشق لنفسها سبلاً من الفهم غير المسبوق، وطرقاً في العمل غير المطروق، بعد أن تخلع رداء التعصب والثقة المفرطة بالمنتج الفكري الذي امتلكته عبر قرون غبرت - لا من حيث فساد ذلكم المنتج وإنما من حيث عدم ملاءمة كثير منه لهذا العصر -، وهذا لا يكون إلا بعد ثبات مرحلة تقديس المقدس وتجاوز مرحلة تقديس المكدس.

وعلينا أن نضع نصب أعيننا أمراً غايةً في الأهمية وبالغاً في الأولوية، وهو أن المستقبل القريب الذي ستُبنى فيه الأمة، والمستقبل البعيد الذي ستبني فيه الأمة مجدَها ونهضتها، متوقف على أخذ الكتاب بقوة، بعد أن تستلهم إتيان الحكمة والتقوى، وعلينا أن ندرك أن الأخذ بقانون السببية ما هو إلا استجابة لأمر الوحي، وأن منهج العمل خالٍ من المادية جوهراً ومضموناً، وأن منهج التغيير الذي ستُفعّله الأمة الوسط في قابل أيامها يكمن في فهمها لمراد الوحي لا لمراد ذاتيتها وإن كان حقاً، وأن المبلغ الذي ستبلغه في بناء ذاتها متوقف على إرشادات الوحي الخالصة وإشارات الحكمة المتأنية، وأن كل ما تستلهمه الأمة من

حلول يجب أن يخضع للمنهج الروحي التعبدي، الممزوج بالمنهج العلمي التأصيلي، وأن ما تستظهره العقول المؤمنة بناءً على الفهم الموضوعي لمادة الوحي، هو المقدَّم وإن ظهرت المصلحة بادي الرأي خلافه، وأن العمل الصحيح يحتاج إلى رواء الصبر والثبات حتى ينمو ويترعرع في نور الشمس المُضج، مستلهمين ذلك من كلمة الصديق حين قال: «إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا»[1].

وهذا مبني على الجمع بين النظرة الإيمانية المتطلعة لرضوان الله سبحانه وتعالى، وبين العمل المبني على القوة والأمانة، والحفظ والعلم.

وبناءً على ما تقدم فيجب على العلماء المفكرين أن يدركوا أن النهوض الحضاري وإعادة بناء الأمة الوسط ليس مقتصراً على علوم شرعية تقليدية، بل إن الأمر أعظم من ذلك بكثير، فالعصر الذي نعيش يمتاز بالعمل المؤسسي والتخصصية والإدارة الجامعة بين التخصصات المختلفة، وهو رافض لأسطورة الرجل الموسوعي العلامة الفهامة الفقيه المفسر المحدث المؤرخ اللغوي النحوي البياني، ثم بعد التدقيق والتدقيق والتدقيق لا نرى دقيقاً، بل نسمع جعجعةً وجمعاً لكل الفنون والعلوم إلا علماً جديداً مفيداً[2]، وعصرنا الذي نعيش يمتاز بأمور فرضت نفسها على الواقع فكشفت كثيراً مما كان يخفى على الناس؛ ولذلك يجب أن يعيش الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى العصر بأدواته ووسائله، والأمر يحتاج إلى سياسة النفس الطويل، بل إلى سياسة الآجال الطويلة؛ لأن الأمر ليس مجرد دعوة

---

(١) صحيح البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم الحديث: (٣٠١١) ج٣ص١١٦٢.

(٢) من أراد أن يرى شيئاً مما ذكرته فليرجع إلى الكتب المؤلفة والمجموعة من بداية القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الهجري، فإنه سيقرأ العجب العجاب من تلك الألقاب والأوصاف، ولن يرى إلا تكراراً للمتقدمين في التأليف والتصنيف، ولولا الحياء من الله لأتيت على مجموعة كبيرة من تلك الأمثلة.

لصلاة أو صيام أو قيام أو تبرع بمال، بل هو معاودة بناء أمة من جديد، وهذه الأمة تحتاج إلى النهضة الشاملة في جميع مناحي الحياة.

وعندما نتحدث عن الرؤية المستقبلية في بناء الأمة الوسط يجب علينا أن نُعيد النظر في أدواتنا ووسائلنا، وفي مؤسساتنا ومراكزنا، وفي عقولنا وأفهامنا، مع الإحاطة التامة بأنواعٍ من العلم والفقه ضرورية وإلزامية في هذا الوقت، **كعلم الاستراتيجيات والتخطيط**، الذي يعتمد على التخطيط الدقيق في معاودة بناء الأمة، من خلال الاستعانة بعلماء الإدارة والاستراتيجيات؛ **وفقه العمل المؤسسي** الذي يعتمد على إيجاد برامج دعوية مباشرة وغير مباشرة في مسيرة الأمة في الداخل والخارج؛ **وفقه الدعوة والإعلام** الذي يعتمد على نشر المعلومات والأخبار بما يخدم العمل المؤسسي بتصور وتخطيط العمل الاستراتيجي.

فهذه الأنواع الثلاثة من الفقه هي التي تحتاج إلى مراكز علمية في العلم المؤصل(١) والعمل المنظم، وتحتاج إلى الجهد الدؤوب من فاعلية الشباب المسلم نحو تفعيل منظومة الموارد البشرية في خط الإنتاج والتقدم والتطور، على المستويين الفكري والمادي.

وأما ما يخص فقه الواقع وفقه الموازنات وفقه المرحلة وفقه الأولويات فإنه المطلوب القديم الجديد، والتأصيل في هذه الأنواع - وإن كان كثيراً - أخذ الطابع التقليدي في كثير من الأحيان؛ ومن المناسب أن أطرح نوعاً من أنواع الفقه لم أجد

(١) لا أقصد بالتأصيل هنا التأصيل الشرعي، بمعنى الإتيان بالآيات والأحاديث وأقوال علماء الأمة في هذه الأنواع من الفقه؛ وإن كان هذا مطلوباً، وإنما أقصد التأصيل العلمي التخصصي فيما يخص هذه الأنواع من الفقه؛ وذلك من خلال الدراسة العلمية الجادة، وربطها بالمقاصد الحضارية للأمة الإسلامية؛ بما يخدم خصوصيتها، ويحقق أهدافها.

له تأصيلاً علمياً فضلاً أن أجد من نبَّه عليه، وهو «فقه النسبة» أو «الفقه النسبي»، وأقصد بهذا النوع من الفقه نسبة الفعل في الزمن وأثر الحدث في تلك النسبة، فالملاحظ أن الأفعال في عصر النبوة كانت متفاوتةً كثرةً وقلة، بل كانت متفاوتة من حيث زمانها ومكانها، فأحكام قيام الليل والدعاء والصبر على الأذى كانت نسبتها أعلى في الزمن المكي منها في الزمن المدني، وأحكام الجهاد والإنفاق وطلب العلم بأنواعها كانت نسبتها في الزمن المدني أعلى منها في الزمن المكي، فملاحظة هذه النسبة من الأفعال وارتباطها بالزمان والمكان وأثر الأحداث فيها، فقه يحتاج إلى تأصيل؛ لتوجيه الاهتمام بما يلزم تفعيله ضمن فقه الواقع وفقه المرحلة، وخيوط هذه الأنواع من الفقه مترابطة غير منفصلة.

ولو نظرنا في مدى تفعيل فقه النسبة في هذا الزمن لوجدناه ضعيفاً بل باهتاً، ولنأخذ على ذلك ما يوضح المقصود؛ فلو نظرنا في نسبة الدعوة النبوية في تهذيب الأخلاق في المجتمع المدني، ونسبتها في الدعوة إلى سنن الهدي الظاهر، ونسبتها في تصحيح المفاهيم، ونسبتها في إعداد الشخصية المسلمة المتزنة وبنائها البناء السليم، ومدى إيلاء الرعاية النبوية والحرص على ذلك في كلٍّ من هذه الأفعال، لوجدنا النسبة تختلف فيما بين هذه الأفعال كثرةً وقلةً، وهنا مكمن البحث؛ فلماذا اختلفت هذه النسب؟ وما الذي أثَّر فيها؟ وما قيمة الحدث الذي تمر به الأمة سواء في مرحلة البناء والاستقرار أم في مرحلة ما قبل البناء أم في مرحلة ما بعد الاستقرار؟ وهل هذه النسب ثابتة في كل زمن، أو أنها تختلف باختلاف المرحلة والزمن والحدث؟

بلا شك أن الأجوبة الإجمالية على هذه الأسئلة المُجملة حاضرة في ذهنية العلماء والفقهاء، لكنَّ هذا وحده لا يكفي في البناء الصحيح المتزن للأمة الوسط، والمطلوب تفعيل أدوات العصر في الدراسة الميدانية الإحصائية لمعرفة الملائم من غير الملائم، ومعرفة حجم النسبة المطلوبة لتفعيل العمل الدعوي والعلمي والحضاري، وتفعيل التوقيت الملائم لتطبيق هذا الحدث.

والاكتفاء بالارتجال والجواب المبني على الاستعجال غيرُ مقبول في هذا السياق، ويدل على قلة تطبيق المنهج، وقد آن الأوان لهذه الأمة أن ترفض التعجل وفعل المتعجلين، كما آن لها أن لا تقبل إلا تلك النوعية من الفقهاء التي لا تبني أحكامها إلا على دراسة ميدانية تخصصية، كما آن لبعض الفقهاء أن يتقنوا كلمة الإمام مالك رحمه الله تعالى: «لا أعلم»، وأن يحترفوا كلمة الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: «اسألوا أهل العلم».

ولا يخفى على دارسٍ للتاريخ البشري عموماً، والتاريخ الإسلامي خصوصاً، أن التأصيل في مرحلة البناء والإعداد أشدُّ أنواع التأصيل خطورةً على الأمة في أبعاد بنائها الحضاري، وهو مرتبط كذلك بمدى صلاحية البناء وعمره الافتراضي، فالبناء الحضاري لا يختلف عن أيِّ بناءٍ، وعلى الأمة أن تدرك أن قيم العصمة قادرةٌ على البقاء إلى يوم الدين، والعُهدة على هذه الأمة في قدرتها على المواصلة من خلال توجيهات الوحي وإرشاداته، بناءً وتجديداً، رفضاً وقبولاً ضمن العمل المؤسسي المتكامل في شكله ومضمونه.

وهنا أريد أن أقف مع ثلاث مدارس فكرية تهدد المشروع البنائي للأمة الوسط، وهي: «المدرسة الكلاسيكية»، و«المدرسة الحداثية»، و«المدرسة المتطرفة».

أما **«المدرسة الكلاسيكية»** فوجه خطورتها أنها نظرت للوحي من منظار التراث، فقرأت قيم الوحي من خلال المُستقر الفكري والثقافي، وهذا ما يفسر لنا كثيراً من تلك الاعتراضات التي تقف في مواجهة مسيرة التجديد في الجيل الناهض في الأمة، و«المدرسة الكلاسيكية» في حقيقة أمرها هي عبارة عن اجتهاد بشري للزمان والمكان والحدث التاريخي، فأخذت هذه الثلاثية قداستها بسبب موافقة تطبيق قيم الشرع في مرحلةٍ ما من قِبَل علماء الأمة في ذلك الوقت، ومع تطاول الزمان أصبح التقليد لتلك المرحلة روحاً يسري في عروق الأمة، فحصل الخلط بين قيم الوحي الثابتة، واجتهادات البشر المتغيرة، فطرأ على الأمة التناقض والاضطراب في الجمع بين المقاصد الإجمالية للشريعة الإسلامية، وبين التغيرات الزمانية والمكانية؛ لأن أصحاب هذه المدرسة يريدون تطبيق ما سبق فيه الاجتهاد على ما لم يسبق فيه الاجتهاد، وحقيقة الأمر وباطنه أنهم يريدون تنزيل الاجتهاد الفكري الذي هو في حقيقته منتج علمي لحدث قديم على حدث جديد، دون أن يكون هناك اجتهاد لنصوص الوحي الثابتة وإنزالها على الواقع المتجدد، وهذا في حد ذاته إلغاء لتفعيل نصوص الوحي وروحها، وإلغاء للتطوير والتقدم على مستوى عقل الأمة؛ لأن المطلوب تنزيل الآيات على الواقع، لا تنزيل الاجتهاد في فهم الآيات على الواقع، فالأول دعوة للاجتهاد، والثاني دعوة للتقليد وإلغاء الاجتهاد.

وأما **«المدرسة الحداثية»**، فقد نشأت ردةً فعلٍ على المدرسة «الكلاسيكية»، ففيها من الباطل والحق، والغث والسمين، وفيها من الأسئلة والاستفسارات والشبهات التي لا يقوى الإجابةَ عليها «الكلاسيكيون»، وهي في حقيقة الأمر استجابة للواقع المأزوم الذي تعيشه الأمة والذي أقرأه في مستقبل

هذه المدرسة أنها ستلقى نشاطاً واتساعاً في العقود القليلة المقبلة أكثر مما هي عليه الآن، وستكون إحدى اللعنات الشديدات على هذه الأمة، وسيكثر أنصارها من طبقة الحكام والأغنياء وأنصاف وأرباع المثقفين، وستتربع على كرسي الإفتاء والاجتهاد، ثم ستكون السقطة المخزية لها ولجميع أنصارها على يد مدرسة تجديدية تنزل من رحم الأمة؛ لتعيد الأمور إلى نصابها، وهذا هو حال الأمة على مدار تاريخها في أنها لا ترى أخطاءها بالشكل الصحيح، ولا تتنبه إلى تقاعسها، إلا بعد أن تُستعمر في عقر دارها، فتدب الحياة فيها من جديد، وتبدأ مشوار العمل من مرحلة الصفر الثقافي والعلمي؛ لتكون لها الغلبة والريادة والجلبة والقيادة فيما بعد.

وأما «**المدرسة المتطرفة**»؛ فهي مدرسة ترى في القوة المادية طريقاً للخروج من المأزق الذي تعيشه الأمة، وقد اختارت هذه المدرسة الطريق السريع للنجاة من الكوارث التي تلاحق الأمة، وهي تعبر عن حالة اليأس والعجز والبؤس والهرم الذي تعيشه الأمة، وهي وإن بدت أنها نَشِطة عاملة نحو التغيير والإصلاح، لكنها في حقيقة الأمر ستكون الضربة المؤلمة، وستكون المُدية الطاعنة، سواء ذلك أكان على مستوى أفرادها وجماعاتها، التي سرعان ما يدب فيهم عنصر الانقسام والفوضى عند رؤية أي بارقة نصر أو ظفر، أم على مستوى قادتها الفكريين أو العسكريين، الذين هم عرضة لكثرة التقلبات الماضوية بسبب غلبة العنصر العاطفي غير المتعقل في سبيل الوصول إلى الحل الحاسم، أم على مستوى عموم الشارع الإسلامي، الذي يرى فيهم مُتَنفساً للتعبير عن بعض الجراح العميقة في الجسد المُنهك، فهي تمثل حالةً من الانهزام اللاواعي أمام الداخل والخارج، وبعد

أن تنتشر هذه المدرسة بنشاطها العفوي اللامُركز، ستكون النهاية المحتومة دون أن يشعر بها أحد.

والأمة اليوم بحاجة مُلحة إلى مدرسة تجديدية تُعيد فهم معطيات الوحي ضمن حاجة العصر بأدوات الاجتهاد ووسائله المشروعة، وهذه المدرسة ستفرزها مجموعة من الظروف والأحوال التي تمر بها الأمة الإسلامية، وسيكون لها حضور وتأثير على جميع المستويات الثقافية والفكرية والسياسية والحضارية، بل ستكون الصانعة للمستقبل في فكرها ورؤيتها، وهنا أمر بحاجة إلى تأنٍ في التفكير، لينقلنا من مرحلة التفكير الفردي إلى حالة التفكير الجماعي، ومن مستوى القراءة الواحدة إلى مستويات القراءة المتعددة، وهو أن الأمة تعودت أن تأتيها النهضة - الجزئية أو الشاملة - على يد شخص، وهذا الاعتياد يحتاج إلى طرد من الطبع المسيطر على عقلية المسلم المتأثرة بالمعطيات التاريخية والثقافية والاجتماعية، لتنتقل من التغيير الذي يصنعه الفرد إلى التغيير الذي تصنعه قلة مبدعة بالتعاون مع الأمة، وهو الطريق السديد نحو بناء الأمة الوسط، بما يضمن لها الاستمرارية والمواصلة؛ لتكون القلة المُبدعة التي هي نواة الأمة الوسط شريكةً مع عموم الأمة في بناء المنظومة الحضارية لا منفصلةً عنها، فقد جاء وقت التشارك الفعال بين القلة المُبدعة وبين الشارع الإسلامي بجميع قدراته وخبراته وإنجازاته، ضمن التصور الإسلامي المنضبط، وبقيادة الحكمة المتزنة.

والملاحظ أن الأمة تعيش قُبيل نهوضها بين قوتين، قوة دافعة وقوة جاذبة، تتمثل القوة الدافعة في الظروف الفكرية والثقافية والاجتماعية والتربوية والأسرية والاقتصادية والمعيشية والأمنية والعسكرية التي تعيشها الأمة، وهي تمثل حالة الدفع

الضاغط تجاه التغيير، وهذا الذي أسميه الاستعداد النفسي الجمعي الذي يهيئ الأمة للتحرك الفاعل، وتتمثل القوة الجاذبة بتأثير القلة المبدعة على عموم الأمة، بتوجيهها وإرشادها نحو التفوق الحضاري؛ لبلوغ المرحلة المرتقبة في الانتشار الإسلامي الشامل تحقيقاً للوعد النبوي: «**وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»[1].

وفي هذه المرحلة التي تعيشها الأمة بتأثير قوة الدفع يجب على القلة المبدعة المؤثرة أن تتحرك لتكون قوة الجذب، مستلهمةً ذلك من وحي قوله تعالى: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩)، ومن نور قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٤)، ومستمسكةً بقوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٧)، ولن تحقق الأمة مقصودها القرآني المنتمية إليه إلا إذا أحسنت التجاذب والتجاوب مع أنغام الدفع والجذب، متحديةً الضوضاء التي لا تؤثر بقدر ما تُزعج، ومتجاوزة ظلمة الليل الحالك بنصبه وتعبه وإرهاقه، لتبلغ إشراقة فجر مفلق من السماء، كما انفلق لموسى عليه السلام البحر من الأرض.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم الحديث: (٢٨٨٩) ج٤ص٢٢١٥.

قائمة المصادر والمراجع

١- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م.

٢- الأحاديث الطوال، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مطبعة الأمة، بغداد – العراق، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

٣- إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية.

٤- الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن علي بن محمد الآمدي، تحقيق: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٥- أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط٤، ١٩٦٣م.

٦- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٧- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

٨- الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٣، القاهرة – مصر.

٩- إصلاح المنطق، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط٤، القاهرة — مصر، ١٩٤٩م.

١٠- أضواء البيان، محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت — لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١١- الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: سليم الهلالي، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٢- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط٢، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة — مصر، ١٣٦٩هـ.

١٣- الأمالي في لغة العرب، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٤- الأمة الوسط والشهود الحضاري في عصر العولمة، عبد العزيز برغوث، الكويت، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

١٥- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مالك بن نبي، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

١٦- الإيمان، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، دراسة وتحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، عمان — الأردن، ط٥، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٧- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٦٨م.
١٨- تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
١٩- تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٤، ١٩٩٠م، ج٦ص ١٤٢-١٤٣.
٢٠- تأملات في الواقع الإسلامي، عمر عبيد حسنه، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ.
٢١- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.
٢٢- التبيان في إعراب القرآن من وجوه الإعراب والقراءات، أبو البقاء عبد الله ابن الحسين بن عبد الله العكبري، الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٢٣- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٢٤- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ.
٢٥- تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢٦- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر.

٢٧- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
٢٨- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت — لبنان، ط١، ١٤١٠هـ.
٢٩- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت — لبنان، ٢٠٠١م.
٣٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٣١- الجامع الصحيح المختصر، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت — لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٣٢- الجيم، أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة — مصر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
٣٣- حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، تقديم مالك بن نبي، ط٨، ١٩٨٩م.
٣٤- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت — لبنان، ط٤، ١٤٠٥هـ.

٣٥- دستور العلماء، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، تحقيق وتعريب: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٣٦- الدعاء، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٣هـ.

٣٧- دلائل النبوة، أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن أحمد البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣٨- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم السهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٣٩- الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٤٠- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط١.

٤١- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت – لبنان.

٤٢- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

٤٣- سنن البيهقي الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٤٤- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

٤٥- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب – سوريا، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٤٦- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٤٧- السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٤١١هـ.

٤٨- شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق – سورية، ١٩٨٦م.

٤٩- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٠هـ.

٥٠- شعر هدبة بن الخشرم العذري، جمع: د. يحيى الجبوري، دار القلم، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٥١- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
٥٢- طرح التثريب في شرح التقريب، الحافظ عبد الرحيم بن الحسين العراقي، الطبعة المصرية.
٥٣- علل الحديث، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن مهران الرازي، تحقيق: الدكتور سعد بن عبد الله الحميد.
٥٤- العولمة ما لها وما عليها، د. محمد عبد القادر حاتم، القاهرة - جمهورية مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٥٥- عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط٢، ١٤١٥هـ.
٥٦- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة المخزومي.
٥٧- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٣٩٦هـ.
٥٨- الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط.٢
٥٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٧٩هـ، خدمه: محمد فؤاد عبد الباقي.

٦٠- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة – جمهورية مصر، ط١٧، ١٤١٢هـ.
٦١- قصة الحضارة، ويليام جيمس ديورانت، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرون، دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٦٢- قوانين النهضة، القواعد الاستراتيجية في الصراع والتدافع الحضاري، جاسم محمد سلطان، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، المنصورة – مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٦٣- الكشف والبيان، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان،١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ط١.
٦٤- الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٦٥- اللآلي في شرح أمالي القالي، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت – لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٦٦- رسالة بعنوان «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها»، محمد صادق عرنوس، القاهرة، ملحق بمجلة التقوى، العدد رقم (١٦٨)، مطبعة التقوى، ١٣٥٦هـ.

٦٧- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨١هـ.
٦٨- مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج١٨ص٣٧٥.
٦٩- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨هـ.
٧٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ط (١).
٧١- المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٠هـ، الطبعة الأولى.
٧٢- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
٧٣- المحيط في اللغة، الصاحب ابن عباد أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس الطالقاني، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط١، عالم الكتب، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٧٤- المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٧٥- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٧٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٧٧- مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق – سوريا، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٧٨- مسند الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٧٩- المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٩هـ.

٨٠- معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الشرعية السادسة، ١٣٩٩هـ.

٨١- معاني القرآن، أبو الحسن سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط، تحقيق: د. فائز فارس، الكويت – الكويت، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٨٢- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة - مصر، ١٤١٥هـ.
٨٣- معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ١٤١٢هـ، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران.
٨٤- المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل - العراق، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
٨٥- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٨٦- مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق - سوريا.
٨٧- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان.
٨٨- المنفرجة، أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الأصل المعروف بابن النحوي، تحقيق: عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة - مصر.
٨٩- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٩٠- «منهج الأمم السابقة في التعامل مع دعوة الأنبياء والمرسلين، الأنواع والمقومات كما يبينها القرآن»، الدكتور المثنى عبد الفتاح محمود، مجلة جامعة جازان، المجلد١، العدد.١

٩١- الموطأ، مالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٩٢- ميلاد مجتمع، مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق - سوريا، ط٣، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٩٣- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٩٤- نظرية السياق القرآني، دراسة تأصيلية دلالية نقدية، المثنى عبد الفتاح محمود، دار وائل للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

٩٥- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٩٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ود. محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٩٧- الوجوه والنظائر، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة – مصر، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع: فقه تغيير المنكر	١٥٩
المبحث الأول: وسائل التغيير	١٦١
المبحث الثاني: آداب التغيير وضوابطه	١٨١
المبحث الثالث: أبعاد منهجية التغيير	١٨٩
المبحث الرابع: منهج النبوة في التغيير	٢٠٢
الفصل الخامس: إعادة البناء ومرتكزات النهوض	٢١٧
المبحث الأول: مقومات البناء «الإمكان الحضاري»	٢١٧
المبحث الثاني: حركات التغيير والإصلاح وعبرتها	٢٣٦
المبحث الثالث: توفير شروط الميلاد الأول وظروفه	٢٤٣
المبحث الرابع: عقبات وتحديات على طريق التغيير	٢٤٨
المبحث الخامس: استراتيجية النهوض وشروطه	٢٦٠
رؤية مستقبلية لمعاودة بناء الأمة الوسط	٢٧٦
قائمة المصادر والمراجع	٢٨٥
الفهرس	٢٩٧